# زمن الهزيمة

## النيل لم يعد يجري

**بطاقة فهرسة**
**فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية**
**إدارة الشئون الفنية**

القاعود ، حلمي محمد
زمن الهزيمة: النيل لم يعد يجري/تأليف: أ.د. حلمي محمد القاعود.
- ط1- القاهرة: الوادي للثقافة والإعلام، 2015.
280 ص؛ 24 سم.
تدمك: 1 8 85122 977 978
1- القاعود ، حلمي محمد - المذكرات
أ- العنوان 920

* تاريخ الإصدار: 1436هـ -2015م
* حقوق الطبع: محفوظة
* رقم الإيداع: 3195/ 2015م
* الترقيم الدولى: ISBN: 978 - 977 – 85122 - 8 - 1
* الكود: 405/ 2

* تحذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أى جزء من هذا الكتاب بأى شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن أو ما يستجد مستقبلًا ) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابى من الناشر أو المؤلف.

الوادي
للثقافة والإعلام

الإدارة: 42 ش رشدى ( برج جوهر ) - تليفاكس: 23929878
المكتبة والتسويق: 14 أ ش الجمهورية - عابدين – ت: 23912420
ص.ب ( 130 محمد فريد ) القاهرة 11518
E-mail: alwady.c.m@gmail.com
darannshr@hotmail.com

أ. د. حلمي محمد القاعود

# زمن الهزيمة

## النيل لم يعد يجري

بسم الله الرحمن الرحيم

# 1 - الإبحار إلى المجهول

**أعداد غفيرة:**

صرت مجندًا لا شك في ذلك!

وكان عليَّ أن أمضي مع بقية الشباب المجندين، شئت أم أبيت .. أعداد غفيرة من الشباب، معظمهم من المؤهلين علميًّا، يندر أن تجد بينهم أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة. معسكر مصطفى كامل بالإسكندرية يكتظ بآلاف الشبان، كل منهم يجلس ومخلاته أمامه، أو يجلس فوقها. المعسكر شاسع، وقيل إنه تحول الآن إلى عمارات سكنية شاهقة تقطنها أسر الضباط، بعد نقل المعسكر إلى مكان صحراوي لعله العامرية. كان لابد من ارتداء الزي العسكري الكاكي والحذاء الثقيل ووضع الزي المدني في المخلاة. عقب الغروب طلب منا الاستعداد للسفر. لا أذكر هل ركبنا من محطة سيدي جابر أو محرم بك، وفي القطار كانت ليلة طويلة. يمضي القطار بطيئًا بعرباته الكثيرة المكتظة بالعساكر الجدد. يقف في كل محطة تقريبًا، أو بمعنى أدق قبلها بمسافة لا تمكن أحدًا من النزول إليها. كان الجوع وقلة النوم والزحام والمخلاة الثقيلة وضجيج العسكر المستجدين عناصر تعذيب مؤلمة، ولم تنته عند وصولنا إلى حلمية الزيتون مع بزوغ الشمس.

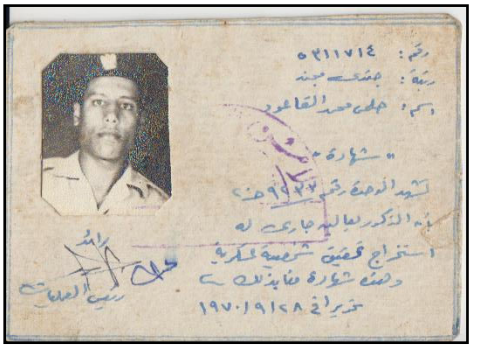

بطاقة عسكرية مؤقتة أيام التجنيد

كان سيل الأفكار والأحلام والخيالات ينهمر طول الليل. ماذا سيجري لنا في هذا التيه المجهول؟ الهزيمة مريرة، والعدو يستثمر انتصاره على مستوى العالم، والعرب صاروا قصعة الأمم، يجلدون أنفسهم في الصحف والإذاعات، ولا يريدون أن يعترفوا بالحقيقة المرة التي تشير إلى الداء الحقيقي، وهو الاستبداد أو دولة الخوف التي يفقد فيها المواطن حريته وكرامته، ويجد كثيرًا من الأوصياء عليه، وهم أوصياء فاسدون مجرمون، يجعلون من الحاكم إلهًا لا يسأل عما يفعل، لا يحبون الصدق، ويدمنون الكذب والتزييف

والبهتان، لا يخجلون من أنفسهم، ولا من الناس، ولا من الله. لا المواطن له قيمة، ولا العسكري المجند له قيمة، وها نحن في قلب القطار، مثل المخالي تلقى في أي مكان دون اكتراث. لا أحد يعلم أين نحن ذاهبون ولا أين المصير؟

**سؤال ملحّ:**

أبناء من نحن؟ سؤال ظل يلح عليّ طول الليل، ولم أعرف له إجابة، يجأر الحاكم بالكلام الكبير، ويقول ببساطة شديدة: "أنا مش خرع زي مستر إيدن"! وبعد أيام يتم قتل جنوده وسحقهم وتدمير معداته، والاستيلاء عليها سليمة، واحتلال ما يقرب من خمس بلاده. يا للعار! ثم يعلن أنه يتحمل المسئولية، ويخرج الناس إلى الشارع، ويقولون له: ابق، وتغني له أم كلثوم: ابق فأنت الزعيم الباقي! وكأن لم تكن هناك هزيمة مذلة وعار ممض، وعلى طريقة المصريين "معلهش". "حصل خير" .. ابق زعيمًا إلى الأبد والبركة فيك، وها هو يعوض العساكر الذين قتلهم اليهود في سيناء بآلاف آخرين، ولا أحد يعلم هل سيأخذ زمام المبادرة هذه المرة ويهاجم العدو بدلا من الموت المجاني، أم يسير على السنة السيئة نفسها وهي تلقّي الضربة الأولى دون أن يرد عليها؟ إذاعة العدو تذيع مقاطع من خطب الزعيم قبل الحرب، وتسخر منه، وترد عليه وهي ترصد الواقع الجديد بعد أن وصل جنودها إلى الشاطئ الشرقي للقناة، ويغيظون بسلوكهم وحركاتهم المصريين جنودًا ومدنيين!

إلى أين نحن ذاهبون؟ ماذا في ذلك المجهول؟ اللّٰهُمَّ لا حول ولا قوة إلا بك!

**اسكت يا عسكري:**

جلسنا أمام المخالي ننتظر ماذا سيحدث. لا الشاويش المكلف بمجموعتنا ولا الضابط المسئول عن جميع المجندين يهدينا إلى شيء. اسكت يا عسكري يا مستجد. أو اسكت يا دفعة!

هل وزعوا علينا بعض البسكويت أو الخبز؟ لا أذكر ولكني كنت مشوقًا إلى النوم، بل إلى إغماض عيني لدقائق، ولكن أنى لي ذلك والضجيج لا يتوقف؟ إذا سكتت جماعة عن الضجيج بدأت أخرى فيه، وهو ضجيج يبدو تغطية على هموم داخلية يصعب البوح بها والتعبير عنها. كل مجند وراءه قصة وخلفه حكاية، ويؤثر أن يندمج مع الآخرين في الغناء

أو الكلام الخاوي من المعاني والمضمون المفيد. إنهم يقطعون الوقت والسلام مع استسلام واضح للقدر المكتوب، حتى لو كان القدر بريئًا من الاستبداد والفساد والهروب أمام العدو. فالمكتوب على الجبين - بالمفهوم المصري الاستسلامي - لازم تشوفه العين، وها هي الشمس ترتفع في كبد السماء ويزداد الجو سخونة، ويحاول المجندون البحث عن طعام أو قضاء الحاجة، ويمضي الوقت ثقيلا غليظًا حتى توسطت الشمس كبد السماء، فجاءت سيارات اللوري، وتم النداء على أسماء المجموعات لتصعد إليها، كل مجند مع مخلاته، وتتحرك السيارات في أحشاء القاهرة، وننظر إلى البشر والحجر والسيارات الخاصة والأجرة والأتوبيسات وسيارات النقل والمحلات، وغيرها.

**الأهرام:**

المدينة أم الدنيا تكتظ بمن فيها ونحن نتفرج على الشوارع وما فيها، وبعضنا يلهو، وبعضنا الآخر يكتفي بالمتابعة البلهاء، ويحاول بعضنا الثالث أن يغمض عينيه ويتجاهل ما حوله.

فجأة هتف أحدهم: الأهرام!

كان منظر الأهرامات الثلاثة لأول مرة واضحًا، والسيارة تقترب في اتجاهه، وبعد أن تركنا الأهرامات وراءنا، وقطعنا بضعة كيلو مترات. دخلنا معسكرًا شاسعًا، مليئًا بالطرق، وعلى جوانبها ترتفع عنابر، وتنهض خيام، وتقف مبان ومكاتب. وهناك عساكر ينتشرون في مختلف البقع بالمعسكر على هيئة مجموعات كبيرة في هيئة طوابير أو أفراد.

توقفت السيارات بين مجموعة من الخيام الفارغة إلا من السراير المغطاة بالمراتب والمخدات، وجدنا عددا من ضباط الصف يقفون أمام خيمة يقيمون فيها. طُلب منا النزول. كل مجند مع مخلاته، وكان هناك نداء على الأسماء، وتوزيع كل مجموعة من المجندين – نحو عشرة - على خيمة واحدة، بعد تعليمات عن طريقة الجمع والتمام واستخدام الصفارة، وإلقاء الحياة المدنية وراء ظهرك.

**لم تكن لنا جراية:**

عرف كل واحد سريره، وفصيلته، والرقيب والعريف التابع لهما، والرقيب أول الذي سيقود السرية كلها، ومواعيد النوم واليقظة، وتوزيع الجراية والطعام .. بالطبع في هذا اليوم لم تكن لنا جراية ولا طعام، لأننا لم ندرج في اليومية الخاصة بالحضور والغياب. في الغد مع الظهر يكون لنا نصيب في الجراية واليمك وغيرهما. ماذا سنفعل اليوم؟ الجوع يلوي الأمعاء، والمسافة بين الكانتين (المقصف) والسرية بعيدة، والتعب هدنا تمامًا مع قلة النوم أو انعدامه منذ الأمس. كان الظلام يرخي سدوله، وقد أوى بعضنا إلى النوم، وبعضنا الآخر ذهب يبحث عن بسكويت أو شيء يؤكل في الكانتين البعيد.

في التاسعة مساء كانت الصفارة الأولى. اجمعْ السريّة. كل فصيلة في ثلاثة صفوف والفصائل الثلاث متجاورة. الرقيب أول زغلول بعد أن عرفنا بنفسه يعلن أن النوم في العاشرة. بعدها لا يقظة إلا في الفجر عند نوبة الصحيان، مع تعليمات أخرى وتحذيرات أكد عليها، ثم أمر بالانصراف إلى الخيام.

**نوم عميق:**

لا أظن أحدًا في هذه الليلة تحرك من سريره إلا مع نوبة الصحيان، كان جميع المستجدين قد استنفدوا طاقاتهم على مدى يومين، وصار النوم حلم جميع الشبان، وأظن أن السكينة هبطت على المكان بعد دقائق، فقد استغرقت السرية في نوم عميق.

عند الرابعة صباحًا كان البروجي يعلن نوبة صحيان، وأخذ العرفاء يفتحون الخيام لإيقاظ من بقي نائمًا، وينبهون بضرورة الجمع، أي الانتظام في الطابور بعد نصف ساعة. نصف ساعة للحمام والوضوء أو الاغتسال والصلاة لمن يصلي، ثم ارتداء كامل الزي العسكري وترتيب السرير والمهمات.

اجمع. الطابور الأول تفتيش على النظافة الشخصية، بعده طابور الرياضة، بعده طابور الإفطار الذي لم يأت في هذا اليوم، كل مجند يبحث عن وسيلة يمسك بها رمقه حتى موعد الغداء في منتصف النهار. كانت خيمة الرقيب أول ومعه الرقباء والعرفاء الذين يقودون السرية ويدربونها، يتناولون إفطارهم الشهي في خيمتهم؛ الخبز والجبن والحلاوة الطحينية والشاي، وربما كانت هناك أصناف أخرى، وسنرى هذه الخيمة بعد ذلك تستأثر

بأطايب الطعام في الوجبات الثلاث، وسيكون هناك احتجاج وثورة وتكدير جماعي للسرية في عز الحر ونار الله الموقدة!

### قسوة الطوابير:

في مقابر الحلفاء – أيام التجنيد بالعلمين

لا أدري كيف مضت الأيام الأولى بقسوتها وشدتها. هل خفف منها أني عرفت شيئًا عن العسكرية عندما شاركت في معسكر الفتوة وأنا في دار المعلمين؟ ربما .. بيد أن تكويني أو حالتي الصحية كانت في وضع غير جيد يتعارض مع قسوة الطوابير وشدتها في الأسابيع الأولى من التدريب.

في اليوم التالي، بعد طابور الإفطار، قيل لنا: هناك طابور للحلاق! هذا الطابور يعد نوعًا من المساواة بين المجندين، وإلغاء لنزعة التمييز لدى بعضهم التي تصر على الاستعلاء والظهور بمظهر مختلف في مجال الاعتناء بالشعر وتصفيفه ودهنه بالفازلين والزيوت. في طابور الحلاق ينتهي كل ذلك. حيث يتم حلق الشعر بالماكينة رقم واحد. أي يتم حلق الرأس "زيرو" كما يقولون، فلا يبقى هناك شعر يتم تسريحه أو دهنه. قضينا نصف النهار عند أكشاك الحلاقين. حاول بعض المجندين رشوة الحلاقين – وهؤلاء مجندون أيضًا – لاستخدام الماكينة رقم ثلاثة بدلا من الزيرو، ولكن الرقيب كان يكتشف ذلك، فيعيد من حلقوا برقم ثلاثة ليحلقوا برقم واحد، مع وابل من التقريع للحلاق.

### حالة من العدل:

في الحلاقة مساواة بلا ريب، ولكن المجندين أو أغلبهم كانوا يرون في ذلك امتهانًا لإنسانيتهم، ولكن التجنيد في كل الأحوال كان حالة من حالات العدل بين أبناء الوطن، فلم يعد هناك من يتميز على غيره، لدرجة أننا رأينا من يهرب من التجنيد ضابط احتياط ليتم تجنيده جنديًّا عاديًّا؛ لأن الضباط الاحتياط في ذلك الوقت كانوا يستمرون لفترات غير معلومة.

ثم إن الضباط والجنود يحملون مؤهلات متساوية تقريبًا، بل إن الضابط أحيانًا قد يكون زميلا للجندي في كلية واحدة وقسم واحد ودفعة واحدة.

**اختراق الضاحية:**

كان هناك طابور اسمه اختراق الضاحية، يعني الجري لمسافة طويلة خارج المعسكر، وتمتد المسافة إلى الأهرام في المنطقة التي تسمى مشعل، وفي الطابور كانت هناك مفارقات مضحكة وخاصة في الهتافات أو المقولات التي يرددها المجندون في هرولتهم ذهابًا وإيابًا، وتسهل عليهم تحمل المشوار. كان يقود الطابور عريف مجند قصير القامة، وكان كثير الأوامر والتعليمات، وينهر المجندين بصفة مستمرة، وكنا - فيما أذكر - نردد ونحن نجري حكاية عن طائرة نفاثة تقوم بغارة على العدو، فاستبدلنا اسم العريف عبد العليم بالطائرة النفاثة، ولا أدري من الذي توصل إلى مهنته الأصلية خارج العسكرية وهي مهنة الترزي، صار الحادي يهتف: يحكى أن .. فترد المجموعه: يحكى إيه؟ فيقول الحادي: عبد العليم الترزي .. وتمضي الحكاية التي نسيت تفاصيلها، ولكن العريف عبد العليم كان يغتاظ، ولكنه في النهاية لا يملك إلا أن يضحك مع الجموع!

**مربع ناقص ضلع:**

الطوابير اليومية تتراوح بين طوابير السير والحركة، وطوابير التعليم على السلاح والقنبلة اليدوية، وغير ذلك. وتتم غالبًا في أرض الطابور حيث تقف كل فصيلة في مربع ناقص ضلع، ويأتي العريف المعلم يقف في المواجهة ليلقي المعلومات، ومع انتهاء مدة الطابور - بنفخ البروجي - نستعد للطابور التالي وهكذا. كانت هناك طوابير تتم في بعض العنابر حين يكون المعلم ضابطًا، حيث يجمعون له السرية كلها، وأحيانًا كانت توزع أوراق استبانة لنبدي فيها الرأي حول بعض الأمور العسكرية أو العامة، ثم يتم جمعها بعد انتهاء المحاضرة.

في نهاية الأسبوع يكون هناك ما يسمى بالشئون الإدارية، حيث يقوم المجند بتنظيف سلاحه، وترتيب أمتعته، وغسل ملابسه، والذهاب إلى الحلاق، وكتابة خطابات إلى أسرته وأصدقائه عن طريق البريد الحربي المجاني، وغير ذلك من أمور.

**أول تصريح:**

بعد أسبوعين أو ثلاثة سمحوا لنا بتصريح لمدة أربع وعشرين ساعة بعد ظهر الخميس لنعود مساء الجمعة قبل العاشرة. من يتأخر يحسب غائبًا، والغياب من الصفات الخطيرة التي تلحق بصاحبها، ولا يعادلها إلا تهمة ضياع السلاح، فالسلاح يجب أن يحافظ عليه الجندي مثلما يحافظ على روحه، والغياب يعد دليلا على عدم الانضباط، وإذا كان الجيش غير منضبط فمعنى ذلك عدم السيطرة وعدم القدرة على تنفيذ الأوامر؛ مما يهدد بالفوضى التي تدمر البناء التنظيمي والنظام العسكري.

فيما بعد كان التمام يتم من خلال إبلاغ رقيب الفصيلة بالوصول، ومن خلال إحصاء من أبلغوا بالوصول تتم معرفة من تغيبوا.

كان أول تصريح بالإجازة مفعمًا بالمشاعر، مليئًا بالحركة، ومع أن الرحلة بالنسبة لنا - نحن أبناء الوجه البحري - كانت تبدو معقولة حيث يمكن الوصول إلى منازلنا في وقت متأخر من الليل والبقاء حتى عصر اليوم التالي، وتناول وجبة دسمة في البيت، فإن إخواننا الصعايدة، وخاصة أهل الصعيد الجواني كانوا لا يستطيعون الإفادة من تصريح الإجازة المحدود بأربعة وعشرين ساعة؛ فالسفر يستغرق أكثر من ذلك؛ ولذا كانوا يفضلون البقاء في المعسكر، أو قضاء الإجازة لدى أقاربهم في القاهرة أو بعض المدن القريبة.

**التعويض الغذائي:**

ولا ريب أن فرحة أبي وأمي بأول إجازة لي كانت كبيرة، وأيضًا فرحة أسرتي والجيران. كانوا يرون أن الشمس قد لوّحتني وغيّرت شكلي، وأن العسكرية جعلتني نحيفًا؛ بسبب قلة الطعام وكثرة الجهد، ولذا أستحق وليمة لتعويض ما فقدته في الأسابيع الماضية.

لم تقصر أمي في العمل على تعويضي غذائيًّا، وقضت الصباح حتى الظهيرة في الطبخ، وخبز كمية كبيرة من القرص؛ لأعتمد عليها في المعسكر، وجاءت بعلبة حلاوة طحينية، وأشياء أخرى وضعتها في حقيبتي؛ حتى لا أحتاج للشراء من الكانتين.

**طلبوا أيضًا للتجنيد:**

كانت أول إجازة قصيرة منعشة ومفيدة؛ فقد اطمأنت الأسرة، وقابلت زملائي وكثيرًا من أهل القرية في صلاة الجمعة، وعرفت أن كثيرًا من زملائي الذين تخرجوا معي في المعلمين وعُينوا في أماكن أخرى قد طلبوا أيضًا للتجنيد، وفي طريقهم إلى مراكز التدريب، وبعضهم قد يحصل على إعفاء لظروف عائلية أو طبية.

لم ألتق بخالي في الإجازة؛ لأنه كان موجودًا بالمحلة، فجاءني في المعسكر، وسمعت اسمي في الإذاعة الداخلية لأجمع (أحضر) عند مكتب القائد، وكان خبرًا مزلزلا، فمن يذهب إلى مكتب القائد في الغالب يكون مطلوبًا لعقوبة أو للقيام بمهمة غير محببة. فاستأذنت من الرقيب أول وذهبت، وعرفت أن خالي ينتظرني في المكان المخصص للزيارات، وقضيت معه بعض الوقت، وكنت سعيدًا بزيارته التي جعلتني متواصلا مع العالم الخارجي.

**نقطة عرق = نقطة دم!:**

كان التدريب شاقًّا ومتواصلا، وكان الشعار: نقطة عرق تساوي نقطة دم. والمعنى أن بذل المزيد من الجهد في التدريب يوفر السلامة للجندي وهو يقاتل، وكان هناك كلام يتردد أن الهزيمة في **67** كانت بسبب عدم تأهيل الجنود بالتدريب الشاق للقتال.

وأذكر أن مشقة التدريب كانت تجعلنا في حالة جوع باستمرار، وكان طعام المعسكر لا يكفي؛ ولذا كانت هناك سرقات لا تتوقف للجراية (الخبز)، وأيضًا سرقة القُرص والحلاوة التي أحضرها في الإجازة، فالجوع كما يقولون كافر، ولأني كنت ساذجًا لا أعرف كيف أخفي أشيائي فقد كنت أتعرض لسرقة مهماتي أيضًا، وليس مأكولاتي وحدها، وكنت أتصور أن القفل الرديء الذي أغلق به مخلاتي يمكن أن يحمي أشيائي، ولكن بعض الزملاء المحترفين كانوا يقولون لي: إن المخلاة يمكن أن تسرق بأكملها، ويضحكون ويقولون: إنهم يستطيعون سرقتك بشحمك ولحمك!

**بقايا خبز:**

غيرت القفل أكثر من مرة، ولكن الجوع كان يفتح أي قفل. وأذكر في يوم ما رجعت من الطابور بعد الظهر لم أجد طعامًا في مخلاتي. لا القُرص ولا الحلاوة، ولا الجراية، فاضطررت أن أبحث عن بقايا خبز وراء خيمة الرقباء موضوعة بجانب السور، وكانت جافة شديدة الجفاف. ولكن للجوع أحكام!

تعودنا اختراق الضاحية في طابور صباحي، وظللنا نخرج في هذا الطابور بعد الانتقال إلى الكتائب المقاتلة في مسافات أطول. وكنت أتمّه بعد عناء واضح، ولكني كنت أشعر بفائدته صحيًّا، فضلا أنه كان يفتح الشهية للطعام والإقبال عليه، مع أن طعامنا لا يغري؛ بسبب رداءته أو سوء إعداده، وكنت في الأيام العادية أكتفي بالمأكولات الجافة.

**احتجاجات:**

كانت هناك في بعض الأوقات احتجاجات على الطعام؛ بسبب قلته أو اختلاس كثير منه أو سوء طهوه. أذكر أن زميلا اسمه عبد العزيز كان خريج زراعة، وكان نحيفًا، ولكنه تجرأ واستوقف ضابط عظيم المعسكر وكان برتبة رائد – نسيت اسمه – وطلب منه أن يشاهد اليمك (الطبيخ) الذي صرفوه لوجبة العشاء، وكان الجنود قد عزفوا عن تناوله، فأمر بجمع السرية كلها ووبخ الرقيب أول والرقباء، ثم اتجه إلى خيمتهم وفتش تحت السرائر، فوجد كميات كبيرة من الخبز والجبن الأبيض وقوالب الحلاوة الطحينية. وكل هذا كان يختلسه الرقباء من طعام الجنود الذين لا حول لهم ولا طول، ولم يكن هناك بد من تحويل قيادة السرية كلها من ضباط الصف (الرقيب أول والرقباء والعرفاء) إلى المكتب، أي التأديب بأورنيك ذنب (نموذج اتهام) لتوقيع عقوبة عليهم، وكانت العقوبة القاسية بالنسبة لهم هي حبس القشلاق، أي المبيت في المعسكر، فقد كان معظمهم من المتطوعين – موظفين – وكانوا يحصلون على تصريح مبيت يومي للذهاب إلى بيوتهم وأسرهم في سيارة تحملهم من المعسكر إلى محطات معينة في داخل القاهرة وتعيدهم في الصباح من هذه النقاط، وكان منع هذا التصريح ليبقوا في المعسكر حرمانًا عظيمًا من

متعة الوجود بين أفراد الأسرة والسهر في المقهى بين الأصدقاء، والتحرك بحرية في شوارع القاهرة.

### جرأة على الرفض:

صار زميلنا عبد العزيز نجمًا وزعيمًا تتجه إليه الأنظار كلما أحسسنا بغبن أو ظلم، وكان هناك شعار يقول: نفّذ ثم تظلّم، أي عندما تسمع الأمر العسكري نفذه أولا، ثم اشك إلى القيادة الأعلى، وكنا نعلق ساخرين: كيف نتظلم إذا كان الأمر اقتل نفسك أو احرق نفسك؟

لقد تجرأ مجندون آخرون على الرفض ومواجهة الظلم، وأذكر أن زميلا لنا كان اسمه "شوقي عزام" جلس أمام خيمته ذات مرة، ونادى على الرقيب أول زغلول، وقال له إنه لن يأكل وسيظل جالسًا بطعامه حتى يمر الضابط النوبتجي ليريه الطعام الفاسد، ويبدو أن اللحم الذي طبخوه كان فاسدًا، وكان تصرف زغلول متغطرسًا، فقد جمع السرية في طابور تكدير، حيث وقفنا لفترة طويلة في الوضع انتباه، والرقيب أول يهدد ويتوعد. وبعد الانصراف ذهب أحد العرفاء إلى شوقي عزام ليقنعه بالعدول عن التظلم.

لعلي رأيت شوقي عزام بعد ثلاثين عامًا عند مزلقان القطار المتصل بكوبري دسوق قرب بائع الصحف. نظر كل منا إلى الآخر، ولكن أحدنا لم يتكلم. لعلي كنت أشك أنه هو، ولعله لم يكن واثقا أنني الشخص الذي زامله؛ بحكم السن وتغير الهيئة والزي!

### طلبة المطبخ:

بصفة عامة فقد كان الاحتجاج على الأمور المعيشية مجديًا إلى حد كبير، فقد قل اختلاس الطعام، وتحسن إعداده في المطبخ، وإن كان الرد على الاحتجاج جاء بمزيد من التكدير، تمثل في تعيين عدد أكبر من الجنود ليكونوا طُلبة المطبخ. والطُّلبة تعني المجندين الذين يتم تكليفهم بحمل الأجولة والكراتين، ونقلها من المخازن إلى السيارات أو من السيارات إلى المطبخ، أو تقشير البطاطس أو تقطيف الملوخية أو تقطيع اللحوم

النيئة أو غير ذلك من أعمال صعبة في مطبخ ضخم يعدّ الطعام لألوف المجندين. لم يكن الأمر جلوسًا في الظل، بل كان هناك ضابط الصف الذي يأمر وينهى بقسوة من أجل إنجاز الطعام، فيتحرك العشرات مثل الرهوان وبمنتهى السرعة حتى يتم توزيعه على المندوبين القادمين من السرايا والتشكيلات الأخرى؛ لذا كان معظم الجنود يتهربون من الطلبة، ويفضلون البقاء في الطوابير والشمس الحارقة حتى يأتي موعد الغداء.

**أصدقاء الخيمة:**

في الفصيلة والسرية فرصة للتعارف واكتساب المزيد من الأصدقاء، من شتى أنحاء مصر، والتعرف على ألوان شتى من اللهجات والعادات والمستويات الثقافية والخلقية، وللأسف كانت مرحلة التدريب الأساسي محدودة الوقت، فلم يكن هناك وقت فراغ أو فرصة متاحة لكسب أصدقاء كثيرين، ولكن أصدقاء الخيمة القليلين يتحولون إلى أخوة خاصة، إذا استمروا معًا بقية مدة التجنيد، التي تضاعف طولها أربع مرات.

وقد بقي بعضهم معي حتى تسلمنا شهادة إنهاء الخدمة معًا. وهناك من ظل على صلة حتى كتابة هذه السطور عبر البريد أو الهاتف، وبعضهم عرفت أبناءه الذين زاملوا أولادي في العمل، وتقاربوا معهم حتى عرفوا الطريق إلى قريتي وبيتي، وبعضهم بكيت رحيله بعد سلسلة من الآلام والمتاعب الصحية - رحم الله من رحلوا ومن ظلوا أحياء.

**زيارة إلى الطالبية:**

في إجازة الساعات الأربع والعشرين التي كانت تمنح أسبوعيًّا قدر لي أن أزور الأستاذ أنور الجندي في بيته لأول مرة. كنت قد تعرفت عليه من قبل، لعل ذلك كان في دار الأدباء بشارع قصر العيني، وتبادلت معه الرسائل، ولعلي أرسلت له رسالة من داخل المعسكر وأخبرته أني سأمر عليه وأنا في طريقي إلى القرية. كان الرجل يسكن في الطالبية بالهرم، وكانت يومها ما زالت أقرب إلى المنطقة الزراعية حيث كان بيت الرجل المكون من ثلاث طبقات يقف فيها منفردًا، وأمامه مسجد يؤم الناس فيه أحد أقاربه وهو الشيخ أحمد الجندي – رحمهما الله – ويبدو أن الرجل قام على بناء المسجد في المنطقة البكر

بجهود ذاتية. لم يكن في الشارع إلا بيوت قليلة تبدأ من ناحية شارع الهرم بشركة البيبسي كولا، التي كانت – فيما يبدو - أول بناء يقام في المنطقة. كان الهدوء هو السمة الغالبة على الطالبية في ذلك الوقت، أما قبل خمسة عشر عامًا - آخر مرة زرتها - فقد كانت دنيا أخرى مكتظة بالبشر والحجر، والضجيج هو العنصر الذي يميزها مع الزحام الرهيب، وتمتد في كل الاتجاهات، وقد وصلت جنوبًا إلى ما يعرف بمنطقة اللاسلكي ومعظم سكانها من القادمين من الصعيد الذين بنوا في الأرض الزراعية وحولوها إلى بيوت مرتفعة، وإن كان معظمها ضيق جيدًا، وتبدو من الداخل شبه مظلمة؛ لأن أصحابها اشتروا أمتارًا قليلة ليبنوا فيها غرفتين ضيقتين مع الحمام، ثم مع مرور الزمان وتحسن الأحوال يبنون فوقها للاستثمار أو التوسعة على العيال، وكثيرًا ما تجدهم قد ربوا أمام المدخل أو الدكان - الذي يمثل غرفة من الدور الأرضي - مجموعات من الخرفان، يتم علفها حتى تباع في المناسبات.

### كتلة معنوية واجتماعية:

ويمكن أن تجد شوارع بأكملها ينتسب قاطنوها إلى بلدة معينة أو منطقة معينة في الصعيد، فقد جاءوا بالتتابع من قراهم وبعضهم يساند بعضًا ويجاوره حتى يصبح الشارع أشبه بعزوة كبيرة، تمثل كتلة معنوية واجتماعية في مواجهة الآخرين.

لقد أدركت ذلك عند زيارتي في التسعينيات لبعض من أعرف هناك، وكنت أعاني عناء مؤلما في هذه الزيارة وأنا أقود السيارة، فقد كان الزحام والفوضي والصخب عناصر حاكمة لا أقوى على تحملها، خاصة وأن متاعب صحية كانت قد أخذت تزحف على جسدي، مع وهن الكهولة، بل الشيخوخة التي بدأت مبكرًا.

### يعيش متواضعًا:

حين سألت عن بيت الأستاذ أنور الجندي وجدت كل من في الشارع يعرفه، ويسارعون بالتوجيه إليه. واضح أن الرجل يعرف أهل المنطقة وهم يعرفونه.

وكانت له يد على كثير منهم، ويعيش بينهم متواضعًا متخلقًا بأخلاق الإسلام في مراعاة حقوق الجيران ومساعدتهم والوقوف بجوارهم في السراء والضراء، مما أوضحته في ترجمتي للرجل على امتداد كتاب لم ينشر بعد.

كان الرجل في استقبالي هاشًّا باشًّا، مشفقًا عليَّ وهو يراني بثيابي العسكرية، يبدو عليّ الإجهاد وخشونة المظهر. تحدث إليّ بودّ وطيبة، وسألني عن أحوالي في المعسكر، وماذا أخطط في مجال الأدب والثقافة. حدثته عن ضيق الوقت بسبب التدريب وعدم وجود فرصة للقراءة أو الكتابة. وقلت له إن ما يشغلني هو الالتحاق بالجامعة ومتابعة دراستي فيها .. حدثني عن كتبه الجديدة وأهداني كتابًا ضخمًا عن العالم الإسلامي والاستعمار، وكتب لي إهداء جميلا ما زلت أعتز به حتى اليوم، ورأيت أنني أصغر من هذا الإهداء الذي يقول فيه: "إلى الأخ الأعز النابه الأستاذ حلمي القاعود .. مع أصدق عبارات التحية والتقدير .. أنور الجندي"، وكانت إهداءاته في الكتب التالية لا تخرج عن هذا الإهداء أو مضمونه.

جاءت زوجه الطيبة الحاجة أم فايزة، وحيتني وقالت لي: إنك لم تأكل يا ولدي؟ آتي لك بالطعام أولا. شكرتها وأخبرتها أنني تناولت طعامي في المعسكر قبل قليل، فجاءت إلي بالشاي، وانصرفْتُ بعد أن ودعني الرجل ونزل معي إلى مدخل البيت، ونظرت خلفي فرأيته واقفًا أمام البيت يطمئن عليَّ، ويلوح بيده مودعًا وأنا أخطو نحو شارع الهرم لأركب الحافلة إلى باب الحديد.

### نصف تذكرة:

كان القطار هو وسيلة المواصلات المتاحة آنئذ للجنود. يدفعون نصف تذكرة في الدرجة الثالثة المزدحمة. وكثير من الجنود يصعد إلى رفّ القطار ليجلس إن كان الرفّ مزدحمًا أو ينام إن كانت هناك مساحة مناسبة ليفرد جسمه أو جزءًا منه، بعد أن يضع حقيبته تحت رأسه ويذهب في سبات عميق. كنت من النوع الذي لا ينام أبدًا طالما كنت في سفر، أو كنت بعيدًا عن المكان الذي تعودت النوم فيه. ولكن كثيرًا من الجنود كانوا يستغرقون ولا يبالون.

الزحام في هذه المرحلة كان شديدًا، وكان معظم الركاب من المجندين، تنظر إلى داخل القطار ترى كأن مصر كلها قد جندت أو صارت عساكر. وتنظر إلى ظهر القطار فتراه كأنه مزروع بمئات العساكر.

كان المجندون يسمون الركوب فوق ظهر القطار بالتسطيح – من ركوب السطح – حيث لا يدفعون نصف تذكرة ولا غيره، ولكنهم قد يدفعون غرامة بسيطة إذا خرجوا من بوابة المحطة الرئيسة؛ لذا كانوا يحرصون على الخروج من أماكن آمنة.

**نزلت في الطريق:**

أغراني بعضهم بتجربة التسطيح، وكانت تجربة قاسية، لم أكملها، حيث نزلت في الطريق وركبت القطار من الداخل. لقد كان الركوب على السطح مرعبًا، فرصة التزحلق والسقوط كبيرة، والهواء الشديد يعصف بالأجساد، وربما دفع المزاح بين الجنود إلى كوارث، ناهيك عن الكباري التي يمر القطار من تحتها ويمكن أن تحصد الرءوس حصدًا إذا لم ينتبه الراكبون ويخفضون رءوسهم تفاديًا للكتلة الحديدية التي تشكل قاعدة الكوبري.

كتمت هذه الجريمة ولم أبح بها لأحد حتى كتابة هذه السطور، وظللت فترة طويلة ألوم نفسي وأبكتها لهذه الفعلة الشنعاء. وكلما طرح الأمر أمامي أرفضه بكل قوة وأسفّهه وأدعو لمقاومته. الآخرون كانوا يتعاملون مع المسألة دون اكتراث وكأنها أمر عادي لا غضاضة فيه!

ومع أن حوادث عديدة وقعت، والصحف تحدثت عنها فلم يتوقف التسطيح، وحاولت القوات المسلحة - عن طريق الشرطة العسكرية - أن تتصدى للظاهرة، ولكنها لم تحقق النتائج المطلوبة.

ولعل الفريق الشاذلي رئيس الأركان هو الذي جعل تصريح الإجازة (بلون أحمر) يعد تذكرة سفر مجانية؛ مما لا يترك حجة لمن يركبون بالتسطيح حيث يدّعون أنهم لا يحملون

نقودًا أو ثمن التذكرة، وقد تقلّصت الظاهرة بالفعل؛ لأن من كان يتم ضبطه يعاقب عقوبة شديدة.

### إثبات تجنيد:

التقيت بأحد زملائي في المعسكر، وكان زميلي في التدريس في منطقة دسوق ممن حصلوا على الثانوية والتحقوا بالمعلمين لمدة سنتين وقد جند قبلي بنحو شهر. كان عقب حصوله على الثانوية العامة قد قدم أوراقه إلى كلية دار العلوم، ولكنه عقب الإعلان عن قبول دفعة من حملة الثانوية بالمعلمين فضل أن يدخلها من أجل الوظيفة، ثم يكمل بعد الحصول عليها في الجامعة. قال لي: إنه ذهب إلى الكلية، واستطاع أن يستخرج الكارنيه ليدخل الامتحان في آخر العام.

وعندما ذهبت إلى الكلية وأخبرت المسجل (أمين الكلية) أنني في التجنيد، أخبرني أن المطلوب هو إثبات تجنيد؛ لحفظ مكاني بالكلية، وأنه لا يمكنني دخول الامتحان حتى أقدم شهادة تأدية الخدمة العسكرية. قلت له إنني أؤديها بالفعل. قال: إن القرار الوزاري يمنع كل من تجاوز الثانية والعشرين من القيد بالكليات قبل تقديم هذه الشهادة. حاولت إقناعه، ولكن الرجل في النهاية قال: إنني أنفذ القانون. خرجت من عنده غاضبًا وساخطًا. كيف لقانون – أيًّا كان هذا القانون - أن يحرمني من التعليم وأنا أؤدي خدمة الوطن؟

### ازداد الأمر تعقيدًا:

رحت بعد ذلك وأنا في وحدتي العسكرية أتسلى بكتابة المذكرات إلى الجهات المعنية في التعليم العالي والجامعة وقيادة القوات المسلحة ورئيس الدولة وغيرهم، أعرض عليهم الموضوع وأطلب استثنائي من القانون لأؤدي الامتحان؛ فأنا لا أحصل على شيء ليس من حقي، ثم إنني أخدم الوطن بحياتي، أيضًا فقد انتهت مدة التجنيد الأساسية، ودخلت فيما يعرف بالاحتياطي الذي لا يعرف أحد متى ينتهي؛ مما يعني أنني أديت الخدمة القانونية، وأزيد عليها الخدمة الاحتياطية.

لم تكن هناك استجابة، وازداد الأمر تعقيدًا لدى مسجل الكلية الذي كانت كل المذكرات تعود إليه في النهاية، وتصب عنده، وتستقر في مكتبه.

وقد عرفت ذلك عندما اصطحبني الدكتور أحمد هيكل الأستاذ بالكلية – والوزير فيما بعد – إلى المسجل ليقول له: إن هذا المقاتل الأديب يستحق أن نكرمه ونسهل له عملية دخول الامتحان بدلا من حرمانه. وأبدى الرجل حماسة كبيرة، ولكن المسجل الذي كان يكتم غضبه؛ بسبب ما أكتبه للمسئولين، أخرج صورة القانون الذي يمنع القيد وقدمها للدكتور هيكل. فعبر الرجل عن إحباطه وحزنه بعد أن خرجنا من مكتب المسجل.

## حديث النقود:

كانت قضية الجامعة والامتحان ومواصلة الدراسة تشغلني إلى جانب قضية أخرى، هي توفير ما تحتاجه الأسرة من نقود في الفترة التي قضيتها في التدريب. بالنسبة لي كان الأمر هينًا فأنا أحتمل، وليس لي طموحات أكثر من توفير النقود اللازمة للسفر وبعض الأشياء البسيطة، وكان حديث النقود يشغل كثيرًا من المجندين، وخاصة من كان ذووهم يعتمدون عليهم في المعيشة والتزاماتها، فصاروا بعد التجنيد بلا دخل. كان معظم المجندين يعملون قبل التجنيد وفقا لقانون تعيين الخريجين في القوى العاملة وكان لكل منهم راتبه الشهري، ولكنهم الآن فقدوا هذا الراتب. الجيش يومئذ يمنح المجند طوال فترة تجنيده أربعة وخمسين ومائتي قرش، أي نحو جنيهين ونصف جنيه، وهو مبلغ يكفي المصروفات الشخصية للمجند في ذلك الحين. ويستطيع أن يغطي به ما يشتريه من الكانتين داخل المعسكر وما ينفقه على المواصلات وأشياء أخرى خارجه.

## حتى تخرج بفضل الله:

كانت الأفكار داخل الحكومة والجيش تعمل على توفير الحد الأدنى من الاستقرار للمجندين؛ ليتفرغوا للتدريب مع رفع روحهم المعنوية، فصدرت قرارات تمنح المجند الذي يعمل في الحكومة طوال فترة تجنيده الأساسية نصف راتبه الذي كان يتقاضاه قبل التجنيد، مضافًا إليه المكافأة التي كانت تمنح لمصروفه الشخصي، أما من لا يعملون فقد

كانوا يمنحون مبلغًا يعادل نصف ما يأخذه الذين يعملون من نظرائهم عن طريق الشئون الاجتماعية.

وفي فترة الاستبقاء (التجنيد الاحتياطي)، فيتقاضى المجند المستبقى مرتبه كاملا من جهة عمله، ومن لا يعمل يصرف له مكافأة تقارب مرتب نظيره الذي يعمل من الشئون الاجتماعية، وإضافة إلى هذا فقد تم تعيين من لا يعملون في الجهات الحكومية، حتى الأمي الذي لا يحمل شهادة تم تعيينه ضمن العمالة الثابتة، وكان يصرف له مرتبه كاملا بعد نقله إلى الاحتياط.

كان مجموع ما كنت أتقاضاه في فترة التجنيد الأساسية يقرب من عشرة جنيهات، وكان المبلغ معقولا بالنسبة لي حيث كنت أساعد أسرتي، وأساعد شقيقي الذي كان في السنة الخامسة بثانوية الأزهر (علمي)، وانتقل بعد عام من تجنيدي للالتحاق بكلية الهندسة، وهو ما فرض نفقات أكثر للإقامة والمعيشة في القاهرة، وكأن الله سبحانه أراد أن يجعلنا لا نحتاج إلى أحد سواه، وسترنا وأعان على أن يواصل الشقيق دراسته في الهندسة دون متاعب كثيرة حتى تخرج بفضل الله.

**حرب الاستنزاف:**

قبل التجنيد بعدة شهور كانت هناك عمليات من جانب المصريين ضد قوات الاحتلال؛ تمهيدًا لما عرف بحرب الاستنزاف، وكان هناك مقاتلون يقومون بعمليات في سيناء تكبد العدو خسائر كبيرة، كما كانت هناك عمليات بحرية مؤلمة للغزاة اليهود. وعلى جبهة الأردن فقد كانت هناك معركة الكرامة، التي هاجم فيها العدو معسكرات الفدائيين الفلسطينيين في21 مارس، حيث حاولت قوات الغزو اليهودي التوغل في الأراضي الأردنية؛ بغية احتلال مناطق معينة (مرتفعات البلقاء)؛ حتى تصبح وسيلة ضغط للتخلص من الفدائيين الفلسطينيين. بدأت المعركة في الفجر بحشد 15 ألف جندي يهودي من المدرعات والمشاة المحمولة بالمجنزرات والمظليين، إضافة إلى الدعم الجوي، فتصدى الجيش الأردني - متلاحمًا مع قوات المقاومة الفلسطينية – للغزاة، وأوقعا بهم هزيمة نكراء، حاولوا أن يخفوها، لكن العالم عرف النتائج. كانت خسائر قوات

الغزو اليهودي 700 فرد بين قتيل وجريح، وأكثر من 150 دبابة ومركبة، وقامت بالانسحاب مضطرة في الساعة الخامسة مساء دون أن تحقق هدفها، وكانت الخسائر على الجانب الأردني 170 فردًا بين قتيل وجريح، وحوالي 60 مركبة، وهو ما كان له أثره في رفع الروح المعنوية بين القوات المسلحة المصرية والشعب العربي كله.

**حالة من الشدّ:**

وقد انعكست عمليات المقاومة في سيناء والبحرية على الجيش بصفة عامة، وفي مرحلة التدريب الأساسي كانت هناك حالة من الشد التي تبدو في سلوك القيادات، فقد كان المرور على الفصائل والسرايا لا يتوقف، والتفتيش يحدث باستمرار، وكان الشعار الذي سبقت الإشارة إليه "نقطة عرق تساوي نقطة دم" يتردد على ألسنة الضباط وضباط الصف في الطوابير والمحاضرات، وتتلقفه آذان الجنود؛ مما ينبئ أن الأمور تمضي في سياق تحكمه الجدية والرغبة في تحرير الأرض المحتلة، ومواجهة العدو مهما كانت التضحيات.

وعندما اقتربت مرحلة التدريب الأساسي من نهايتها كانت تقام أحيانًا مباريات في كرة القدم بين السرايا، وكان يحضرها المجندون الذي كانوا يشجعون الفرق التي ينتمون إليها.

وكان هناك بعض نجوم الرياضة في المعسكر يعملون في اختصاصات مختلفة، على سبيل المثال كان هناك بطل على مستوى الجمهورية في المصارعة أو الملاكمة - لا أذكر - اسمه عبد الحميد الجندي، ويحمل رتبة رائد أو نقيب، ويتردد اسمه باستمرار في صفحات الرياضة، وكان هناك لاعب النادي الأهلي الشهير طه إسماعيل، أو الشيخ طه، كما كانت الصحف تطلق عليه آنئذ، وكان برتبة عبد الحميد الجندي تقريبًا. وكنا نعد معسكرنا محظوظا بوجود أمثال هؤلاء النجوم.

**إجازة ثلاثة أيام:**

في الأسبوع الأخير من التدريب ذهبنا للاختبار النهائي في ميدان ضرب النار والتصويب على الشواخص الموجودة في الميدان بالبندقية الآلية، وهو ما ذكرني باختبار

ضرب النار أيام الفتوة في دار المعلمين. كنت أيامها أخشى البندقية وارتدادها في الكتف، ولكني هذه المرة كنت متمكنًا منها ومتحكمًا فيها.

بعد العودة قيل لنا إنكم سترحّلون إلى الوحدات المقاتلة للتدريب على السلاح الذي تم توزيعنا عليه في منطقة التجنيد، وسُجل على نماذجنا (ملفاتنا)، وهو سلاح المهندسين. وفي هذه الفترة كانت الطوابير قاصرة على طوابير التمام والطعام، ثم منحونا إجازة لمدة ثلاثة أيام نعود بعدها للترحيل.

**إبرار جوي:**

سمعنا في أثناء التدريب عن غارات صهيونية (إبرار جوي) في جنوب البلاد لضرب قناطر نجع حمادي ومحطات كهرباء في قنا وإسنا وأسيوط، بالإضافة إلى قيام طائرات العدو باختراق حاجز الصوت فوق القاهرة، والعديد من عمليات استعراض القوة اليهودية، ومحاولة تكثيف الضغط النفسي على القوات المسلحة والشعب المصري؛ للإيحاء بعدم جدوى مواصلة حرب الاستنزاف.

كانت عمليات الإبرار الجوي سهلة وسريعة في منطقة شبه خالية، فطائرات العدو تنطلق من رأس محمد في جنوب سيناء وتصل إلى قنا في وقت قصير للغاية؛ لأن المسافة قصيرة للغاية أيضًا. وعرفنا فيما بعد أن اليهود الغزاة أنزلوا بعض رجالهم عند محطة نجع حمادي التي تقع على أطراف المزارع والصحراء، وهناك ضربوا عشرة محولات لكهرباء السد العالي، هذه المحولات كانت على عربات سكك حديدية. ثم ضربوا أيضًا كوبري قنا، وكان تحت الإنشاء، وضربوا قناطر نجع حمادي. وهي إحدى ثلاث قناطر في الوجه القبلي: قناطر إدفو ونجع حمادي وأسيوط، وكل واحدة تتحكم في ري نصف مليون فدان، وكل هذا معروف ومرصود في العالم كله، وكانت الإصابات في هذه المنشآت المعمارية الهندسية سطحية وطفيفة لحسن حظنا وسوء بختهم - كما يقول الرئيس السادات في كتابه البحث عن الذات - خصوصًا أنهم بعد أن قاموا بأعمالهم المسرحية التلفزيونية أبلغت طائراتهم قيادتهم أن مصر كلها غرقت، وأعلنت القيادة في الإذاعة أن الأرض قد

غطتها المياه. ويشير السادات أن بعض آبائهم تخيل أن السد العالي قد نسفه اليهود فغرقت مصر!!

### صدمة عنيفة:

ولا شك أن عمليات الاختراق وضرب العمق وتهديد المنشآت المدنية الحيوية مثل محطات الكهرباء والكباري والقناطر ومحطات المياه، شكل صدمة عنيفة في مصر، ودفع الجيش إلى تشكيل وحدات مقاتلة لحماية هذه المنشآت، وعرفنا ذلك يوم الترحيل من معسكر التدريب.

جمعت الفصائل في أرض الطابور، كل جندي معه مخلاته، ويستعد لركوب سيارة الترحيلات، ولكن إلى أين؟ هذا ما لم نعرفه ..

جاء عدد من الضباط ذوي الرتب المتوسطة، ومعهم كشوف بأسماء الجنود، وأخذوا ينادون على أسماء بعينها؛ ليقفوا معًا في طابور مختلف. كنت مع بعض زملاء الخيمة نقف متجاورين؛ كي نظل معًا في وحدة واحدة ومكان واحد، ولكن الضابط نادى على واحد منهم، فتركنا ومعه مخلاته، وانضم إلى الطابور الآخر، وظللنا وقتًا طويلا في عملية الفرز، حتى وجدنا أنفسنا في المساء في منطقة الهايكستب.

كنا في شهر رمضان، واختلطت الفصائل والسرايا؛ فعملية الفرز أبقت عناصر لا يعرف بعضها بعضًا، ودفعت عناصر أخرى للالتحاق بوحدات المهندسين في أماكن أخرى.

### سادة المعارك:

نحن الآن في معسكر تدريب المشاة. هناك شعار كبير يمتد بطول السور الكبير: المشاة سادة المعارك! كنت أتساءل فيما بيني وبين نفسي: وأين الطيران والصواريخ والمدفعية والدبابات؟ وبعد حرب رمضان عرفت أن المشاة سادة المعارك فعلا، حين يواجهون بإمكاناتهم القليلة الدبابات والمدرعات، ويدمرونها، ويأسرون أفراد العدو.

عرفت أننا جئنا هنا لتشكيل وحدات مشاة لحماية المنشآت الحيوية. أين؟ لا أعرف.

قضينا أيامًا قليلة لا أذكر عددها. كنت صائمًا، وكان كثير من الجنود غير صائمين، ويجاهرون بالإفطار في النهار، كنت أخفي غضبي وخجلي من أجلهم، وكانوا يرون ذلك نوعًا من "الشطارة" و"الفتاكة" فنحن في الجيش، وفي الجيش يحل كل شيء كما يزعمون!

**رقص وطبل وزمر:**

لا ريب أن فترة الستينيات كانت بعيدة عن الفكرة الإسلامية لحساب ما كان يسمى بالفكرة الاشتراكية، وكانت الضربة التي وجهت للأزهر - تحت مسمى تطويره - قد أحدثت نوعًا من التراجع التربوي – إن صح التعبير – في المجال الإسلامي؛ ولذا فلم يكن غريبًا أن يكون هناك مفطرون في رمضان ويجاهرون بالفطر على رءوس الأشهاد، فلا إذاعة تحض على احترام الصيام والصائمين، ولا تلفزيون يؤكد الفكرة، ولكن هناك رقص وطبل وزمر وفوازير تعتمد على ما سبق، وكذلك الصحافة وإن كانت تنشر صفحة دينية يومية طوال شهر رمضان، لكنها في الغالب تتناول قصصًا تاريخية إسلامية وحكايات، معظمها يدور في سياق عام، بعيدًا عن فكرة الصيام، وأهميتها، وضرورة احترامها، والصحفيون في أغلبهم يتفاخرون بالإفطار أيضًا؛ إما لأنهم ينتمون إلى الفكر اليساري أو مسايرون له، أو لا يعنيهم أمر الدين، بالإضافة إلى الربط بين الرجعية والدين، والتخلف والإسلام، والهزيمة ذاتها أثر من آثار فك الارتباط مع الإسلام بصورة وأخرى، في مقابل ارتباط الكيان الصهيوني باليهودية والإعلاء من شأنها، وهناك حاخام لكل وحدة من وحدات جيش الدفاع، كما يسمى الجيش الصهيوني!

**غريب الدار:**

ذات ليلة من الليالي القليلة التي قضيناها في معسكر المشاة ذهبت لأتوضأ بعد الإفطار، فسمعت إذاعة المعسكر تذيع "مسلسل شنبو في المصيدة"، وبعدها أغنية لمطرب اسمه "عبده السروجي" عنوانها "غريب الدار". كان داخلي يمور بكثير من المشاعر المختلطة، الغضب من الواقع، الألم من حياة العسكر، بؤس الوضع العام بسبب قسوة الهزيمة وضغط العدو، الأسى على الأسرة وأحوالها، كل هذا جعل الدموع تنهمر في ظلام

الطريق إلى الحمامات وأنا ذاهب للوضوء، كان الرجل الذي يعبر في غنائه عن تجربة الغربة ووحشتها، وتنكر المحبين له أو تناسيهم له يقول:

غريب الدار .. علي جار .. زماني القاسي وظلمني
مشيت سواح .. مسا وصباح .. أدورع اللي راح مني
غريب الدار ..
أنا اللي الدهر عاداني .. وباعني واشترى فيّا
وخد أحبابي واداني .. بدالهم فكر وأسيّة
ومين شاف اللي أنا شفته
ومين قاسى اللي قاسيته
وفيت بالعهد وحفظته .. وغيري خان وحبيته
سافرت بلاد وطفت بلاد.. ومين ع الشوق يصبرني
غريب الدار ..
ما كانش الود يا حبايب .. هيظلم حبكم حالي
وكان عشمي وأنا غايب .. تصونوا عهدنا الغالي
مليت بالدمع كاساتي.. رويت منها زهور حبي
وغنى الطير بآهاتي.. وردد لحنها قلبي
سهرت الليل وشفت الويل.. ومين يا ناس يطمني
غريب الدار ..

الأغنية أقرب إلى الموال المصري الذي يشكو الأحوال، ويبكي الواقع، ويأسى على ما يلاقيه الناس، وهي صورة عامة لحياة معظم المصريين الذين يعانون في شتى الجوانب التي تتعلق بمعاشهم ومصيرهم.

ما كنت أتعلق بمثل هذه الأغنية، ولكنها صادفت لحظة قاسية أحسستها تقود إلى المجهول. وأحسبها – أي الأغنية - تستحوذ على تجاوب قطاعات عريضة من المصريين؛ لأنها تناغي وترًا حساسًا في أفئدتهم وتندب حظهم التعيس.

**معسكر انتقالي:**

بعد أيام كان الرحيل من الهايكستب إلى الكيلو 28 أو 29 .. كان البعض يطلق على المكان 28 أو 29 ولكنه كان يشملهما، بل ويمتد بعدهما بمسافات ملحوظة على طريق السويس؛ ليتم تشكيل الوحدات المفترضة، وكان الوضع هناك أسوأ بكثير من الأماكن العسكرية السابقة التي مررت بها، فالمكان معسكر انتقالي، مرافقه رديئة أو غير مكتملة، والوجوه التي تقيم فيه تبدو غريبة وغير متآلفة. كانوا كبار السن وخليطًا من جنود الاحتياط، وبعضهم ممن خدم في حرب اليمن وصار ضمن الاحتياط منذ سنوات، كما أنهم ينتمون إلى أسلحة مختلفة، مثل الصاعقة والمظلات والمدرعات والمركبات والمشاة.

كانت الإقامة في هذا المعسكر نوعًا من العذاب، خاصة مع دخول الشتاء واشتداد البرد، والنوم على الأرض فوق المشمعات التي لا تحجب بردًا ولا تمنع رطوبة، وخيام قديمة مهلهلة، ونادرًا ما تجد ضابطًا مهمًّا يحكم المعسكر. كلهم ضباط صف، وأقدمهم مساعد، أو رقيب أول. والتعيين من أسوأ ما عرفت كمية ونوعية، ولولا بعض الزملاء الذين ظلوا في المجموعة التي تضمنا، يسلي بعضنا بعضا، لكانت الأمور لا تطاق، ومع ذلك ظللنا أيامًا ننتظر ترحيلا آخر إلى المجهول.

* * *

## 2 - تجوال في البلاد

### أخلاط مختلفة:

في معسكر الانتقال عند الكيلو 28 – 29 على طريق السويس كانت تجربة قاسية ومريرة. كان الجنود غير متناغمين. أخلاط من أسلحة مختلفة، وأعمار متباينة، بعضهم شارك في حرب اليمن وقضى هناك السنوات الخمس، وزاد عليها ما بعد الهزيمة حتى العام الذي بدأ أو أوشك على البدء وهو عام 1969.

كان المعسكر مكشوفًا بلا أسوار ولا مرافق. الصحراء الممتدة إلى ما لا نهاية هي التي تحده، الحياة فيه قاسية بلا طعام جيد ولا ماء نظيف ولا حمامات صحية لقضاء الحاجة. معظم ضباط الصف كانوا يهربون بعد الظهر للمبيت في القاهرة وما حولها، ثم يعودون في الصباح.

حاولت الحصول على تصريح للمبيت لدى بعض المعارف في القاهرة. كانت الرحلة إلى القاهرة صعبة. تنتظر على الطريق ثم تترقب سيارة عسكرية أو أتوبيسًا قادمًا من ناحية السويس، تشير إلى السائق، فيقف أحيانًا وأحيانا كثيرة لا يعبأ بك، وعند الرجوع تكون الصعوبة أكبر.

### بهلوان يقفز:

هناك سيارات أتوبيس تنطلق من باب الحديد إلى السويس، وهي الوسيلة المتاحة في ذلك الحين للوصول إلى المعسكر الانتقالي، وهي سيارات مدنية، ولكن نادرًا ما يركبها مدني .. كل ركابها عسكريون. ركوب سيارة السويس يقتضي أن يكون الراكب بهلوانًا يقفز ويتعلق بالنوافذ ويرمي نفسه فوق الركاب، بدون ذلك لن يستطيع الراكب أن يدخل السيارة من الباب. ولا أذكر أنني طوال الأيام التي قضيتها في هذا المعسكر ركبت الأتوبيس من بابه. كنت أرمي حقيبتي من النافذة إلى العسكري الذي يجلس بجوارها، ثم

أتعلق بحافتها وأقفز فوق الجالسين والواقفين لتجد قدمي مكانًا يتصل بأرض الأتوبيس، وأستقر عليها واقفًا حتى أصل المعسكر.

محطة الأتوبيس تكتظ نهارًا وليلا بالعساكر. كلهم ذاهبون إلى الجبهة، والقطار يستوعب عددًا ضخمًا، ولكن تتبقى أعداد غير قليلة تزحم محطة الأتوبيس وتخنقها. أذكر أنني بسبب ركوب أتوبيس السويس تلوثت بدلتي العسكرية الصوفية بصورة مقززة؛ نتيجة " ترجيع " أحد العساكر على ظهري في عز الزحام، ولم أنتبه لذلك إلا بعد وصولي المعسكر. طويت البدلة ولففتها جيدًا حتى وصلت البيت أول مرة بعد ترحيلنا، وأعطيتها لأمي لتغسلها، ومع ذلك لم يُجْد الغسيل فاستبدلتها من المخازن بعد وقت غير قصير؛ بوصفها صارت كُهنة، أي لا تصلح للاستعمال.

## يدخنون ويأكلون دون خجل:

كنا في أواسط رمضان، ومعظم الجنود يدخنون ويأكلون في النهار دون خجل، بل يتبجح بعضهم ويدخل الخيام يبحث عن جراية (خبز) أو طعام. كانوا - بحكم انتماء أكثرهم إلى الصاعقة والمظلات - لديهم شهية مفتوحة، ويأكلون كل ما تقع عليه أعينهم من طعام في هذه الأرض المقفرة!

قبيل المغرب رأيت - لأول مرة - ضابطًا صغيرًا برتبة ملازم تحت الاختبار، يمسك بيد رغيفًا وبالأخرى بصلة خضراء استعدادًا للإفطار. كان التعيين أو الطعام الذي يوزع علينا جافًّا، أي غير مطبوخ بسبب عدم وجود مطبخ، وعلى أساس أن الإقامة فيه محدودة، ولكن إقامتنا طالت بعض الشيء، فعانينا من البرد وسوء التغذية عناء كبيرًا. كنا ننام على مشمع قماش سميك نسبيًّا نفرشه فوق الأرض الرطبة، والخيام قديمة مهلهلة تسرب الهواء والبرد، ولا مفر من الصبر والاحتمال؛ انتظارًا للترحيل الذي لا ندري إلى أين؟

## المعجم المهذب:

لاحظت أن معظم الجنود لهم سلوكيات مختلفة عن سلوكيات جنود معسكر التدريب في مشعل. معظم الجنود هناك كانوا من المؤهلات، وكانوا أقرب إلى الهدوء واستخدام المعجم المهذب في تعاملهم وسلوكهم، أما جنود المعسكر الانتقالي القادمون من وحدات

قتالية، وخاصة من جاءوا من القتال في اليمن، فهم يتحركون بخشونة وعشوائية، وعرفت فيما بعد أن معظمهم أمي متواضع المستوى الثقافي، ويبدو أن وحداتهم استغنت عنهم لأنهم لا يقدمون أداء جيدًا. كما أن بعضهم كان من الذين أصيبوا في بعض التدريبات أو العمليات وشفيت إصابتهم، ولكنهم تأثروا بها بصورة ما.

لا أذكر متى وكيف رحلنا من معسكر الانتقال، ولكن الذي أذكره أن القطار حملنا نحو الإسكندرية مرة أخرى، ووصلنا إلى الدخيلة بعد يوم من العذاب ومعنا مهماتنا، ووجدنا أنفسنا بعد اختيارنا ضمن مجموعة كبيرة تضم مئات الجنود تشكل كتيبة مشاة، لها قائد ورئيس عمليات، وقادة سرايا وفصائل، بالإضافة إلى ضباط مسئولين عن الشئون الإدارية والحملة وغيرها. وبعد نحو أسبوع تم توزيع الفصائل على المنشآت الحيوية، في محافظة البحيرة، محافظتي!

**نصبنا خيمة:**

كان موقع فصيلتي عند كوبري مطوبس الذي يربط البحيرة بكفر الشيخ عند بلدتي إدفينا ومطوبس، وكانت هناك فصائل أخرى عند قناطر إدفينا التي تبعد عن كوبري مطوبس نحو كيلو متر واحد، وفصيلة أخرى عند البصيلي، وبقية الفصائل في مواقع أخرى داخل المحافظة، واستقرت قيادة الكتيبة فيما بعد في أحد الأماكن بدمنهور.

نصبنا خيمة في أسفل الطرف الشرقي لكوبري مطوبس على شاطئ النهر. المكان أرض زراعية تسمى طرح النهر، وكانت طينية لم تجف بعد، ولكننا تغلبنا عليها بالأرضيات الخشبية التي رصّت بجوار بعضها، بحيث كانت خيمتنا تضم نحو عشرة أو أكثر قليلا، ورتبنا مهماتنا، ووزع العريف كشف الخدمة على جانبي الكوبري، التي تبدأ بكثافة في المساء حتى الصباح وتخف في النهار.

**أفدت من ذلك:**

المسافة بين قريتي ومطوبس تستغرق نحو ساعة على مرحلتين؛ نصف ساعة من مطوبس إلى دسوق بالقطار، والنصف الآخر من دسوق إلى القرية بالسيارة. وعرف زملائي أن بإمكاني أن أذهب إلى بيتنا في اليوم الذي أخلو فيه من الخدمة وأعود مباشرة،

وقد أفدت من ذلك كثيرًا في أن أغسل ملابسي العسكرية في البيت، وأن يكون هناك طعام منزلي يعوض الطعام الماسخ الذي يأتي من المستشفى. كان من الممكن أن أسافر في الصباح وأرجع في المساء، أو أذهب في المساء لأبيت في المنزل وأعود في الصباح. وفي كل الأحوال فقد كان اتصالي بالبيت يخفف عني كثيرًا من خشونة الوضع في المعسكر ومتاعبه.

كانت المجموعة في الخيمة غير متناغمة؛ معظمها من أسلحة مختلفة وأعمارهم متفاوتة، والمزعج هو سلوكياتهم التي لا تضع في حسبانها اهتمامًا لأعراف المجتمع أو تقاليده أو أخلاقه. أذكر أن الليالي الأولى شهدت عملية إغارة على بعض الحدائق المجاورة، فقد راح بعضهم ومعهم مخالي فارغة وملأوها برتقالا ويوسفيًّا، وجلسوا يأكلون بنهم ويتضاحكون ومعهم العريف، وبالطبع فمن اعترض على ذلك أو قال إنه حرام كان نصيبه السخرية؛ لأنه في نظرهم "غير ملحلح"! ويقول بعضهم له: خذ لك واحدة .. اثنين .. ثلاثة .. لا تزعل!

### الرغبة في الاستباحة:

تصورت أن أصحاب الحدائق ما كانوا يمتنعون في وضح النهار عن ملء المخالي بما يريده الجنود من الثمار لو طلبوا منهم ذلك، ولكن الرغبة في الاستباحة، وسوء السلوك لدى بعضهم يسبق أي تفكير سليم، وعندما أتيح لي العمل في مكتب الأفراد (الشئون الإدارية) فيما بعد، واطلعت على نماذجهم (سجلاتهم)، وجدت كثيرًا منهم قد عوقب مرات كثيرة لسوء السلوك، وهو ما يفسر استغناء تشكيلات مهمة مثل الصاعقة والمظلات عن بعضهم.

ظللنا في مطوبس ثلاثة أسابيع أو أكثر قليلا، ثم جاء الأمر بالترحيل إلى مكان آخر. لقد نقلنا إلى محطات كهرباء وطلمبات صرف في بلدة اسمها زرقون في وسط المسافة بين دمنهور والمحمودية. ونقل غيرنا إلى مناطق أخرى قريبة تبعد حوالي عشرة كيلوات أو أكثر قليلا، ولكنها متقاربة، ويمكن التواصل معها عن طريق السيارات أو الهواتف المدنية.

كانت المنطقة التي نقلنا إليها أهدأ وأفضل، وبها عنبر كبير، به إحدى الماكينات الاحتياطية أو شيئًا يشبه ذلك، ضم مجموعتنا، وقد كانت ميزته أنه يحمينا من المطر والبرد القارس. تم تأميدنا على مستشفى المحمودية المركزي، وكان يتناوب بعضنا في الذهاب مع السيارة لاستلام التعيين في الوجبات الثلاث.

**علاقات إنسانية:**

كان طبيعيًّا أن يكون هناك تعاون بيننا وبين الموظفين والعمال في الكهرباء والصرف، وامتد التعاون إلى تكوين علاقات إنسانية مع بعضهم، وأذكر أن مدير المحطة - وكان مهندسًا في نحو الخمسين من العمر - تحول إلى ما يشبه المسعف الطبي لأفراد المجموعة . كان رجلا طيبًا ودودًا، يقيم في المحطة مع أسرته بأحد المنازل المملوكة للوزارة أو المصلحة، ويبدو أن وجود سكان المحطة بعيدًا عن المدينة أيقظ مهارات الرجل التي اكتسبها في ظروف معينة، فقد كان قادرًا على تقديم وصفات من الحبوب والكبسولات لمن أصابه مغص أو شعر بآلام في الجنب، أو يعاني من نزلة برد عنيفة، كما كان قادرًا على إعطاء حقنة لمن يحتاج إليها.

هناك موظفون وعمال آخرون تواصلوا مع المجموعة بتقديم خدمات بسيطة، مثل شراء بعض الأشياء الخاصة من المدينة، أو حمل الرسائل لوضعها في البريد، أو نحو ذلك.

كما كنا نجد من أهل المحطة تعاطفًا ملموسًا في المناسبات، وأذكر أن عيد الأضحى مر بنا ونحن هناك، فأصروا على مشاركتنا لهم يوم العيد، وبعد بضعة شهور قضيناها معهم، جاء أمر آخر بالرحيل.

**معاودة القراءة:**

في هذه الفترة أتيح لي أن أزور البيت زيارات قصيرة فيما بين الإجازات الشهرية، فقد كانت المسافة بين زرقون وبيتي أطول قليلا من المسافة بين مطوبس وبينه، وكان أمامي طريقان، أحدهما إلى المحمودية ومنها إلى دسوق ثم إلى القرية، والآخر إلى دمنهور ومنها إلى دسوق فالقرية. وكنت أركب السيارة التي تأتي أولا في أي من الاتجاهين. لم أحبذ الذهاب إلى البيت باستمرار وكنت أفضل النزول عند الضرورة؛ فقد كان المكان ملائمًا،

والمجموعة أقرب إلى التناغم بعد انضمام المزعجين إلى مجموعات أخرى في أماكن أخرى.

وأتيح لي - ربما لأول مرة منذ تجنيدي - معاودة القراءة بالمعنى المثمر للقراءة، وقد قرأت عددًا لا بأس من الكتب والروايات والدوريات، وأخذت أكتب بعض المقالات القليلة في الأديب والآداب، وتواصلت مع عدد من الأدباء داخل مصر وخارجها، وكنت أطلب ممن أراسلهم أن يعتمدوا عنواني في القرية؛ لأنه أكثر أمانًا في الوصول بسبب تنقلاتنا المتوقعة في أية لحظة.

### أحداث مؤسفة:

وللأسف فقد وقعت بعض الأحداث المؤسفة في هذه الفترة داخل المجموعات التابعة لوحدتنا، فقد فوجئنا ذات يوم بخبر يأتي من إحدى الفصائل أن أحد الجنود استخدم سلاحه الآلي في قتل ضابط وعريف بسبب خلافات شخصية. نزل الخبر نزول الصاعقة علينا. كنا نعرف الضابط والعريف القتيلين والجندي القاتل. أحدثت المأساة ذعرًا في الوحدة بأكملها وإحساسًا ما بأن هناك شيئًا يجب معالجته في العلاقة بين القائد وأتباعه.

علمنا أن الضابط والعريف تم دفنهما في بلديهما، وأن الجندي القاتل تم تحويله إلى السجن الحربي بالإسكندرية؛ انتظارًا لمحاكمته عسكريًّا، ولا أعرف إلام انتهى الحكم عليه.

### عمليات في المناطق المنعزلة:

كانت معارك حرب الاستنزاف تدور بين قوات الاحتلال وقواتنا، في عدة مواقع على طول الجبهة، وأراد اليهود الغزاة أن يحدثوا أثرًا نفسيًّا ينال من صمود الشعب وتماسكه، فراحوا يقومون بعمليات في المناطق المنعزلة أو المهجورة .. فقد هاجموا مثلا جزيرة شدوان فجر الخميس الموافق 22 يناير عام 1970، بهجوم ضخم جوًّا وبحرًا، كما هاجموا مساكن المدنيين الذين يقومون بإدارة الفنار القائم على أرض الجزيرة. وشهدت الجزيرة ملحمة شعبية، تقاسم فيها أبناء محافظة البحر الأحمر مع جنود القوات المسلحة الصمود أمام قوات الاحتلال.

كانت هناك مجموعة صغيرة من الصاعقة المصرية البحرية والبرية لحراسة الفنار الذي يقع جنوب الجزيرة. أبناء المحافظة لم يتخلوا عن قواتهم، وقاموا بتوصيل الذخائر والمؤن والأسلحة في مراكب الصيد من شاطئ الغردقة إلى جزيرة شدوان.

استمر القتال بين كتيبة المظلات اليهودية وأفراد الصاعقة المصرية، الذين خاضوا المعركة ببسالة، وأحدثوا خسائر جسيمة بقوات العدو، كما تمكنت وحدات الدفاع الجوي المصري من إسقاط طائرتين للعدو، من طرازي "ميراج" و"سكاي هوك".

**تقدم وانسحاب:**

كان العدو يتقدم لاقتحام مواقع قوة الحراسة في جنوب الجزيرة، وكانت قواته تطلب من القوة المصرية أن تستسلم، ولكنها لم تفعل، وفي ظل القصف الجوي العنيف من طائراته، فإن القوات المصرية رفضت الاستسلام، وقاتلت ببسالة وشجاعة.

واستمر العدو في محاولاته للسيطرة على الجزيرة ومنع الإمداد الذي يأتي للجنود المصريين من خلال البحر، لكنهم فشلوا مع تفوقهم العددي والقصف الجوي العنيف والإمدادات الكثيرة التي كانت تأتي إليهم.

اضطرت قوات الغزو التي تقدر بكتيبة كاملة من المظليين، للانسحاب من الأجزاء التي احتلتها من الجزيرة، وفي اليوم التالي للقتال والموافق الجمعة 23 يناير، قصفت القوات الجوية المصرية المواقع التي تمكن العدو من الوصول إليها في جزيرة شدوان، في الوقت الذي قامت فيه قواتنا البحرية بأعمال تعزيز القوة المصرية على الجزيرة، وهو ما أدى لانسحاب قوات الغزو اليهودية من الجزيرة تمامًا.

**خطة لمقاومة التسلل:**

كان الفريق سعد الدين الشاذلي - آنئذ قائد القوات المصرية في قطاع منطقة البحر الأحمر - قد وضع خطة لمقاومة تسللات القوات المعادية في مناطق البحر الأحمر، وهو ما أفشل المحاولات التي يقوم بها العدو لاختراق الجبهة المصرية، وإحداث الأثر النفسي الذي يريده.

قبل الهجوم على شدوان - التي تقع على مدخل خليج السويس وخليج العقبة - قام العدو يوم 9 سبتمبر 1969 بإنزال سرية دبابات ت 55 من مخلفات حرب يونيو في منطقة أبو الدرج على ساحل البحر الأحمر، اتجهت جنوبًا إلى الزعفرانة، مدمرة كل الأهداف والسيارات المدنية التي اعترضت طريقها، مستغلة خلو المنطقة تمامًا من أية قوات عسكرية سوى بعض نقاط المراقبة، ونقطة تمركز بحرية بها لنشا طوربيد مصريين، حرصت على تدميرهما قبل بداية الإنزال بواسطة الضفادع البشرية.

رد فعل الإغارة كان عميقًا في القيادة العامة المصرية، لتحديد مسئولية عدم اكتشاف قوة الإغارة في أثناء وجودها على الشاطئ الشرقي للخليج قبل تنفيذ العملية، وأيضًا مسئولية عدم اتخاذ إجراء إيجابي قوي لمواجهة القوة المعادية بعد نزولها على الشاطئ الغربي وبقائها لمدة 6 ساعات. وقد استغل العدو هذه الإغارة إعلاميًّا بطريقة مثيرة، بعد أن سجل لها فيلمًا عرضه في الكيان الصهيوني.

**زمام المبادرة:**

لذا افتتحت القوات الخاصة المصرية شهر أكتوبر 1969 في أول أيامه، بعملية كبرى؛ للرد على إنزال العدو في الزعفرانة، فقد أبرّت (أنزلت) قوة من المجموعة 39 عمليات خاصة بحرًا وجوًّا في منطقة رأس ملعب. وتقدمت على الطريق الساحلي في هذه المنطقة حتى رأس مطارمة، ونسفت جميع الأهداف العسكرية الصهيونية، ثم نسفت الطريق نفسه. ووضعت ألغامًا وشراكًا خداعية في بعض المناطق وعادت سالمة. وقد انفجرت هذه الألغام في القوات المعادية التي هرعت للنجدة بعد انسحاب القوة المصرية.

في شهري نوفمبر وديسمبر، تملكت القوات المصرية زمام المبادرة وتوسعت في أعمال الكمائن النهارية التي تصطاد قوات العدو، بعد أن أوقف التحركات الليلية؛ تفاديًا للكمائن التي دمرت الكثير من قواته المتحركة.

لعل ما جرى في الشهور السابقة على انتهاء سنة 1969 وبداية 1970، كان وراء أوامر بتحرك كتيبتنا كلها إلى ميناء الإسكندرية. ويبدو أن عمليات الإبرار الجوي والبحري في جزيرة شدوان وقرب الزعفرانة، جعل للموانئ البحرية أهمية تسبق المنشآت الحيوية

الصغيرة في المحافظات الداخلية، فقد كانت منطقة الميناء أو ما يطلق عليه الجمرك، تضم الترسانة البحرية، وهي منطقة أشد حيوية بالنسبة للدولة، وفيها أحواض إصلاح السفن، وأماكن تصنيعها، وتحتاجها البواخر الأجنبية لمعالجة بعض الخلل أو تزويدها ببعض الآليات المهمة، فضلا عن كون المنطقة ميناء حيويًّا يستقطب عشرات السفن الضخمة من شتى أرجاء العالم.

**البوابة 36:**

وجدنا أنفسنا في ميناء الإسكندرية، وتوزعت السرايا والفصائل على امتداد مسافة غير قصيرة، تحددها أرقام بوابات الجمرك. كانت سريتنا بفصائلها الثلاث داخل البوابة 36 التي تشمل الترسانة البحرية بأحواضها ومصانعها ومكاتبها ومحولاتها وشركاتها، وكانت قيادة الكتيبة إلى جانب قيادة سريتنا، وبدأت مرحلة صعبة حيث كنا في عز الشتاء. مطر مستمر، ونوات لا تنقطع إلا لمامًا، وبرد شرس يأكل الأكباد والأجسام، ودرجة الاستعداد في الذروة، والخدمة مستمرة ليلا ونهارًا، يقوم بها الأفراد جميعًا، حتى الذين يعملون في المكاتب، كل منهم ارتدى ملابس القتال ومهماته، قائد الكتيبة والضباط وضباط الصف يقظون طوال الليل، لا إجازات ولا "مبيت"، الراحة كل أربع ساعات، تليها خدمة أربع ساعات مثلها، احتمالات الإبرار البحري قائمة، ويمكن أن يدفع العدو من غواصاته أو سفنه الحربية ضفادع بشرية من مسافات قريبة أو بعيدة.

**زبون دائم:**

في هذه الفترة أصبت بالقولون العصبي. تراكمت هموم عامة مع هموم خاصة، فصرت أعاني من نوبات الإسهال الشديد والإمساك الشديد أيضًا، ولكن الإسهال كان أكثر حدة. صرت أتناول الحبوب التي توقف الإسهال باستمرار، ورحت أمتنع عن أكل أي طعام مطبوخ. أكتفي بالطعام الجاف ومعظمه خبز وجبن، وأكثرت من شرب الشاي، كان هناك أحد العمال يقيم نصبة شاي في دائرة الخدمة، ويقدمه في أكواب كبيرة، ويتناوب العمل مع زميل له؛ كل منهما يعمل وردية كاملة حوالي سبع ساعات. صرت زبونًا دائمًا عندهما منذ الصباح الباكر حتى الإغلاق في الحادية عشرة مساء، كنت أتناول قرابة عشرين

كوبًا يوميًّا. ثمن الكوب أيامها عشرة مليمات. لم أكتف بذلك، بل أتيت بسبرتاية وبراد صغير وكوب، وكنت بعد إغلاق العامل لنصبة الشاي وأنا في الخدمة أضع السبرتاية في ركن آمن، بحيث لا يكتشفها أحد، وأقوم بعمل الشاي وأنا أتحرك في موقع الخدمة ذهابًا وإيابًا، وكان يمكن أن أضع الكوب في جيب البالطو الأصفر عند الضرورة.

أكثر من أربعين عامًا وأنا أعاني من مرض القولون اللعين الذي جربت من أجله كل الأدوية، وذهبت إلى كبار الأطباء، ولكنه لا يهادن إلا نادرًا، ويصر على حرماني من أشياء كثيرة، وقد تفاقم مع تقدم السن وانضمام قائمة أخرى من الأمراض والمتاعب، التي اضطرني بعضها لإجراء جراحات دقيقة، وأحمد الله في كل الأحوال، وأقاوم ولا أستسلم، وأعمل بقدر الطاقة وفي حدود المتاح.

**مبادرة روجرز:**

ظل الوضع العسكري متوترًا لفترة غير قصيرة، حتى تم اتفاق وقف إطلاق النار، بقبول مبادرة روجرز. وهي مبادرة نسبت إلى وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكية آنئذ في عهد الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، وكان الهدف منها إيقاف القتال مدة ثلاثة أشهر، نتيجة المعارك الجوية التي دارت بين القوات المسلحة المصرية وقوات الاحتلال اليهودي، وأسقطت فيها طائرات حديثة جدًّا - أمريكية الصنع - تابعة لسلاح الجو المعادي. وأيضًا وقوع الكيان الصهيوني في مأزق عسكري داخلي كبير جدًّا؛ بسبب الخسائر البشرية اليومية في صفوف قواته المسلحة. وهو ما دفع جولدامائير رئيسة وزرائه إلى القول: إن «كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب، كلما دمرنا إحداها نبتت بدلها أخرى»، ودفعت أبا إيبان وزير الخارجية إلى القول: «لقد بدأ الطيران الإسرائيلي يتآكل».

ظهرت المبادرة بوصفها مشروع حل أمريكيًّا للصراع الصهيوني - العربي في 9 ديسمبر 1969. في البداية لم يرد عبد الناصر، والصهاينة تأخروا بالرفض. ثم أعلن روجرز المبادرة بصفة رسمية في 19 يونيو 1970، وكانت من شقين: وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر، وتطبيق القرار 242 عبر مهمة الوسيط النرويجي جونار يارنج. عبد الناصر قبلها،

وأعلن الملك حسين أيضًا قبولها. الصهاينة رفضوها، وأعلنت منظمة التحرير الفلسطينية عدم الالتزام بها.

**خطوات وترتيبات:**

جاءت المبادرة الأمريكية بعد أن تبين أن الهزيمة مع مرارتها وقسوتها لم تجبر العرب على رفع أعلام الاستسلام البيضاء، وإنما تواصل القتال فيما عرف بحرب الاستنزاف؛ تعبيرًا عن رفض الهزيمة.

قال وليام روجرز في أحد المؤتمرات يوم 9 ديسمبر عام 1969: «سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تهدف إلى تشجيع العرب على قبول سلام دائم، وفي الوقت نفسه تشجع إسرائيل على قبول الانسحاب من أراض محتلة! بعد توفير ضمانات الأمن اللازمة، وأن ذلك يتطلب اتخاذ خطوات تحت إشراف جونار يارنج، وبالترتيبات نفسها التي اتخذت في اتفاقيات الهدنة برودس عام 1948، وكمبدأ عام فإنه عند بحث موضوعي السلام والأمن فإنه مطلوب من إسرائيل الانسحاب من الأراضي المصرية بعد اتخاذ ترتيبات للأمن في شرم الشيخ، وترتيبات خاصة في قطاع غزة، مع وجود مناطق منزوعة السلاح في سيناء».

وفي خلال شهر يوليو، كان جمال عبد الناصر في زيارة للاتحاد السوفيتي عام 1970 عندما قال في اجتماع مع بريجنيف يوم 16 يوليو، وهو اليوم السابق لعودته للقاهرة إنه قرر قبول المبادرة الأمريكية، موضحًا أن القوات المسلحة تحتاج إلى فترة لالتقاط الأنفاس، والانتهاء من مواقع الصواريخ على الشاطئ الغربي للقناة بعد أن بلغت خسائر المدنيين الذين اشتركوا في بناء قواعد الصواريخ 4000 شهيد. كما ذكر جمال عبد الناصر أمام اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي أن قبول مصر للمبادرة سوف يحرج إسرائيل أمام الرأي العام العالمي وأمام أمريكا أيضًا، وقال إنه لا يعتقد أن لهذه المبادرة أي نصيب من النجاح، وفرصتها في ذلك لا تتجاوز نصفًا في المائة.

### قبول المبادرة رسميًا:

يوم 23 يوليو في العيد الثامن عشر للثورة أعلن جمال عبد الناصر قبوله رسميًّا لمبادرة روجرز، وتفجرت ردود الفعل في أنحاء العالم، فقد كان الإعلان مفاجئًا، بعد فترة صمت امتدت أكثر من شهر، والظاهرة التي يجب الوقوف عندها طويلا هي خروج اليهود إلى الشوارع في مظاهرات ترقص وتبتهج؛ فقد انتهت بالنسبة لهم حرب الاستنزاف التي أرهقتهم نفسيًّا وماديًّا، وكبدتهم خسائر كثيرة في الأرواح. أنقذ قبول المبادرة اليهود الغزاة من تكرار ما حدث في ذلك اليوم الذي أطلقوا عليه اسم (السبت الحزين) عندما وقعت إحدى دورياتهم في كمين للقوات المصرية المتسللة في سيناء، وقتل 40 جنديًّا، وعاد المصريون باثنين من الأسرى، رقص اليهود الغزاة؛ تصورًا منهم أن المبادرة هي خطوة أولى نحو السلام فعلا.

وقال ناحوم جولدمان: إن قبول مبادرة روجرز خطوة هائلة للسلام من جانب عبد الناصر، وإن على الحكومة اليهودية أن تلتقي معه في منتصف الطريق، ومع ذلك تحطم الائتلاف الحكومي اليهودي بانسحاب ستة وزراء من حزب «جاحال»، وفي مقدمتهم مناحم بيجن.

ووضعت المبادرة موضع التنفيذ في الساعة الواحدة من صباح السبت 8 أغسطس (آب) عام 1970 لمدة 90 يومًا.

وبعد وفاة جمال عبد الناصر تجدد وقف إطلاق النار لمدة ثلاث سنوات وشهرين حتى قامت حرب رمضان المجيدة عام 1973.

أيام التجنيد

### في أثناء الخدمة الليلية:

في الترسانة البحرية تعرفت على إبراهيم عبد المجيد في أثناء الخدمة الليلة حول محطة الكهرباء الخاصة بالترسانة التي كان يعمل موظفًا بها. عرفت أنه يحمل دبلوم صناعة، وأنه حصل على الثانوية العامة من منازلهم، والتحق بقسم الفلسفة – كما أذكر. كما عرفت أنه يدرس اللغة الروسية في المركز

الثقافي السوفيتي. جدد أحزاني؛ لأني لا أستطيع مواصلة دراستي الجامعية، ولكني كنت سعيدًا أن هناك من يواصل تحصيله العلمي وهو يعمل، ولا يستسلم للأمر الواقع. ذات ليلة أخبرني أنه فاز بجائزة نادي القصة في القصة القصيرة، وأن فتحي الإبياري يهتم به وسيقدمه في برنامج أدبي يذيعه صوت العرب.

تواصلت بيننا الأحاديث الأدبية، وكنت أتمكن أحيانًا من المشاركة في ندوات قصر ثقافة الحرية، وكنت أعرف كثيرًا من أدباء الإسكندرية قبل التجنيد. كان إبراهيم يشارك أحيانًا، وكنا نلتقي هناك، وأظن أنه تخرج من كلية الآداب وأنا ما زلت في الترسانة.

وقد فوجئت ذات يوم وهو يقدم لي رواية بعنوان "في باطن الأرض" كانت هي روايته الأولى التي طبعها على حسابه، وقد كتبت عنها مقالة قصيرة في مجلة "الأديب".

**وادي القمر:**

في فترة ما، لاحظت أنه غاب عن الحضور إلى المحطة، قادتني قدماي إلى بيته في "وادي القمر" بالقرب من الدخيلة. ولكن من خرج من المنزل ليقابلني كان يبدو عليه التوتر وأخبرني أنه مسافر، فتركت له اسمي ليبلغه أني سألت عنه. عرفت فيما بعد أن أجهزة الأمن كانت تطارده بسبب انضمامه لخلية شيوعية بالإسكندرية.

لم نلتق بعدئذ إلا نادرًا في القاهرة. كنت قد أنهيت التجنيد وحصلت على الدكتوراه، وكان هو قد أصبح من رجال النظام بعد أن انتقل إلى وزارة الثقافة في العاصمة، وصار مديرًا لأحد قصور الثقافة هناك، وظهرت له بعض الروايات، وصار نجمًا يتصدر المشهد الثقافي الرسمي مع آخرين من اليساريين وأشباههم. ونال جوائز الدولة، واستكتبته الصحافة القومية والحزبية والخاصة، وانحاز - للأسف الشديد - إلى الحملة الضارية التي يشنها النظام ضد الإسلام والمسلمين، بدعوى مكافحة ما يسمى الإرهاب، وعلمت أنه أنشأ دار نشر، يديرها ابنه، وإن كانت مؤسسة النشر الرسمية تسارع بنشر ما يقدمه لها.

**كاتب الفصيلة:**

بعد وقف إطلاق النار صارت الأمور أهدأ نسبيًّا، واختارني قائد الفصيلة لأكون كاتبها .. أسجل دفتر الأحوال اليومي، وأقوم بكتابة تحويلات الجنود إلى العيادة، وأبلغ

القيادة بالحضور والغياب، وأجهز تصريحات الإجازة وفقًا للترتيب المقرر، وأذهب لختمها بعد اعتمادها من رئيس العمليات، ثم توزيعها على أصحابها.

ويلاحظ أن الإجازة كانت تتم بعد فترات طويلة، تجاوزت المائة يوم، بسبب رفع حالة الاستعداد، أو إلغاء الإجازات لأسباب أخرى، وهو ما كان يضايق زملاءنا من أهل الصعيد الذين يقضون يومًا بأكمله في الذهاب وآخر في الإياب. أما أهل الوجه البحري فكان يكفيهم يومان، وهؤلاء كانوا يستأذنون وديًّا على أن يتحملوا نتيجة ما يحدث إذا انكشف أمر غيابهم، أو حدث لهم حادث خارج المعسكر، وغالبًا كانت الأمور تمضي بسلام. وكان قائد الفصيلة يسمح للمتزوجين بمثل هذه الإجازة الودية، أو بالمبيت لمن أحضروا أسرهم وأسكنوهم بالقرب من الجمرك مراعاة لظروفهم الإنسانية.

### عقلة الإصبع:

صعوبة هذه الفترة أنتجت بعض الحوادث المؤلمة. كان بعض الجنود لا يحتملون الحياة العسكرية، أو يعانون من مشكلات في محيطهم الأسري أو الاجتماعي، فيحاولون أن يفروا من التجنيد بصورة ما.

ذات يوم فوجئنا أن أحد الجنود ذهب مع فصيلته إلى ميدان ضرب النار لاختبار التصويب، فوضع إصبعه على فوهة البندقية لتطير عقلة إصبعه. كان الهدف من ذلك أن يصبح غير لائق طبيًّا للخدمة، فيتم إعفاؤه منها، ولكن حظه التعس أن المحكمة حكمت عليه بثلاث سنوات سجنًا، تم تخفيفها فيما أذكر. لقد فقد المسكين حريته النسبية، وصار سجينًا يحمل شهادة إنهاء خدمة لسوء السلوك!

وفي يوم آخر سمعت صوت طلق ناري في أحد الأكشاك الخشبية التي كان يبيت فيها الجنود. هرع الناس إلى المكان، كان أحد الجنود قد غرس البندقية في بطنه وضغط على التتك فمزق الرصاص أمعاءه. ما زلت أرتعد من المنظر حتى اليوم! لماذا فعل ذلك؟ لا أحد يعلم. كان ولدًا طيبًا وهادئًا ومسالمًا، ولكنه ذهب وسره معه.

تم عمل مجلس تحقيق، ونقل المنتحر إلى المستشفى العسكري؛ لعمل التقرير الطبي، وعين بعض الجنود لمرافقة الجثمان إلى بلدته، وطويت صفحة مجهولة!

**وفاة الزعيم:**

ثم جاءت الأخبار بنبأ هز أركان مصر والعالم، وهو وفاة جمال عبد الناصر في 28 من سبتمبر 1970م.

كان جمال عبد الناصر يمثل مع كل ما جره على البلاد من بؤس وعار وشقاء، رمانة الميزان التي تحافظ على توازن الوطن، بل البلاد العربية جميعًا. وكان ذهابه في هذا الوقت الحرج يمثل المجهول لسفينة الوطن؛ فلا أحد يعلم إلى أين ستبحر وسط العواصف والأنواء والأمواج العاتية.

كان هناك قتال بين المقاومة الفلسطينية وقوات البادية الأردنية، وانعقد مؤتمر للقمة العربية في القاهرة؛ من أجل وقف القتال، والمصالحة بين الملك حسين ملك الأردن وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وبعد انتهاء المؤتمر كان جمال عبد الناصر يودع الملوك والرؤساء في مطار القاهرة. وبعد وداع أمير الكويت شعر بوعكة، نقل على أثرها للبيت ثم ودع الحياة!

**سبحان من له الدوام:**

امتلأت الشوارع بالناس، عم الحزن أرجاء البلاد. كان الناس يبكون حظهم التعس وأيامهم النحسات، ويبحثون عمن يتولى أمرهم بعد أن مات ولي الأمر الذي أعفاهم من التفكير، وكان يفكر بدلا منهم، ويقرر بدلا عنهم، ويقدم لهم ما يريده هو لا ما يريدونه هم، وفي كل الأحوال يكتفون بالتصفيق له، والهتاف من أجله بالروح .. بالدم. بعد الهزائم يهتفون له، وبعد المتاعب يهتفون له، وبعد موته يهتفون له، وسبحان من له الدوام.

ما كان أحد يصدق أنه سيموت بهذه السرعة. كان في أوائل الخمسينيات من عمره (52 عامًا تقريبًا)، ويتذكر الناس ما قاله في المؤتمر الصحفي الذي عقده أواخر مايو 1967 حين رد على أحد الصحفيين الأجانب حين سأله عن صحته: "أنا مش خرع زي مستر إيدن!"؛ تعبيرًا عن كونه بصحة جيدة. ولكن تردده على مصحة تسخالطوبو في الاتحاد السوفيتي عام 1968 قبيل وفاته، بالإضافة إلى ما رشح عن زيارة الأطباء المتكررة له كانت تؤذن بشيء ما.

**ينظر وراء الأشياء:**

أذكر أنني كنت في زيارة للكاتب الراحل محمد عبد الحليم عبد الله عقب الهزيمة، وتطرق الحديث إلى ما جرى يومي التاسع والعاشر من يونيه 1967، وخروج الناس إلى الشوارع. كنت أستغرب أن يطلب الشعب من قائده المهزوم (وأنا من بينهم) البقاء بدلا من معاقبته. نظر إليَّ الرجل بهدوء، وأشار بيده إلى الأمام، وقال لي: انظر إلى الرصيف المقابل للعمارة. ترى بائع الخبز الذي يضع الطاولات أمامك؟ يوم التاسع من يونيه هجم الناس على الرجل واختطفوا الخبز، ولم يبق رغيف واحد. في اليوم التالي لم يحضر البائع ولم يجد الناس الخبز. بعد أن عدل الرجل – يقصد عبد الناصر – عن التنحي عاد بائع الخبز، وانتظمت الحياة! وأردف محمد عبد الحليم عبد الله، وكأنه يشير إلى إحدى خصائص الشعب المصري: تصور لو أن الرجل لم يعدل عن استقالته ماذا كان سيحدث في مصر؟

كان محمد عبد الحليم عبد الله ينظر وراء الأشياء، ولا يكتفي برؤية السطح. شعب ظل ثمانية عشر عامًا خارج الخدمة، كيف يدير شئون بلاده؟ وكيف يتم إخضاع من تعودوا على القبضة القوية إذا ما رأوا قبضة حانية؟

**أحواض السفن:**

على أية حال، ذهب جمال عبد الناصر، وجاء أنور السادات الذي كان نائبًا له، وحاول الرجل الاقتراب من السوفيت، ووقع معهم معاهدة صداقة، وزاره بودجورني رئيس الاتحاد السوفيتي، وجاء السادات معه إلى الترسانة البحرية ليزورها، ومر أمامنا الرجلان في سيارة مكشوفة، وكانت قطع من الأسطول السوفيتي ترسو في الميناء وبعضها في الأحواض لإصلاحه أو دهانه.

كانت أحواض الترسانة جالبة لكثير من جنسيات البحارة الذين يعملون على السفن التجارية أو العسكرية. عرفنا سوريين ولبنانيين وأتراكًا وأوربيين من مختلف دول أوربا، بالإضافة إلى الجنود السوفيت، وكان من بينهم جنود مسلمون، وما زلت أذكر أحدهم وهو ينطق اسمه "رمظان" يقصد "رمضان"، ويلاحظ أنهم جميعًا كانوا يدخنون سجائر رفيعة

قصيرة رائحتها مقززة، وكانوا يحولون الحمامات إلى جحيم لا يطاق بسبب الروائح الكريهة لسجائرهم التي يدخنونها. وقد هزمونا في مباراة ودية لكرة الطائرة أقمناها معهم، فقد كانوا يلعبون جماعيًّا وهو ما مكنهم من النصر علينا!

كان جنودنا يتحادثون مع البحارة والجنود السوفيت، وكان بعضهم يحصل على بعض ما لديهم من أشياء جلبوها معهم من بلادهم مثل علب البيبسي أو ساعات اليد أو علب التونة، أو غير ذلك مقابل سجائر مصرية أو بعض المنتجات المصرية الرخيصة.

### كان الكلام همسًا:

تواترت أنباء عن تهريب ممنوعات واردة من السفن عبر سيارات الكتيبة بمعرفة بعض القادة. كان الكلام همسًا، وفوجئ الجنود أن بعض القادة تم منحه إجازة مفتوحة، هكذا قيل في حينه، مع أن الجيش لا يمنح إجازات مفتوحة، ولكنني فيما بعد حين سجلت - بوصفي كاتبًا في شئون الأفراد في دفتر أحوال الكتيبة - قرارًا بالإحالة إلى الاستيداع لبعض الضباط، بناء على قرار له رقم وتاريخ دون ذكر الأسباب، تأكدت أن المسألة لها علاقة بما كان يدور همسا وبالإجازة المفتوحة!

ويبدو أن هناك من وشى بما كان يجري عن التهريب، فحدث نوع من الانتقام بين الفرقاء المعنيين كانت نتيجته تحقيقات وجزاءات، وفي ظل إطلاق النار جاء أمر بترحيل الوحدة.

### الفلاح الماكر:

سمعنا عن متاعب يعانيها السادات على مستوى القمة والقاعدة. كان الاتحاد الاشتراكي - الذي يمثل الحزب الحاكم آنئذ ويضم أنصار الرئيس السابق ومعظمهم من اليساريين - يستهين بالسادات، ويعتقد أنه مجرد رئيس مؤقت ستتم إزاحته في الوقت المناسب، وعلى المستوى الشعبي كان هناك إحساس أن الرئيس الجديد يفتقد ما يسمى الكاريزما التي كان يتمتع بها سلفه، وبدا أنه غير مقنع لعامة الناس، وأخذنا نسمع نكاتًا عنه تسخر منه وتنال من هيبته، ولكنه كان فلاحًا ماكرًا، استطاع أن يصفي خصومه

السياسيين، وأن يثبت أركان حكمه، وقد تحدث عن ذلك باستفاضة بعد حرب رمضان التي أكسبته شعبية كبيرة، وحققت لمصر احترامًا عظيمًا في أرجاء العالم.

**مساحة نسبية:**

مع مجيء السادات حدثت تغيرات ملحوظة، خاصة في مجال الكتابة، فلم تعد الساحة الصحفية مثلا قاصرة على محمد حسنين هيكل، ولم يعد المحتكر الأول والأخير لأخبار الدولة، والمعرفة بقراراتها، فقد صارت الساحة مفتوحة لآخرين، ظهر عبد الرحمن الشرقاوي الكاتب اليساري وصديق السادات، الذي أيده في حوادث 15 مايو 1971 التي أطاحت بقادة التنظيم الطليعي بزعامة على صبري نائب الرئيس، ووزيري الحربية والداخلية وآخرين، ممن كانوا يبيتون الإطاحة به. كما لمع اسم موسى صبري، وكان مقربًا من السادات ورفيقًا له في المعتقل قبل انقلاب يوليو 1952، وبعد فترة قصيرة من حرب رمضان (يناير 1974) خرج مصطفى أمين من السجن، وعاد أخوه علي من لندن، وتسلما الأهرام وانفردا بنشر أخبار مهمة، ولكن الأهم في هذه المرحلة كان إتاحة مساحة نسبية من الحرية في الكتابة والتعبير لم تشهدها مصر على عهد عبد الناصر، وكانت هناك فرصة لظهور الرأي الآخر، والرد على من كان كلامهم يبدو مقدسًا لا يجوز تناوله، كما حدث مثلا عندما كتب هيكل مقاله الشهير "تحية للرجال" وذكر فيه أن عبور قناة السويس يستلزم التضحية بثلاثمائة ألف من الجنود المصريين، أو ثلاث قنابل ذرية لتحطيم خط بارليف الذي أقامه اليهود الغزاة على الضفة الشرقية للقناة. كان واضحًا أن المقال يحمل نبرة تئييس واضحة من مهاجمة العدو، ولكن المقالات والبيانات التي صدرت للرد على هيكل كانت تؤكد نبرة أمل وإصرار على المواجهة مهما كان الثمن، وهو ما صدقته الأحداث بعدئذ في عبور القناة بأقل الخسائر، وثبت للعالم أن العقل المصري حين يعمل، فإنه يتجاوز كثيرًا من العقبات والصعاب.

**تقليم الأظفار:**

ولا ريب أن السادات حاول أن يضع اليسار والموالين لعبد الناصر في إطار حجمهم الطبيعي، كما حاول تقليم أظفارهم، وأعلن إحراق التسجيلات التي كان يحتفظ بها

النظام الناصري لبعض السياسيين وأصحاب الرأي، وإغلاق المعتقلات، كما كشف كثيرًا من الممارسات التي كان يمارسها النظام السياسي ضد مخالفيه.

المفارقة أن السادات كان يكرر دائمًا أنه على ولاء لعبد الناصر، وأنه يسير على طريقه!

**مجلة سنابل:**

في عام **1969** ظهرت في مدينة كفر الشيخ مجلة أدبية اسمها "سنابل" بمعرفة الشاعر محمد عفيفي مطر، ومساعدة من سكرتير عام المحافظة عقيل مظهر، وكان رجلا صوفيًّا طيبًا محبًّا للخير، وخصص للمجلة ميزانية من حساب المحافظة. كانت سنابل تسد فراغًا كبيرًا في الحياة الثقافية بعد أن أوقفت وزارة الثقافة مجموعة مجلاتها الثقافية مرة واحدة، بناء على تحريض لويس عوض وأتباعه اليساريين.

كانت المجلة مع أنها إقليمية تنشر للأدباء من القاهرة والبلاد العربية، ولقيت استحسانًا كبيرًا في الأوساط الأدبية، وتناولتها الصحف اليومية بالثناء والتقدير، وقد أرسلت إليها بعض الدراسات النقدية، وفوجئت بنشرها، مع ذكر اسمي مسبوقًا بلقب "المقاتل .. فلان"، وكان محمد عفيفي مطر يخصص جزءًا كبيرًا منها عنوانه: "من شرنقة النار" ينشر فيه ما يكتبه المجندون من شعر ونثر، ولكنه خصني بوضع عناوين بعض ما أكتبه على الغلاف، بوصفه موضوعًا رئيسًا أو مهمًّا.

**تعذيب وحشي:**

سرني ما نشرته سنابل، ولم تكن لي سابقة معرفة بمحمد عفيفي مطر، وفي إحدى إجازاتي الشهرية ذهبت إليه في كفر الشيخ، واصطحبني الرجل إلى بيته، وأصر أن أتناول مع أسرته الغداء، وعبر عن سعادته بمعرفتي، وتكلمنا في قضايا كثيرة، والتقيت معه في مناسبات عديدة بعد ذلك، كان آخرها لقاء في منزل صديقنا الراحل عبد الله شرف، حيث حكى ما تعرض له من تعذيب وحشي في أمن الدولة؛ بسبب موقفه من حرب العراق، وكان حديثًا موجعًا ومؤلمًا وهو يصف ما كان يجري معه من ممارسات تعذيبية بشعة وشنيعة، وآثار هذه الممارسات في رأسه حيث أحدثت الكابلات الكهربية - التي كانت توضع في رأسه لتعذيبه - تجويفين غائرين يشهدان على وحشية من عذبه!

وقد هاتفني قبيل رحيله مهاتفة طويلة حين كتبت عن سيرته الذاتية في إحدى الصحف؛ ليشكرني، ويثني على ما كتبت، ثم تطرقنا إلى بعض القضايا، وأخبرني أنه يعيش في قريته يمارس الزراعة بيديه، وكان مسرورًا لأن القناة الثقافية بالتلفزيون المصري سجلت فيلمًا تسجيليًّا عن حياته، واستضافته في بعض اللقاءات الأدبية.

**كاتب عصامي:**

وفي سنابل كتبت دراسة عن الرواية الأولى للأديب عبد الوهاب الأسواني وكان عنوانها "سلمى الأسوانية". وقد عرفت عبد الوهاب في قصر الثقافة (الحرية) بالإسكندرية، وهو كاتب عصامي يحب القراءة، وكانت هذه الدراسة سببًا في توطيد علاقتي به، وقد رأيت في هذه الرواية رمزًا للأصالة في أدب الشبان آنئذ، وتناول فيها جانبًا من الحياة التي يعيشها أهل الصعيد الجواني في محافظة أسوان، واحتفى بالرواية الأديب الكبير يوسف الشاروني، وكان من المحكّمين في مسابقة الرواية بنادي القصة التي فازت فيها سلمى الأسوانية بالجائزة الأولى، وقدمها عند الطبع بمقدمة حانية مضيئة.

**لم أغضب منه:**

كتب الأسواني بعد سلمى عددًا من الروايات والمجموعات القصصية، تناولت بعضها في دراسات طويلة وقصيرة، وقد أعجب الكاتب الراحل رجاء النقاش بسلمى الأسوانية، فكتب إلى عبد الوهاب الأسواني في الإسكندرية التي كان يقيم بها؛ لينضم إلى هيئة تحرير مجلة "الإذاعة والتلفزيون" التي كان يرأس تحريرها، وصنع لها يومئذ جمهورًا كبيرًا من القراء، فكان الأسواني عنصرًا مهمًّا من العناصر التي أضيفت إلى المجلة، وحين سافر النقاش إلى قطر لينشئ جريدة "الراية" اصطحب الأسواني معه ضمن هيئة تحريرها. وعندما تفرغ بعدئذ لتحرير مجلة "الدوحة" الثقافية الشهرية، كان الأسواني أيضًا معه، وبعد عودته إلى الوطن، انتقل الأسواني إلى السعودية ليحرر في مجلة "الشرق" التي كانت تصدر في الدمام بالمنطقة الشرقية، ثم صار من هيئة تحرير "المجلة العربية" في الرياض، وعاد بعد التقاعد إلى أرض الوطن ليشارك في الحياة الثقافية، من خلال اتحاد الكتاب

ونادي القصة والمجلس الأعلى للثقافة، ومع أني كنت ألتقي معه في السعودية، فلم تتح لنا بعد عودته فرصة اللقاء.

كان الأسواني يدلي ببعض الأحاديث للصحف، وحين كان يُسأل عن النقاد الذين كتبوا عنه فإنه كان يذكر الآخرين دون أن يشير إليَّ. كنت أدرك الظروف التي تجعله يفعل ذلك؛ فالذين يتصدرون الحياة الأدبية لا يستريحون إليَّ؛ لأسباب قد أتعرض لها فيما بعد، وأعلم أن ذكر اسمي قد يسبب له متاعب هو في غنى عنها. لم أغضب منه؛ فقد تعودت على ذلك من غيره، وبعضهم كنت أول من قدمه إلى الناس، ولكن الدنيا مصالح وأحوال!

**خلل لغوي واضح:**

كانت هناك مظاهرات في القاهرة والإسكندرية بسبب ما عرف يومئذ بحالة اللاسلم واللاحرب، والتسمية فيها خلل لغوي واضح، ولكن المصطلح شاع في الصحف؛ لأن الاحتلال كان جاثمًا فوق صدر الوطن، ولم يتوصل القادة إلى حل يريح الناس، فلا استسلموا ونعموا بالسلام، ولا حاربوا واستعادوا الأرض المحتلة.

نشرت سنابل قصيدة اسمها "الكعكة الحجرية" للشاعر أمل دنقل، وكانت تصور الطلاب المحتجين وهم يجلسون على حافة الحديقة الدائرية التي تتوسط ميدان التحرير، وكانت مكونة من ستة إصحاحات على طريقة الإنجيل، وحملت عنوانًا موازيًا "سفر الخروج"، وجاء في مطلعها:

أيها الواقفون على حافة المذبحة

أشهروا الأسلحة!

سقط الموت، وانفرط القلب كالمسبحة.

والدم انساب فوق الوشاح!

المنازل أضرحة،

والزنازن أضرحة،

والمدى .. أضرحة

فارفعوا الأسلحة

واتبعوني!

.....

.....

علمتُ في المعسكر - من خلال بعض الرسائل البريدية - أن المجلة قد منع طبعها بعد نشر القصيدة، وكانت تطبع في دار الهلال بالقاهرة، وتم استدعاء رئيس التحرير محمد عفيفي مطر، والمخرج الفني لسنابل إلى الجهات المختصة للتحقيق معهم، وأسدل الستار على مجلة جيدة لم تعمر طويلا!

**مجلة الثقافة:**

في عام **1973** - وقبل حرب رمضان بفترة طويلة - عين السادات الأديب يوسف السباعي وزيرًا للثقافة، وكان من الحوادث الثقافية في هذه الفترة صدور مجلة الثقافة الشهرية بمعرفته؛ لتكون منبرًا للأقلام الأدبية المحجوبة التي أقصاها الشيوعيون في فترة الستينيات، ويعد إصدار الثقافة هذا هو الثالث بعد الإصدار الأول الذي تولاه الدكتور أحمد أمين في الثلاثينيات، والإصدار الثاني الذي رعاه محمد فريد أبو حديد في الستينيات.

كان الإصدار الجديد برئاسة تحرير يوسف السباعي أيضًا، الذي عين عبد العزيز الدسوقي نائبًا لرئيس التحرير، مع مجلس تحرير يضم مجموعة من الأدباء والشعراء المعروفين.

**رائحة الحبيب:**

وبعد حرب رمضان أصدرت مجلة "الثقافة" عددًا أسبوعيًّا باسم "الثقافة الأسبوعية" في حجم أصغر من العدد الشهري، يضم موضوعات قصيرة، ويصب معظمها في تناول الحرب والبطولات التي قام بها المقاتلون، وكانت بين الحين والحين تصدر عددًا خاصًّا، يضم

رواية أو مجموعة قصصية قصيرة أو ديوان شعر، وقد خصصت أحد أعدادها لنشر مجموعتي القصصية "رائحة الحبيب"، وكنت قد نشرت في المجلة عددًا من المقالات النقدية والأدبية، كما نشرت بعض اليوميات عن الحرب وما يتعلق بها تحت عنوان "يوميات من الميدان".

استمرت الثقافة في الصدور حتى أوائل الثمانينيات، وأغلقها العهد الجديد الذي جاء بعد السادات، وأصدر بدلا منها مجلة "إبداع" التي رأس تحريرها الدكتور عبد القادر القط لعدة سنوات، ثم أبعد الرجل عنها بفجاجة لحساب فريق آخر، وضعها في إطار ضيق متزمت حتى ماتت إكلينيكيًّا، وشاعت عنها النكتة الساخرة الشهيرة التي تقول: إن "إبداع" تطبع ألفي نسخة، ولكن المرتجع بعد التوزيع ألفان ومائتان! ويقال إنها تصدر الآن كل ثلاثة شهور!

**تجوال آخر:**

قضينا نحو سنتين في الميناء أو في الترسانة البحرية وما يجاورها. كان بعض الجنود الذين يتسللون خفية في أوقات الراحة إلى القباري والورديان وما حولهما، قد أقاموا علاقات اجتماعية مشروعة أو غير مشروعة مع بعض السكان، وكان بعضهم يتهامس بها، ولكن أمر الترحيل جاء لتتحرك الكتيبة في مواقع أخرى، تمتد من الدخيلة إلى رأس الحكمة بالقرب من مطروح، وتدخل في العمق عند العلمين نحو سبعين كيلو مترًا في قلب الصحراء؛ لحماية آبار النفط التي تقوم عليها إحدى شركات البترول.

وكان تجوال آخر في البلاد!

* * *

## 3 - الضباب!

### الأوامر اليومية:

كان اختياري كاتبًا للفصيلة سببًا في محاولة مساعد تعليم الكتيبة أن ينقلني إلى مكتب شئون الأفراد الذي يديره في القيادة. رفض قائد الفصيلة أكثر من مرة أن يستجيب لطلب المساعد، وكنت سعيدًا لهذا الرفض؛ لأن العمل بجوار القيادة شاق ومثار متاعب لا تنتهي، ولكن انتقال الكتيبة ومغادرة الميناء وحدوث تغييرات في القيادة جعل نقلي إلى شئون الأفراد أمرًا لا مفر منه أو مسألة منتهية، خاصة أن قائد الفصيلة قد تغير.

اتخذت القيادة من الدخيلة مركزًا مؤقتًا لها بعد توزيع السرايا والفصائل على المواقع، وقد أسندوا إليّ كتابة الأوامر اليومية، ويفترض أن الأوامر اليومية تتم كتابتها في الساعة الثانية ظهرًا كل يوم، وتُقرأ في طابور التمام مساء، ولكن الواقع كان عكس ذلك، فكتابة الأوامر تبدأ في الثامنة صباحًا ويستمر الدفتر مفتوحًا حتى وقت متأخر من الليل؛ بسبب تعدد مواقع السرايا والفصائل، وعدم قدرتها على تقديم يومياتها في وقت مبكر.

صرتُ مربوطًا بدفتر الأوامر طول النهار ومعظم الليل، أسجل فيه كل ما يجري من خدمات ومأموريات وغياب وحضور وجزاءات ومحاكمات وترقيات وعلاوات، وانضمام إلى القوة، وإنهاء خدمة، وإجازات وحرمان من الإجازة، وغير ذلك مما يتعلق بحركة الأفراد والوحدة.

### الوقت يمضي سريعًا:

كنت أكتب يوميًّا في المتوسط ما يقرب من عشر صفحات من القطع الكبير، وفي فترات انتظار اليوميات من السرايا كنت أكتب خطابات المأموريات، والرد على المكاتبات الواردة ونماذج العقوبات (أورنيك الذنب)، وغير ذلك من مكاتبات. كان معي بعض الزملاء الذين يتناوبون في كتابة الصادر والوارد وإعداد البوستة (المكاتبات الواردة والطلبات وغيرها)؛ للعرض على القائد أو من يحل محله. كان الوقت يمضي سريعًا لا نشعر

به من كثرة الأعباء، يكاد المرء لا يحس به إلا وقت اليقظة ووقت النوم. نأكل في أماكننا ثم نكتب، ونشرب الشاي ونحن نكتب، ونرد على الهاتف ونحن نكتب، ونتكلم مع زوار المكتب ونحن نكتب، ونستقبل المندوبين ونحن نكتب. صارت الكتابة لعنة تحل بمن يمارسها في مكتب شئون الأفراد، والجنود المؤهلون لها يهربون إلى السرايا تحت ذرائع متقنة تقنع المسئولين. وبالنسبة لي فقد استسلمت بسيف الحياء وعدم الكذب، وكان القوم في المقابل يسمحون لي بالإجازة عندما تحل أو لا يعطلونها كثيرًا.

### تحرير الدفاتر:

كانت هناك دفاتر إحصائية شهرية، تقدم كل شهر إلى قيادة اللواء الذي تتبعه الكتيبة. كان تحرير هذه الدفاتر معقدًا وصعبًا، ويتم على مدى أسبوع، ويشترك فيه أكثر من واحد، ثم يذهب مندوب ليسلمه إلى المختص في قيادة اللواء، وكان يفترض فيمن يقوم بالتسليم أن يكون واعيًا بكل ما يتعلق بالكتيبة، كما يجب أن يكون مستعدًّا للرد على استفسارات المختص بالاستلام، وتصحيح ما يمكن أن يكون خطأ. كان مساعد التعليم أو رئيس المكتب هو الذي يذهب عادة لتسليم الدفاتر؛ لأنه يعرف كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالوحدة، وفوجئت به يطلب مني أن أقوم بهذه المهمة!

استطعت - بحمد الله - أن أسلم الدفاتر، وأن أراجع مع المختص الجداول والإحصاءات والمطالب، وأن أعود إلى القيادة بغير أن أحمل ملاحظات. ويبدو أن نجاح المهمة جعلهم يطلبون مني كل شهر أن أقوم بتسليم الدفاتر.

### بدا بعيدًا:

تصورت أن تجنيدي يمكن أن ينتهي بعد سنة أو سنتين في الاحتياط، وأعود إلى الحياة المدنية لأواصل دراستي الجامعية، ولكن الأمر بدا بعيدًا، وطالت المدة، فكل عام ينضم إلى قافلة المجندين أعداد غفيرة، معظمهم من حملة المؤهلات المتوسطة والعليا، ويتوزعون - بعد التدريب - على مناطق عديدة، بدءًا من الجبهة على خط القناة إلى الإسكندرية ومطروح إلى الدلتا والصعيد حتى أسوان، وأضحت المواصلات العامة تحمل شبابًا يافعًا من المجندين، ومعظمهم يرتدي الزي المدني، فقد كان الضباط والجنود

يفضلون عدم ارتداء الزي العسكري في سفرهم أو خارج الوحدات. كان موقف الشعب عقب الهزيمة محملا بالسخرية والتنكيت من لابسي الرداء الأصفر. وكانت هناك أسئلة توجه إلى المجندين، لا يمكن الرد عليها، تنطلق من أفواه الركاب المدنيين:

- متى تحاربون يا دفعة؟
- هل ستهزمون اليهود؟
- من الذي سيأتي برأس ديان (وزير الحرب اليهودي)؟
- متى تعيدون سيناء إلى مصر؟

**أزمات خانقة:**

كان المجندون يتجنبون التعرض لمثل هذه الأسئلة، وخاصة أن بعض الناس يتحول بكلامه إلى جلاد يجلد الأبرياء الذين لا ذنب لهم، ولكن حجم الهزيمة الثقيلة أصابت بعض الناس بالقلق والاضطراب، أو نوع من عدم الاتزان، وفي المقابل كان هناك نمط من الشعب لا يعنيه ما يحدث على الجبهة ولا الإصابات التي تقع بين الجنود من شهداء وجرحى إصاباتهم خطرة. كان هذا النمط يلعب ويرتع ويمرح، كأن ما يجري هناك يحدث لشعب آخر. ولم تتوقف حفلات أضواء المدينة ولا الأغاني العاطفية التي تعبر عن سيلان المشاعر الخاصة الضيقة. ولا الأفلام الهابطة، التي تخاطب أحط ما في الإنسان، والإعلام الكذاب يواصل أناشيده وتعليقاته الإنشائية الفارغة. هناك أزمات خانقة في الإسكان والمواصلات والزواج، إضافة إلى المهجرين من خط القنال، الذين فارقوا بيوتهم وأعمالهم، وصاروا عبئًا على الدولة، فكدستهم في المدارس والمؤسسات الأخرى، ووضعتهم تحت ضغوط صعبة، والشباب المجند أو غير المجند لا يرى ضوءًا في نهاية النفق، هناك خلل اجتماعي واضح، ولولا أن نوعًا من العدالة يحكم الحياة العسكرية قرّب بين الضابط والجندي، ما كانت الأمور تحت الزي العسكري تمضي في وضع معقول!

**عام الحسم:**

لقد ملّ الناس الوضع القائم، واعتقدوا أن السادات يضحك عليهم، وأنه لن يحارب أبدًا، وكانت الأحوال في الداخل تتفاقم، وكان الرئيس السادات قد أعلن مرارًا أن عام **1971** هو عام الحسم، ولكنه مضى وانتهى دون أي حسم أو وصول إلى نتيجة تريح الناس، وأراد السادات أن يفسر لماذا مضى عام **1971** دون حسم، فقال: إنه كان هناك ضباب!

ولم يترك السياسيون والصحفيون - وخاصة من ينتمون إلى اليسار والناصريين - هذه الكلمة تمضي دون أن يتخذوا منها متكأ للهجوم على الرئيس، وتقديمه للناس في صورة الفاشل الكذاب، الذي لا يصدق في كلامه، وامتد الهجوم ليشمل نكتًا أخذت صورة شعبية، ومنها النكتة الشهيرة التي كان بطلها العربجي والحمار، وتقول النكتة:

ذات صباح باكر وقف عربجي كارو بعربته فوق كوبري قصر النيل دون أن يتحرك؛ مما تسبب في توقف حركة المرور .. فسأله أحدهم عن سبب وقوفه، وطلب منه أن يمشي. فرد عليه: واقف من أجل الضباب! فتلفت السائل يمينًا ويسارًا، ولم يجد ضبابًا، وتساءل: أين هذا الضباب؟ فقال العربجي: اسأل الحمار. هو الذي يراه!

كانت النكتة تعبر عن عدم رغبة الشعب في الاستمرار أكثر من ذلك دون حرب، وأنه فقد الثقة في السادات، ويئس من شن حرب بعد وقف حرب الاستنزاف.

**النكتة سلاح:**

وهناك نكتة أخرى تقول: إن الرئيس قد أصدر قرارًا جمهوريًّا باعتبار عام **72** امتدادًا لعام **71**، ومحرم علي أي فرد أن يستخدم الرقم **72**.

النكتة سلاح لشعبنا البائس حين يطويه الخوف، ويُسكته القهر عن الجهر بحقوقه والتعبير عن إرادته. والنكت في كل الأحوال تعبير ساخر، يجلب البسمة في أوقات الحزن والمحنة والاستبداد. وفي عهد عبد الناصر شاعت نكتة تلخص عهد الخوف والرعب وسطوة المخابرات، تقول النكتة:

كان عبد الناصر في منطقة الأهرامات ووجد تمثالا ضخمًا.. فسأل عن اسمه، فلم يعرفه أحد، فأرسل يطلب "صلاح نصر" مدير المخابرات .. وسأله عن اسم هذا التمثال .. فاستأذنه في نصف ساعة، ثم عاد إليه، قائلا: يا ريس التمثال ده اسمه "أبو الهول"، فقال له عبد الناصر:عرفت إزاي؟ فرد صلاح نصر: التمثال اعترف يا ريس!!

وواضح أن النكتة معبأة بملامح الواقع الذي يحكمه جهاز المخابرات المرعب المخيف، وتسوده سياسة البطش والاستبداد!

### مصطلح الضباب:

حاول الرئيس السادات أن يدافع عن نفسه وعن استخدام مصطلح الضباب، فتحدث في خطابه أمام ممثلي فئات الشعب يوم 25 يناير 1972 ، وذكر أنه كان واضحًا تمام الوضوح في خطابه الأخير يوم الخميس الذي قال فيه: إنه كتب علينا القتال، ويجب أن نعد الجبهة الداخلية، وأنه تكلم بشيء من الرمز، حيث أشار أن هناك ضبابًا ولا يزال هذا الضباب قائمًا. وأن بعضهم فسر الضباب بأنه يعني عدم وجود معركة، وهذا غير صحيح؛ لأننا نجهز جبهتنا الداخلية من أجل معركة طويلة بأبعاد جديدة. وأن قرار المعركة انتهينا منه، ولم تعد فيه مناقشة، ولا رجوع، ولكن قرار بدء التنفيذ هو الذي يخضع للحسابات.

قبل ذلك، في خطابه في 13 يناير 1972، شرح السادات عدم تنفيذ وعده في جعل عام 1971 عام الحسم مع إسرائيل، باندلاع الحرب الهندية الباكستانية، في 3 من ديسمبر 1971، وقال إن العالم ليس فيه متسع لاندلاع حربين كبيرتين في آن واحد، وأن الحليف السوفيتي كانت تشغله الحرب الهندية الباكستانية، للحد الذي لا يستطيع فيه تقديم مساعدة لمصر، وأن هذه الحالة كالضباب الذي يعيق القدرة على التحرك.

### الهند وباكستان:

في عام 1965 اشتعلت الحرب بين باكستان والهند، وانتصرت الأولى على الثانية، ووقعت مع الهند معاهدة طشقند في عام 1966، توفي على إثرها رئيس الوزراء لال بهادور شاستري. ويبدو أن المعاهدة كانت ضاغطة على الهند، فأسرّ الهنود الانتقام، ودارت أنديرا

غاندي طوال عام 1970 على عواصم العالم تشكو باكستان المتربصة بها، وتدعو إلى إقناع كراتشي بعدم الهجوم على نيو دلهي.

في حقيقة الأمر، استعدت الهند لغزو باكستان، ودربت على أرضها أتباع حزب الشعب اليساري البنغالي الذي كان يقوده مجيب الرحمن؛ للقتال في باكستان الشرقية، وفصلها عن باكستان الغربية. واستطاعت الهند أن تنزل بالباكستان هزيمة قاصمة، وتفصل نصفها الشرقي، وتعلنه دولة مستقلة اسمها بنجلاديش، بقيادة مجيب الرحمن!

لم يستطع السادات أن يحارب في 1971 لأسباب شتى، وتحمل كثيرًا لعدم خوض المعركة، وكان ما قاله عن الضباب وقودًا إضافيًّا في المعركة التي اشتعلت ضده.

**انتفاضة الجامعة:**

انتفضت الجامعة في أوائل 1972، وخرجت التظاهرات ضد السادات، وأقر مؤتمر طلابي في 17 يناير اقتراحًا بتشكيل "اللجنة الوطنية العليا للطلاب في جامعة القاهرة" من ممثلين من مختلف الكليات، وطالب بضرورة تسليح الطلاب وتدريبهم عسكريًّا، مع وقف كل مبادرات التهدئة (فتح قناة السويس، مبادرة روجرز ... إلخ)، وأعطى الطلاب الحكومة مهلة مدتها يومين للرد على المطالب الطلابية، وفي ساعة متأخرة من اليوم نفسه وضعت مسودة بيان يلخص مطالب الطلاب، ويناشد الرئيس الاستجابة لدعوة الطلاب، وحضور المؤتمر المعلن عنه في 20 يناير، وإلا فإن اعتصامًا مستمرًّا سينظم داخل الجامعة حتى يستجيب.

وفي أثناء هذه التطورات، بدأ السادات في التحرك باتخاذ إجراءات هدفها التهدئة وامتصاص الغضب، وأجرى تغييرات في الحكومة، وعين وزير الصناعة عزيز صدقي رئيسًا للوزراء ليرأس ما سماه "وزارة المواجهة الشاملة"، كما عين سيد مرعي أمينًا للاتحاد الاشتراكي العربي. وأعلنت الحكومة عن تنفيذ اثني عشر إجراءً "حاسمًا"؛ بهدف إعداد اقتصاد البلاد "للمعركة القادمة"! كما أعلنت أن الرئيس قرر تنظيم ترشيد للاستهلاك، خاصة فيما يتعلق بمنع استيراد السلع الاستهلاكية، وأعلنت أيضًا أن الرئيس قرر العفو

عن 12 ألف شخص كانوا قد حرموا من حقوقهم السياسية في عام 1961 أيام قرارات التأميم، أما وزير الدفاع فقد أعلن عن فتح باب التطوع للجيش أمام الطلاب.

واستمرت الاعتصامات والمؤتمرات الطلابية، واشتعل غضب الطلاب وانطلقت جموعهم إلى ميدان التحرير. واستطاعت السلطة في النهاية من إطفاء هذا الغضب بالقوة. ونشرت في ذلك الحين مقالة مترجمة تلخص الوضع في مصر آنئذ تلخيصًا شبه دقيق.

**ضباب فوق السويس:**

ففي 31 يناير 1972 نشرت مجلة تايم مقالة تحت عنوان "ضباب فوق السويس"، جاء فيه:

(لأول مرة منذ وراثته جمال عبد الناصر رئيسًا لمصر وزعيمًا للعالم العربي، تعرض أنور السادات في الأسبوع الماضي لنقد شعبي هائل من مواطنيه. في جامعة القاهرة الكبيرة (بها 64 ألف طالب)، تجمع ما يزيد على 6 آلاف طالب غاضب، وهم يلوحون بلافتات مكتوب عليها "يجب أن نحارب"، ويبدون تصميهم على مواصلة الاعتراض حتى يأتي لهم السادات؛ كي يجيب عن أسئلتهم حول السياسة الخارجية، وخاصة موضوع الحرب مع إسرائيل.

وقد تسبب في هذه الموجة الغاضبة ما حدث من تعديل وزاري في مصر، بدا لهم وكأنه تفاد للموضوعات، كما أن الكلمة التي ألقاها السادات وغطتها وسائل الإعلام بكثافة، وحاول فيها - بغير نجاح - أن يفسر عدم تنفيذ وعده المتكرر بأن عام 1971 سوف يكون "عام القرار" .. قال السادات: "إن ما منع الحرب هو الحرب التي قامت بين الهند وباكستان، حيث إنها جذبت انتباه العالم وأصبحت معركة القوى العظمى، وهو ما أثر على معركتنا"، أى أن ذلك منعه من شن الحرب).

**خطبة الضباب:**

واصل السادات بإجراء مقارنة مبالغ فيها بين حظه السيئ وحظ سلفه جمال (الله يرحمه) في عام 1967، حيث قال السادات إنه بعد شهر من حرب الستة أيام شوهدت فرقة

مدرعة إسرائيلية تقترب من قناة السويس، وكأنها محاولة لعبور القناة، فأمر ناصر القاذفات المصرية بأن تدمر هذه الدبابات .. ويقول السادات: "للأسف .. لم تستطع القاذفات أن ترصد أهدافها؛ بسبب الضباب الذي غطى كل المنطقة .. لقد أفسد الضباب كل شيء".

حتى أجهل المصريون وجد أنه من الصعب أن يهضم ذلك، فمن النادر - إن لم يكن من المستحيل - أن السويس يمكن أن يتكون فيها ضباب في شهر يوليو .. وفي أوساط العاصمة أصبح حديث السادات التلفزيوني معروفًا باسم "خطبة الضباب"، وبعد ثلاثة أيام من إلقائها، قام أستاذ في جامعة عين شمس بالسخرية وهو يحاضر الطلبة حول "الضباب فوق مصر"، وقد خرج المئات من طلبة هذه الجامعة (التي يبلغ عدد طلابها 38 ألفًا) للتظاهر، وقبل أن يمضي وقت طويل، انتقلت المظاهرات إلى جامعة القاهرة، حيث انتقد الطلبة سلبية الحكومة ورغبتها في التعاقد مع شركات أمريكية للعمل في مصر، رغم أن أمريكا تسلم إسرائيل المزيد من طائرات الفانتوم.

**الحرس القديم:**

إن الطلبة وحدهم ليست لديهم القدرة على إسقاط الحكومة المصرية، وقد أجابهم السادات ساخرًا لمطالبهم بالحرب، بأن اقترح عليهم أن يلتحقوا بالجيش، إلا أن الرئيس كان مدركًا أيضًا أن المظاهرات ما هي إلا أعراض غضب شعبي بعد ما يقرب من خمسة أعوام من حالة اللاحرب واللاسلم، وأن العديد من المصريين الآخرين كانت لديهم الشكوك نفسها.

بطبيعة الحال، فإن حالة عدم الاستقرار لن يغيرها شيء وهمي، مثل تعديل وزاري، فقد قام السادات قبل إلقاء خطابه ببضعة أيام بإبعاد مجموعة محترمة من الحرس القديم، مثل رئيس الوزراء محمود فوزي (71 عامًا)، الذي تولى منصبًا فخريًّا كنائب للرئيس، وكذلك وزير الخارجية محمود رياض (55 عامًا) الذي تمت تسميته مستشارًا للشئون

الخارجية، وتكونت الوزارة الجديدة من مجموعة لامعة من التكنوقراط الشباب، ليس من بينهم إلا قليل ممن يرتبطون بناصر، وليس لديهم قوة سياسية كافية.

وقد ذكر أحد الإسرائيليين بعد تفحصه لقائمة الوزارة المصرية الجديدة "بعضهم يتبعون هذا وبعضهم الآخر يتبعون ذاك .. الشيء الوحيد الذي يجمع بينهم هو أنهم جميعًا يتبعون السادات".

### تقديرات وردية:

هذا الوصف يناسب تمامًا رئيس الوزراء الجديد عزيز صدقي (51 عامًا)، الذي كان أول عضو بالحكومة يعلن ولاءه للسادات في مايو الماضي، بعد أن كشف الرئيس النقاب عن مؤامرة ضده، وهو خريج جامعة القاهرة وجامعة أوريجون وهارفارد، وقد تم ترقيته من وزير للصناعة، وهو المنصب الذي أشرف فيه على بداية مصنع حلوان للحديد والصلب، وأيضًا صناعة السيارات، وقد اعتاد غالبًا على إعطاء صورة وردية للإنتاجية المصرية، وبتوليه منصب رئيس الوزراء فإنه سوف يركز على الشئون الداخلية، بينما احتفظ السادات لنفسه بموضوعات الدفاع والسياسة الخارجية.

بهذه الطريقة، فإن قرار السادات الأول سوف يكون حول ما يمكن عمله في موضوع المفاوضات مع إسرائيل، سواء من خلال مبعوث الأمم المتحدة جونار يارنج، أو من خلال محادثات الفندق التي اقترحتها أمريكا، وتتضمن اتفاقًا مرحليًّا لإعادة فتح قناة السويس.

### لم يكن مرنًا:

إن السادات في حيرة؛ نتيجة دور أمريكا في الشرق الأوسط، لكنه مع ذلك يرغب في التفاوض، ولعل سبب استبعاد وزير الخارجية رياض، وإحلال السفير السابق في موسكو مراد غالب (50 عامًا) محله، هو أن رياض لم يكن مرنًا فيما يتعلق بقيمة المفاوضات المرحلية، وربما يفقد السادات التأييد الشعبي إذا تفاوض بدون التوصل إلى نتائج، ولكنه من ناحية أخرى إذا قاتل كما يطالب الطلبة فإنه سوف يُضرب بلا شك، أما إذا لم يأخذ

أيًّا من الخيارين السابقين، فإنه سوف ينتقد بوصفه بلا فائدة، وذلك أيضًا سوف يكون خطيرًا، وقد لاحظ المنتقدون في الأسبوع الماضي أن صدقي الطموح، كرئيس للوزراء، سوف يعد الخلف المنتظر للسادات في الرئاسة".أ. هـ

### رائحة الحبيب:

ثقل هذه الفترة أثبت حضوره في مجموعة قصص قصيرة، كتبتها آنئذ، ونشر أغلبها ضمن مجموعة "رائحة الحبيب"، التي ظهرت عقب الحرب مباشرة في عدد خاص من "الثقافة الأسبوعية"، وبعضها الآخر نشر متفرقًا في المجلات الشهرية والأسبوعية، مثل الأديب والزهور وآخر ساعة والخفجي.

كنت قد استطعت في السنوات الثلاث أو الأربع كتابة معظم فصول كتابي الأدبي الأول عن الكاتب محمد عبد الحليم عبد الله، الذي أحببت رواياته وقصصه وسحرني أسلوبه. كان قد توفي في 30 يونيه 1970 وعمره 57 عامًا (من مواليد 1913)، في ظرف مأساوي، فقد كان في زيارة لمحافظ البحيرة، وبعد انتهاء الزيارة ركب سيارة أجرة مع نجله هشام الصغير والوحيد، ليصل إلى قريته ومسقط رأسه كفر بولين. وقبل أن تتحرك السيارة طلب السائق بفظاظة من الكاتب الراحل أن يحمل ابنه على حجره؛ ليضع مكانه راكبًا إضافيًّا. بيد أن الكاتب الراحل أفهمه أنه سيدفع لابنه الصغير أجرة راكب كبير، ولم يعجب الأمر السائق الفظ، وانهال على الكاتب الرقيق بألفاظ سوقية، تتحدث عن عصر الجمهورية والمساواة بين المواطنين، ونحو ذلك من مقولات ينطق بها السوقة عندما يريدون إهانة غيرهم. أصيب الرجل الرقيق الحساس بأزمة قلبية، انتقل على أثرها إلى رحمة الله!

### قصة لم تتم:

لأني ارتبطت بابن شقيقه زغلول محمود عبد الحليم عبد الله، فقد اطلعت على بعض المخطوطات التي كتبها الراحل في حياته ولم تنشر، وكانت هناك بعض الروايات والقصص التي أعدت للنشر بعد رحيله، ومنها أول قصة كتبها محمد عبد الحليم عبد الله واسمها "إبريسم"، وكان يعتز بها ويضعها في حافظة أنيقة، وكتبت عنها دراسة نقدية في مجلة البيان الكويتية، ونشرت مقدمة للرواية عند طبعها في كتاب. وهناك رواية لم تكتمل نشرت

بعنوان قصة لم تتم، مع مقدمة للأب جوردان مونو من الآباء الفرنسيسكان الدومينكان بالعباسية.

والأب مونو كان شابًّا فرنسيًّا فارعًا مهيبًا، ولقيته في الدير، وتبادلنا الحديث المتشعب في الفكر والأدب والدين، ومع أنه كان يحقق كتابًا تراثيًّا صعبًا في فكر المعتزلة للقاضي عبد الجبار – ولعله كان رسالته للدكتوراه أمام إحدى الجامعات الفرنسية، ويتعامل مع الكتاب بصبر ودأب، فإن اهتمامه بالأدب العربي في مصر كان كبيرًا، ونشر دراساته في صحيفة نسيت اسمها كان يصدرها الدير على ما أذكر لقاطنيه والمتابعين له، وكان المترجم سمير وهبي ينقل بعض ما يكتبه بالفرنسية الآباء الدومينكان إلى العربية.

### لم يكن مشهورًا:

مونو الشاب عندئذ كان مرتب الفكر، ويتكلم اللغة العربية بصورة جيدة، ولكنه لم يكن مشهورًا مثل الأب جاك جوميه الذي اهتم بنجيب محفوظ، وكتب عن الثلاثية رسالة ترجمت إلى العربية، وانتهى فيها - على ما أذكر - إلى أن أدب نجيب محفوظ يقوم على الأخلاق المستمدة من القيم الإسلامية.

وبصفة عامة، فقد كان دير العباسية محط اهتمام عدد من الأدباء والباحثين، وهناك من كتبوا عنه وعن آبائه، ومنهم محمد عبد الحليم عبد الله نفسه، وأنيس منصور.

تمنيت أن ألتقي بالأب مونو مرة ثانية، ولكننا اكتفينا ببعض الرسائل القليلة، فقد كان يتجول ما بين العراق وإيران، ثم يعود إلى القاهرة؛ من أجل بحثه عن القاضي عبد الجبار المعتزلي، وبصفة عامة فقد شغلني الجيش عن متابعة لقاءاتي مع من أريد.

ومع ذلك تابعت ما كتبته الصحف المصرية عن مونو وجوميه حتى الثمانينيات من القرن الماضي، ثم تلاشت أخبارهما، وبعد سفري إلى الخارج لم أعد أسمع عنهما شيئًا.

### التجربة مغايرة:

تصورت أن يكون كتابي عن محمد عبد الحليم عبد الله على غرار الكتاب الذي سجل فيه ميخائيل نعيمة سيرة جبران خليل جبران، من خلال كتبه ورسائله وعلاقته

الشخصية به. وشجعني على ذلك أني زرت قريته مرارًا، واطلعت على كتبه جميعًا ومقالاته التي نشرها في مجلة القصة التي كان مديرًا لها وفي الهلال وغيرهما، وقد جمع ابن شقيقه زغلول هذه المقالات فيما بعد في كتاب منشور.

التجربة مغايرة بين كتاب جبران الذي كتبه نعيمة وبين كتابي عن محمد عبد الحليم عبد الله، ولكني حاولت أن أجعل الكتاب على هيئة سيرة قصصية، وقد قدم للكتاب الأستاذ يوسف الشاروني، ونشره المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (المجلس الأعلى للثقافة الآن). وبدا عنوان الكتاب قريبًا من عالم الرومانتيكية أو الشعر "الغروب المستحيل: سيرة كاتب محمد عبد الحليم عبد الله".

ظهر الكتاب عقب حرب رمضان، ولعل ذلك تم في أوائل عام **1974**، وقد فرحت به فرحًا شديدًا، وعندما أنظر إليه بعد أربعين عامًا من صدوره أبتسم في داخلي، وأتعجب من جرأتي وتسرعي وإصراري في ذلك الوقت على إصدار الكتاب، ولكني في كل الأحوال سعيد به؛ لأني حاولت في هذا الكتاب إنصاف كاتب مظلوم، ظلمه الكتاب اليساريون المهيمنون على الحياة الأدبية، في الوقت الذي أغدقوا فيه الاهتمام على آخرين لعلهم كانوا أقل منه موهبة وقيمة.

### رسائل علمية:

كان هناك في ذلك الحين من يعمل على دراسة محمد عبد الحليم عبد الله أكاديميًّا، فكانت رسالة الدكتوراه لصديقنا الدكتور يوسف نوفل التي قدمها لكلية دار العلوم جامعة القاهرة عن أدب الرجل، وحصل على الدرجة عام **1973** فيما أظن، ونشرها في كتاب صدر عن جامعة الرياض فيما بعد. وكان هناك باحث اسمه محمود حسب النبي يعمل في رسالة ماجستير أمام كلية دار العلوم أيضًا ولكنه لم يكملها، بيد أنني علمت بعد حين أن هناك رسائل علمية أخرى في بعض الجامعات العربية.

بعد صدور "الغروب المستحيل" كتبت - على مدى سنوات وفي مناسبات مختلفة - بعض الدراسات حول روايات محمد عبد الحليم عبد الله وقصصه، منها مقدمة لملف عن أدبه، نشرته مجلة القصة بعنوان "وفي بعض الوفاء كرامة"، كما نشرتُ بعض الدراسات

الأخرى عن أدبه في مجلات أدبية وضمنت بعضها في كتبي مثل "الرواية التاريخية في أدبنا الحديث"، حيث تعرضت لروايته الشاعرية الجميلة "الباحث عن الحقيقة"، وهي من أفضل رواياته، وتتناول قصة الصحابي الجليل سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وقد حدثني رَحِمَهُٱللَّهُ، أنه كتبها عقب وفاة والده الذي كان يحبه حبًّا غامرًا، ورأى في سلمان الفارسي فرصة مناسبة ليفرغ مشاعره الحزينة، ويجلو وجدانه بالعيش في سيرة باحث عن الحقيقة، تحمل في سبيلها متاعب لا حد لها.

### مرارة التجاهل:

معضلة الحياة الأدبية أن من يسيطرون عليها لا يتسامحون مع يحمل ذرة من التعاطف مع الرؤية الإسلامية أو يقترب منها، ولذا عاش محمد عبد الحليم عبد الله مظلومًا في حياته وبعد مماته. لو كان الرجل منتميًا إلى اليسار أو إلى مثقفي النظام، لاهتموا به ومنحوه الجوائز والعطايا، ولأنه لا يحب التعامل بعيدًا عن فطرته وأخلاقه، فقد عانى مرارة التجاهل والتهميش، مع أن اسمه كان يقترن دائمًا بنجيب محفوظ، وكان يتفوق عليه في حصد الجوائز الأدبية في العهد الملكي رَحِمَهُٱللَّهُ.

### هزيمة النيل:

أسوأ ما في سنوات الهزيمة هزيمة النيل الساحر. أقيم السد العالي، وكان أبرز ما نتج عنه من سلبيات توقف الفيضان، ثم ران الصمت وخيم الحزن على النيل، وغدا الماء ساكنًا لا يتحرك، وهو ما جعله مهيئًا بعدئذ لردم شواطئه، وتغول ما يسمى بورد النيل وتجذره، لدرجة إعاقة الملاحة في النيل، وأخذ النشاط المتعلق بنقل الركاب والبضائع يتقلص إلى أن اختفى تقريبًا في السنوات الأخيرة، لم تعد هناك قوارب ولا مراكب خشبية ولا حديدية. المراكبية هربوا إلى أعمال أخرى. القوارب تحولت إلى خشب مستعمل للوقود، والصنادل والجنازير بيعت خردة، وصناعها تحولوا إلى تجارة الحديد المستعمل.

لم يتبق إلا الزوارق الصغيرة التي تبحث عن الرزق من خلال الصيد المضني، الذي لا يأتي إلا بمحصول ضئيل بعد عناء كبير، فقد تم تجريف النهر تجريفًا شبه تام، حيث لم تبق زريعة قابلة للنمو، وظهرت مؤخرًا طرق شيطانية لاستغلال الماء الراكد بصنع أقفاص

حديدية محاطة بشبكات من السلك ضيقة الخروم، وفيها يضعون زريعة مشتراة ويغذونها بفضلات السلخانات وأعلاف عضوية وأشياء أخرى، تفسد الماء وتربي سمكًا مليئًا بالأشواك، أو سمكًا مسمومًا، أو فيه درجة من السموم، تؤذي من يتناولها وإن كانت لا تميته!

**إفساد الماء:**

وانتشرت صورة أخرى من صور إفساد الماء وتعطينه، وذلك من خلال إلقاء الجوابي في مناطق معينة على الشواطئ، وتغطيتها بنوع من فروع الأشجار الجاذبة للأسماك، وهو ما يحول المنطقة المحيطة بالجوابي إلى مساحة ملوثة رائحتها لا تطاق.

وفي عديد من المواقع على النيل، شاعت في السنوات الأخيرة تقليعة تحويل السفن النيلية إلى فنادق وقاعات للاحتفال بالأفراح والمناسبات الأخرى، تضاف إلى العوامات التي يتزايد عددها في القاهرة والمدن الأخرى المطلة على النهر. وكل هذه الهياكل العائمة تصرف مخلفات روادها في مياه النيل، ويشاطرها هذا السلوك المؤذي بعض مصانع الكيماويات؛ صابون وزيوت وغيرها، تلك التي تصرف مخلفاتها السامة في النهر جهارًا نهارًا دون خوف من قانون أو اكتراث بالحكومة.

أم الكوارث بناء بيوت على ما يسمى طرح النهر، أي الشواطئ التي كان يغطيها الفيضان فيما سبق من أزمان، وكذلك الجزر التي صار يسكنها مئات الآلاف من الأسر على امتداد النهر من أسوان إلى رشيد ودمياط، فقد أمن أصحابها من خطر زيادة الماء وغمره لها؛ فبنوا على حافة النهر وفوق أسطح الجزر، وأغلب هذه المباني تصرف مخلفاتها وفضلات الإنسان في النيل مباشرة؛ لعدم اتصالها بالصرف الصحي.

ولعل هذا كله كان من وراء إنهاء دور النيل، بوصفه شريانًا رئيسًا رخيصًا للنقل، سواء بالمراكب على تعدد أحجامها أو بالصنادل البخارية. صحيح أن النقل بالسيارات حقق تطورًا كبيرًا في العقود الأخيرة، من حيث السرعة والوصول إلى الأماكن المختلفة التي

يحددها العملاء، ولكن مخاطره الكبيرة تتمثل في الحوادث الدموية اليومية، فضلا عن تكاليفه العالية.

### لعنة أصابت البلاد:

فيضان النيل كان يطهر مجرى النهر سنويًّا، وكان الطمي الذي يحمله يغسل الأرض الزراعية من الأملاح ويجدد خصوبتها، بالإضافة إلى الخير الذي كان يحمله من أسماك متنوعة.

هزيمة النيل تبدو منعطفًا خطيرًا في حياة مصر والمصريين، وكأن الهزيمة العسكرية لعنة أصابت البلاد الطيبة بمرض لا شفاء منه، طال الجسد المصري كله.

### تلال من الذهب والبلاتين:

ومع ذلك لا تتوقف محاولات المخلصين لتحويل اللعنة إلى رحمة، وقد قرأت قبل مدة على شبكة "المهندسون المتحدون" أن بعض المهندسين المتخصصين يرون أن السد العالي عائم على تلال من البلاتين والذهب، وهو ما صرح به رئيس فريق الأبحاث بمعهد الكويت للأبحاث العلمية الدكتور أحمد عبد الجواد الذي قال: أستطيع استخراج اثنين طن من الذهب والبلاتين يوميًّا، وأنتظر إشارة مصرية، وأبشر المصريين بوجود كميات من الطمي تكفي لاستصلاح ملايين الأفدنة. الدكتور أحمد عبد الجواد مؤسس المجموعة الاستشارية الصناعية بجامعة «جورج تاون» في الولايات المتحدة الأميركية، وقد عرف - حين كان يعمل رئيس هيئة أبحاث بمعهد الكويت للأبحاث العلمية - أن شركة أجنبية تدرس مشروع رفع الطمي الذي يهدد جسم السد العالي، خاصة بعد أن ثبت أن هناك أخطاء في تصميمه أدت إلي تراكم الطمي. فغالبية جسم السد من ركام «زلط» وجرانيت مغلف بخرسانة مسلحة تتخلله فتحات التوربينات وغرف الكنترول. كما أن ارتفاعه 200 متر من القاع للجسر، في حين أن المسموح به 186 مترًا فقط حدًّا أعلى لمستوى المياه. والتصميم العلمي الصحيح يتطلب أن يكون خلف السد 1 جرام / سنتيمتر مكعب، لكن كان هناك سوء تصميم، والسد العالي هو السد الوحيد في العالم الذي لم يكن له هاويس، والهاويس يسمح بالملاحة النهرية من الشمال للجنوب والعكس، والأهم

إذا جاء فيضان مفاجئ لا يستطيع السد مواجهته بدون الهاويس. لذلك تقوم الحكومة المصرية إذا جاء فيضان بوضع شوكة نهرية؛ لينسكب الماء من البحيرة إلى منخفض توشكى، الذي لم يبطن لا بأسفلت ولا بأسمنت؛ لتتسرب المياه إلي النهر العظيم في ليبيا، وهذا إهدار للثروة المائية المصرية، وتدمير لجدار بحيرة ناصر وتعرضه للكسر، فعندما تدخل المياه البحيرة تسكن وتعطي الفرصة للطمي أن يترسب؛ مما يؤدي إلي إجهادات على جسم السد الخلفي من ناحية البحيرة، تولد شروخًا «ميكروسكوبية»، تؤدي إلى انخفاض عمر السد الافتراضي من 500 سنة إلى 250 سنة.

## حقيقة علمية:

وبدأ البحث حين أعلن المهندس «مينا إسكندر» رئيس مجلس إدارة السد العالي عام 1996، أن الطمي الموجود خلف السد العالي وخزان أسوان يحتوي على نسبة عالية من الذهب، وتم وضع سفينة أبحاث من أستراليا لأخذ عينات من الذهب وتحليلها خارج مصر.

هناك حقيقة علمية تؤكد أن كل أنهار الأرض بها ذهب وبلاتين ومعادن نفيسة وعناصر مشعة، وهذا سر بناء الولايات المتحدة؛ حيث استخرجت «الذهب» من نهر الميسسبي، استطاعت به شراء مصانع ومعدات عسكرية، ولقد أجرى فريق البحث دراسات فيما يتعلق بالذهب والبلاتين الموجود في طمي السد، وتوصل إلى أن كثافة الذهب «18 جرامًا» في السنتيمتر مكعب، وكثافة البلاتين «22جرامًا»، وكثافة الطمي «5,2 جرام» في سكون المياه.

من حسن الحظ - كما يقول الدكتور أحمد عبد الجواد - أن سوء تصميم السد العالي يجلب للمصريين الذهب والبلاتين، بعد ما عاشوه من سنوات عجاف، والأمر لا يقتصر على الذهب فقط؛ حيث يحتوي السد على طمي يكفي لخصوبة 40 مليون فدان بالصحراء.

واستخراج هذه الكنوز يتطلب البدء حالا في رفع الطمي من السد العالي، وبعدها تبدأ عملية فصل الذهب عن البلاتين.

تكلفة المشروع حوالي 50 مليون دولار، وبعدها نحصد أطنانًا من الذهب، تمكننا من بناء 10 محافظات جديدة، وزرع 40 مليون فدان، وتمويل كل مشروعات البناء والتنمية في مصر. ويبلغ نصيب الفرد المصري في حالة استخراج هذا الكنز ما يقرب من 40 مليون جنيه.

ما يقوله المهندس أحمد عبد الجواد قد يتحقق علميًّا إذا كانت هناك إرادة من جانب المسئولين، وشخصيًّا لا يهمني الذهب والبلاتين بقدر ما يهمني الطمي الذي يخصب الأرض الزراعية، ويستصلح الأرض الصحراوية، وعندئذ تتحول اللعنة إلى رحمة .. ومن يدري؟!

**عطر الأحباب:**

عندما التقطت أنفاسي في فترة التجنيد الطويلة، تابعت مراسلة الأدباء والكتاب، حيث أتيح لي وقت لا بأس به للقراءة ومطالعة الصحف وقراءة الكتب التي كنت أحملها في أثناء عودتي من الإجازات.

ومن الإصدارات التي شدت انتباهي في تلك الفترة كتاب جميل للأستاذ يحيى حقي - رحمه الله - بعنوان "عطر الأحباب"، ويضم مجموعة من مقالاته النقدية التي نشرها في جريدة "التعاون"، التي تهتم بشئون الفلاحين والزراعة بالدرجة الأولى، واستكتبت الأستاذ يحيى في عمود أسبوعي بصفحتها الأخيرة، ومع أنه كان كاتبًا معروفًا وراسخًا، فلم يتكبر على هذه الجريدة المتواضعة، وظل يكتب بها إلى أن انشغل بأشياء أخرى.

أعجبني عطر الأحباب، ونشرت له عرضًا في مجلة "الأديب". وكتبت للأستاذ يحيى رسالة على عنوان بيته، أرسلتها من المعسكر بالبريد الحربي المجاني، ونسيت أمرها، إلى أن فوجئت بعد أسابيع بمظروف أصفر يحمل كتابًا يسلمه إلى مندوب البريد في الوحدة. فتحت المظروف لأجد نسخة من كتاب عطر الأحباب، وعليه إهداء لطيف، بقيت منه في ذاكرتي لفظة "المقاتل".

### الطبيعة الدبلوماسية:

سعدت بالكتاب الذي قرأته من قبل، وعرضته في "الأديب"، صحيح أن الرجل لم يكتب رسالة، ولكن الإهداء كان كافيًا، ويبدو أن طبيعة الأستاذ يحيى أو العم يحيى كما أطلقت عليه في عام 1974، تميل إلى الاقتصاد في الكتابة عمومًا، حتى مقالاته تبدو قصيرة نوعًا ما، عدا الدراسات التي تطول لأسباب فنية، فقد كان ينشرها مجزأة، بحيث يكون كل جزء مساويًا للمقالة العادية.

لعل ذلك يرجع إلى الطبيعة الدبلوماسية التي نشأ عليها العم يحيى، فقد عمل بالسلك الدبلوماسي، ومن قبله السلك القضائي، فصار ضنينًا بالكلام والكتابة، ولا يتكلم إلا بما يرى أنه يكفي للإجابة. وأذكر أنني بعد خروجي من الجيش أجريت لقاء معه في محل جروبي وسط القاهرة، وكانت معه زوجه الفرنسية، ونشر اللقاء في مجلة "الجديد"، الذي كان يرأس تحريرها الدكتور رشاد رشدي، وقد وضع اللقاء بعد الافتتاحية مباشرة، وحظي بدعاية كبيرة في التلفزيون والإذاعة، ولاحظت أن الرجل لا يسهب في الإجابة، ولكنه يركز على جوهر الإجابة مباشرة، وهو ما كان يفعله أيضًا في لقاءاته التلفزيونية التي كانت تستغرق وقتًا طويلا.

### قيمة الحضارة الإسلامية:

ميزة يحيى حقي التي يمتاز بها عن بعض أفراد جيله، أنه كان يدرك قيمة الحضارة الإسلامية، وكان يتحدث عنها دون مخافة، وإن لم يضع نفسه في خانة المدافعين عنها المتفرغين لهذا الدفاع. لقد عاش في الغرب سنوات من عمره، وسبر أغوار الحضارة الغربية، ولكنه احتفى بالحضارة الإسلامية، في وقت كان كثيرون يعدونها مرادفًا للرجعية والتخلف.

ولعل هذا كان من وراء اهتمامه باللغة العربية، والحرص على حضور ندوة الأستاذ محمود محمد شاكر في بيته كل أسبوع، وإعلانه أنه يتعلم منه اللغة العربية، ويقصد التعلم بالمعنى الثقافي الواسع، فقد كانت ندوة شاكر ثرية في موضوعاتها المتشعبة العميقة، وثرية أيضًا بمن يحضرونها من رجالات الفكر والأدب من مصر والعالم العربي.

رأس يحيى حقي تحرير مجلة المجلة في أواخر عهدها، وتبنى مجموعة من كتاب القصة القصيرة والرواية معظمهم من اليسار، فقد كان متسامحًا معهم؛ بحكم دبلوماسيته التي لا تعتمد المواقف الحادة، ولكن ذلك لم يمنعه من توجيه بعض الانتقادات الجذرية لبعضهم، وكشف سلبياتهم، وإن اتخذ ذلك إطارًا فنيًّا.

**ولع بالأندلس:**

توثقت علاقتي عبر البريد باثنين من أدباء سورية الكبار، أولهما الأستاذ فاضل السباعي الذي عرفني بالآخر، وهو الدكتور عبد السلام العجيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يكتب فاضل الرواية والقصة القصيرة، وله ولع بالأندلس مكانًا وتراثًا، وقد سافر إلى إسبانيا مرارًا، واستوحى من زياراته للمدن الأندلسية عديدًا من الأعمال الإبداعية والمقالات، كما ترجم بعض الكتب المتعلقة بالتاريخ الأندلسي، وقد كتبت عن رواياته وقصصه بعض الدراسات، وكنا نتبادل الآراء، وكان يعرض عليَّ بعض الكتابات قبل نشرها، وبسبب بعض آرائه قضى فترة في الاعتقال عقب ندوة من الندوات التي حاضر فيها بدمشق، وقد سجل ما تعرض له في بعض قصصه.

ويتميز فاضل السباعي بالأناقة في كتاباته، وفي خطه، وفي ملبسه، وفي حياته بصفة عامة، ولا عجب أن تكون حياته قطعة فنية راقية؛ فزوجه هي الأخرى فنانة تشكيلية، وهي شقيقة الفنان السوري لؤي الكيالي.

عمل فاضل محاميًا في أول حياته العملية بعد أن تخرج من حقوق القاهرة، ثم موظفًا في وزارة التعليم العالي السورية بدمشق لسنوات عديدة، وطلب الإحالة على المعاش المبكر ليتفرغ للكتابة الأدبية والرحلات إلى الأندلس وفرنسا وأمريكا، حيث تزوجت بعض بناته هناك. وقد أنشأ دارًا للنشر سماها "إشبيلية" حبًّا للمدينة الأندلسية الشهيرة؛ لينشر من خلالها أعماله الأدبية بعد أن صار النشر في الجهات الثقافية الحكومية تكتنفه صعاب، وتحكمه أيديولوجيات السلطة التي لا تتسامح مع الفكر الآخر. ثم إن

لبنان الذي كان يتيح فرصًا كثيرة للنشر دهمته الحرب الأهلية، فأثرت على حركة النشر ضمن أشياء كثيرة كان يمتاز بها لبنان منذ الخمسينيات.

**صورة أنيقة:**

استطاع في دار النشر "إشبيلية" أن يعيد طبع كتبه، بالإضافة إلى ما استجد من تأليفه، ويبدو حرصه شديدًا على أن تظهر كتب إشبيلية في صورة أنيقة شكلا وإخراجًا وصفًّا للحروف وتنظيمًا للسطور والعناوين، ثم إنه فوق ذلك كان يراجع بدقة متناهية نصوص الكتب كلمة كلمة، ونادرًا ما تجد خطأ مطبعيًّا، أو تصحيفًا أو غيره.

وقد أتاحت له إشبيلية - بوصفها دار نشر عربية - فرصة التجول في العواصم العربية لحضور معارض الكتب، والاستمتاع بمعالمها السياحية، وزيارة أصدقائه ومعارفه من الأدباء والمثقفين. وبدا حرصه واضحًا في أثناء حضوره للمعارض - وخاصة معرض القاهرة - على التزود بالكتب التي تتناول الأندلس، وقد رأيته في إحدى الدورات يشتري عددًا كبيرًا من الكتب الأندلسية؛ لتشبع نهمه في التعرف على الأندلس، وتفيده فيما يكتبه عنه أو يترجمه.

**أسرة كثيرة العدد:**

ينتسب فاضل إلى أسرة موزعة على مصر وسورية، أو القاهرة وحلب، وأسرته الحلبية كثيرة العدد، وهو نفسه شقيق لعدد كبير من الإخوة، وأسرة السباعي تضم عددًا كبيرًا من المشاهير منهم مصطفى السباعي في سورية ويوسف السباعي في مصر، ولعل وجود فرع لأسرته في مصر كان من وراء دراسته الحقوق في جامعة القاهرة وهو لما يزل طالبًا. وقد قابلت أحد أعمامه غير الأشقاء في مسكنه بمنطقة غمرة، قرب حدائق القبة، ثم التقينا مرة أخرى بعد سنوات في معرض القاهرة الدولي للكتاب، بحضور فاضل وابنه، كما تعرفت إلى شقيقه نادر، وهو ناشر، ويكتب الرواية أيضًا، وفاز ببعض الجوائز الأدبية القيمة.

بعد أن تجاوز السبعين (من مواليد **1929**) بدأت رسائله إلى تقل، ولكنه يتفضل بالاتصال الهاتفي، سواء أكنت في مصر أو خارجها، وعندما يأتي إلى القاهرة أو

الإسكندرية يتصل بي دائمًا، وكنت أبادر بالذهاب إليه، وعندما أقعدتني المتاعب الصحية أكتفي بمهاتفته فترة وجوده في مصر.

### صعوبة الاتصال:

أما الدكتور العجيلي فقد ظللنا نتراسل لأكثر من ربع قرن دون أن نلتقي وجهًا لوجه. حاول أكثر من مرة أن يتصل بي في زياراته الفجائية للقاهرة، ولكن من كان يطلب منهم مساعدته للاتصال بي كانوا يعتذرون أنهم لا يعرفون مكان إقامتي، فضلا عن كون الهواتف في تلك الفترة لم تكن متاحة بالصورة السهلة التي هي عليها الآن. مثلا حين كنت أريد الاتصال بالقاهرة هاتفيًّا أذهب إلى المدينة المجاورة، وأطلب من أريد فتأتيني المكالمة بعد ساعة أو اثنتين، أو يقال إن أحدًا لا يرد على الجانب الآخر، فأعود دون أن يتحقق الاتصال. وعندما أدخلوا في قريتنا - بحكم أنها قرية مميزة - سنترالا نصف آلي، كنت أقضي سحابة النهار من أجل مكالمة مع القاهرة أو طنطا أو الإسكندرية قد لا تأتي أبدًا!

التقينا في الرياض بالسعودية عام **1994** فيما أذكر. جاء مدعوًّا لحضور المهرجان السنوي الذي تقيمه المملكة العربية السعودية ويعرف باسم (الجنادرية). قضى أيامًا في الرياض، وجلست معه لساعات، وشارك في اللقاء الدكتور عبد العزيز الخويطر وزير المعارف السعودي لسنوات طويلة، ثم وزير دولة بعد ذلك. للأسف لم أسجل ما دار في هذا اللقاء الثري، ولكن الحديث تشعب إلى قضايا عديدة مهمة في التعليم والفكر والثقافة.

### نجيب محفوظ سورية:

كتب العجيلي الرواية والقصة القصيرة والمقالة والمقامة، ونظم الشعر وسجل الرحلات الكثيرة التي قام بها شرقًا وغربًا، وتحدث عن ذكرياته في الطب والسياسة والحرب في فلسطين ضد الغزاة اليهود.

في الشام يسمونه "نجيب محفوظ سورية"؛ لأنه أفضل من كتب الرواية والقصة القصيرة هناك، والرجل منذ بداياته مكافح ضد الاحتلال والفساد، وهو ممن آثروا العيش في قريته

(الرقة) على شاطئ نهر الفرات في الشمال الشرقي لسورية، يقرأ ويكتب ويسافر إلى أرجاء العالم ويعود إليها، ثم هو يرى نفسه هاويًا في مجال الأدب، ومهنته الأصلية أو الأساسية هي الطب، والعمل في العيادة بقريته. أول طبيب من الرقة، عاش فيها وحده زمنًا طويلا، يعالج أهلها على مدار الساعة. لم يكن هناك طبيب غيره، وقد سجل كثيرًا من الطرائف التي صادفها في أثناء عمله بالعيادة في بعض كتبه ومقالاته.

العجيلي أكبر سنًّا من فاضل السباعي، فهو من مواليد 1918 على الأرجح، ولكن روايات أخرى تتحدث عن ولادته عام 1913 أو عام 1914، ويرجع الخلاف في تحديد سنة الميلاد لعدم وجود سجلات في ذلك الحين، أو لأنه سجل بعد مولده بسنوات.

**أصيب بالإحباط:**

تعلم في حلب، وفصل في المرحلة الثانوية؛ بسبب مشاركته في المظاهرات المعادية للاحتلال، وعاد بعد فترة لمواصلة الدراسة والالتحاق بكلية الطب، وبعد تخرجه انشغل بالعمل السياسي، فذهب مع فوج المجاهدين للقتال ضد العدو الصهيوني في فلسطين، وعاد إلى سورية بعد هزيمة الجيوش العربية عام 1948م، وترشح للمجلس النيابي عن الرقة، وصار عضوًا به، وعقب انفصال سورية عن مصر عام 1961م، شغل أكثر من منصب وزاري، فكان وزيرًا للصحة، ثم وزيرًا للثقافة، ثم وزيرًا للإعلام والخارجية، وقد حاول من خلال عمله الوزاري أن يخدم بلاده في الاتجاه الصحيح، ولكن العسكر الذين أدمنوا الانقلابات والمؤامرات أصابوه بإحباط عظيم، فترك دمشق، وعاد إلى الرقة يمارس مهنته الأساسية، وهي الطب.

يتميز أدب العجيلي بالصدق وسلامة اللغة، والتعبير عن هموم الأمة وآمالها، وقد تابعت إنتاجه المتنوع، وأعددت عنه كتابًا، قدمته إلى إحدى هيئات النشر الرسمية، ولكنها للأسف ضيعته، فلم تنشره ولم تبق عليه، ومن يومها تعلمت أن يكون لدي نسخة احتياطية من أي كتاب أو موضوع أكتبه. عندما انتشرت آلات التصوير وفرت جهدًا ووقتًا. وبدلا من كتابة الموضوع أو الكتاب مرة ثانية، كان التصوير يعطيني الصور التي أريدها، وعندما ظهر الكمبيوتر حلت نفحاته في كل مكان، فهو يرسل الموضوع أو

الكتاب إلى المكان أو الأماكن التي يراد الوصول إليها، ويحتفظ بالأصل، ويتيح فرصة الطباعة منه مباشرة، كما يمنح الكاتب مجالا للمراجعة والتعديل والاختصار والإضافة والتنسيق والتنظيم والتشكيل بالصورة التي يتغياها.

### مواكبة الأحداث:

وقد واكب أدب العجيلي أحداث وطنه والأمة العربية، فكتب مثلا عن سد الفرات، واستصلاح الأراضي الزراعية، وفساد القطاع العام في سورية، وعن هزيمة 67، وحرب رمضان، وعالج في مقالاته التي كان يكتبها في بعض المجلات اللبنانية والسورية بصورة دورية، ما يجري حوله من أحداث محلية وعربية، ولجأ إلى القصة والتراث والرمز؛ ليمرر أفكاره التي كانت تحول الرقابة بينها وبين الظهور، وقد ساعده استيعاب التراث العربي والعالمي وقراءاته بالفرنسية والإنجليزية - اللتين كان يجيدهما قراءة وكتابة - على تقديم أفكاره بصورة دقيقة وواضحة.

لم يشغله الاهتمام بالأدب عن تخصصه الأصلي وهو الطب، فقد كان يتابع فيه كل جديد، ويشارك في المؤتمرات الطبية داخل بلاده وخارجها، ويطلع على أحدث ما يطرح من علاجات وجراحات، وأذكر أنني عندما أردت استئصال المرارة التي باتت تضايقني، وتشكلت فيها حصوات تزعجني، وتسبب لي آلامًا فوق الطاقة، استشرته في طريقة إجراء الجراحة. كانت هناك طريقتان إحداهما تقليدية عن طريق الفتح الجراحي، والأخرى عن طريق المنظار. كنت أخشى الطريقة التقليدية ولا أملك معلومات عن طريقة المنظار، فإذا به يرسل إليَّ قصاصة من بعض المجلات الحديثة الصدور، تشمل معلومات وافية عن جراحة المنظار، مزودة بالصور والرسوم، وشرح لي الفارق بين الطريقتين. وقد استشرت آخرين، وأقنعني الطبيب الذي أجرى العملية بالطريقة التقليدية التي ستكون أفضل، والحمد لله كانت ناجحة.

### متاعب صحية:

ظلت علاقتي مستمرة به، حتى أخبرني أنه يعاني بعض المتاعب الصحية، وفهمت أنه مجهد، ولا يستطيع القراءة والكتابة، وبعد أسابيع فوجئت بمن ينقل إليَّ خبر رحيله

رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكرى يوم مولدي 5 من أبريل 2006، عن عمر قارب التسعين عامًا، وخلف وراءه نحو خمسة وأربعين كتابًا؛ ما بين مجموعة قصصية ورواية ومقامة ومجموعات مقالات ومحاضرات، وكتب رحلات، منها: بنت الساحرة (مجموعة قصصية 1948)، ساعة الملازم (مجموعة قصصية 1951)، الليالي والنجوم (شعر 1951)، قناديل إشبيلية (مجموعة قصصية 1956)، (رواية 1958)، الحب والنفس (قصص 1959)، (رواية 1959)، رصيف العذراء السوداء (رواية 1960)، الخائن 1960، فارس مدينة القنطرة (قصص 1971)، حكاية مجانين 1972، السيف والتابوت 1974، قلوب على الأسلاك (رواية 1974)، أزاهير تشرين المدماة (رواية 1974)، المغمورون (رواية 1979). في كل واد عصا (مقالات 1984). أحاديث الطبيب (قصص 1997)، ومجهولة على الطريق (قصص 1997). وقد ترجمت معظم أعماله إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والروسية.

بعد رحيله احتفت به وزارة الثقافة السورية، وأقامت له مهرجانًا أدبيًّا سنويًّا ومتحفًا في بلدته، والمفارقة أن القوم وجهوا الدعوة إلى من يتصدرون المشاهد الثقافية الحكومية في البلاد العربية، ولم يوجهوها إليّ، ولم يذكروني بكلمة، لا في المهرجان ولا في الدراسات التي حبّروها، مع أني من أكثر الذين كتبوا عنه، واهتموا به في حياته .. دنيا!

***

## 4 - عبور الهزيمة!

### الرحيل من الجمرك:

فترة الجمرك كانت بالنسبة لي جيدة مع متاعبها المتنوعة، فقد استطعت أن أقرأ وأكتب بصورة لا بأس بها، فضلا عن فرصة الاتصال بالحياة الثقافية، من خلال قصر ثقافة الحرية، فقد كنت أحصل على تصريح بعدة ساعات، أركب الترام أو الأتوبيس لأستمع إلى المحاضرات التي كان ينظمها القصر، أو أشارك في الندوات الأدبية الأسبوعية، ويشارك فيها أدباء الثغر وحدهم أو بحضور من يستضيفونه من أدباء القاهرة. لقد توثقت علاقتي بمعظم أدباء الإسكندرية وما زال هناك تواصل بيني وبين بعضهم حتى الآن.

بيد أن الرحيل من الجمرك كان نقلة مزعجة، فقد افتقدت الوقت الذي أطالع فيه أو أتمكن من الكتابة، فضلا عن افتقاد المشاركة مع أدباء الثغر في نشاطهم الأدبي، وكان عملي في شئون الأفراد شاقًّا ومجهدًا، خاصة بعد أن تركنا الدخيلة، وذهبنا إلى العلمين؛ لتشغل القيادة مقرًّا كان يشغله سلاح الحدود.

### لافتة قطار:

وسلاح الحدود يضم عناصر تسمى الهجانة، يعتمدون على الجمال في متابعة الشواطئ والحدود، ويكتشفون عمليات التهريب والمتسللين إلى البلاد عبر البحر أو البر، ولهم نظام خاص في حياتهم العسكرية وعملهم اليومي، وبحكم بعدهم عن العمران ووجودهم في أماكن نائية، فهم يحملون أمتعتهم وأغذيتهم بصورة تتيح لهم الاستقرار في مواقعهم، وطهي طعامهم بأنفسهم، وكل مجموعة صغيرة تعيش كأنها أسرة واحدة، وتظل فترة تجنيدهم غالبًا في موقع لا يتغير؛ إذ إن مهمتهم أقرب إلى المهمة البوليسية منها إلى المهمة القتالية. وهي مهمة ليست هينة بالتأكيد؛ فمواجهة المهربين والمتسللين عملية خطيرة، خاصة إذا كان هؤلاء مسلحين، أو يملكون وسائل تفوق ما لدى مجموعات الحراسة.

كانت العلمين - يوم انتقلنا إليها - مجرد لافتة قطار واستراحة يفيء إليها العابرون من الإسكندرية إلى مطروح أو العكس، وبين اللافتة والاستراحة مجموعة بيوت متناثرة

للأهالي، ومساحة شاسعة من الصحراء، معظمها مزروع بالألغام من أيام الحرب العالمية الثانية، وبين حين وآخر يسقط بعض الضحايا الأبرياء؛ نتيجة جهلهم بطبيعة المكان، أو توغل الرعاة في حقول الألغام المجهولة، وقد تكون الإصابة شديدة تفضي إلى الموت، أو بسيطة تنتهي ببتر ساق أو قدم. بالطبع لا تتحرك الحكومة المصرية تحركًا جادًّا لحل مشكلة الألغام المزمنة منذ الأربعينيات حتى اليوم. لا أحد يعلم الأسباب الحقيقية لهذا التراخي، والهبّات الصحفية التي تومض أحيانًا، وتعرض المشكلة، وتكشف مخاطرها وسلبياتها، لا تلبث أن تخمد وتهمد.

**مقبرة فخمة:**

دول التحالف والمحور تتحمل مسئولية قانونية وأدبية عن الألغام؛ فهي التي زرعتها في أرضنا التي انتهكتها، وجعلتها مسرحًا لحروبها الدامية، ومن حق بلادنا التعويض الشامل، وتنظيفها من الألغام، أو دفع التكاليف اللازمة لمسح المنطقة مسحًا شاملا، والمساعدة بتقديم الخرائط الدالة على أماكن الألغام، والأدوات المزيلة لها.

وأعتقد لو أن الحكومة تعاونت مع جمعيات حقوق الإنسان، وعرض الأمر على الأمم المتحدة والهيئات الدولية، لتحققت نتائج إيجابية جيدة، واستطاعت مصر أن تفيد من مساحات ضخمة في الزراعة والرعي، وإقامة المصانع والإسكان أو التعمير عمومًا.

بجانب مقر القيادة شيد الحلفاء مقبرة فخمة لضحاياهم من الجنود والضباط الذين شاركوا في معارك الحرب العالمية الثانية، وفي قلب حديقة مترامية تنهض شواهد القبور الرخامية مدونًا عليها أسماء الضحايا وجنسياتهم وأماكن إقامتهم وتواريخ وفاتهم. وقد زرت هذه المقبرة أكثر من مرة، والتقط أحد الزملاء بعض الصور لي واحتفظت بها وقتا طويلا، ولكني افتقدتها وسط ركام الأوراق والمحفوظات.

**نصب تذكاري:**

على مسافة عشرين كيلو مترًا أو أقل في منطقة سيدي عبد الرحمن، أقام الحلفاء نصبًا تذكاريًّا آخر لضحاياهم، ويرتفع النصب شاهقًا، وعلى جدرانه الداخلية مربعات في حجم البلاطة المتوسطة 25 × 25 سم، دونوا عليها أسماء الضحايا وبياناتهم، وتركوا سجلا

ضخمًا يدون فيه الزوار انطباعاتهم السريعة عن المكان وما فيه. وأذكر أنني سجلت كلمة، تمنيت فيها أن يقام نصب تذكاري لشهداء بلادي بمثل هذه الفخامة وهذا الرقي.

كان العمل في قيادة الكتيبة شاقًّا ومرهقًا؛ فقد قل عدد أفراد المكتب لأسباب شتى، وصرنا نعمل من الصباح حتى منتصف الليل، وربما بعده، لدرجة أننا كنا ننام في أماكننا، يفرد كل منا بطانية على إحدى الطاولات، ويضع تحت رأسه أي شيء يرفعها عن مستوى الجسم، ويغرق في سبات عميق.

كان المكتب في الطبقة العليا من المبنى مع مكاتب القادة والضباط. الطبقة الأرضية كانت مخصصة للمخازن والمكاتب الإدارية، والمبنى في مجمله لم يكن مخصصًا - فيما يبدو - للقوات المسلحة، وربما كان مخصصًا لهيئة أخرى تركته بسبب ظروف الحرب.

### تغيرت الدنيا:

كان المكتب مزودًا بغرفة حمام واسعة نسبيًّا، فيها حوض وبانيو، وكان بجوارنا مطعم الضباط، وفي الناحية الأخرى على يمين من يصعد السلم مكتب القائد ورئيس العمليات والضباط الآخرون. وأمام المبنى فناء فسيح يضم الكانتين والسجن وجراج الحملة، وقد اخترنا زاوية، وبنينا فيها مسجدًا بالجهود الذاتية؛ لنقيم فيه صلاة الجمعة، وكان أحد الزملاء من خريجي الأزهر يؤم المصلين طوال الأسبوع، ويلقي خطبة الجمعة.

بعد أربعين عامًا وأنا في طريقي إلى مطروح، لم تطالع عيني مبنى القيادة ولا جنودًا، فقد غرقت المنطقة في المباني الجديدة والفنادق والقرى السياحية، كما لم أتعرف على الاستراحة القديمة والفندق الملحق بها. تغيرت الدنيا وتغير الزمان!

### البضائع المهربة:

الوصول إلى العلمين من الإسكندرية يتم عن طريقين؛ الأول السكة الحديد، والآخر بوساطة سيارات الأجرة والأتوبيسات. بالنسبة للعساكر كان القطار هو الأفضل والأرخص، مع أنه يستغرق وقتًا أطول. كان القطار يمر بمحطات عديدة، وركابه في ذلك الوقت أغلبهم من التجار الذين يتعاملون مع البضائع المهربة من ليبيا، مثل الأقمشة

والملابس والأدوات المنزلية والكهربية والشاي والسجائر، ونحو ذلك. ويبدو أن هذه التجارة كانت رائجة بسبب وقف الاستيراد من الخارج، بناء على ما فرضه النظام الاشتراكي من قوانين اقتصادية. وبعد تولي الرئيس أنور السادات رئاسة الجمهورية، أخذت الجهات المختصة تغمض عينيها إلى حد ما عن عمليات تهريب البضائع من ليبيا، وكلها بضائع أجنبية، يتهافت عليها الناس؛ نظرًا لسوء المنتج المحلي، أو عدم وجوده أصلا. وكان شارع الشواربي في القاهرة - في ذلك الحين - مشهورًا ببضائعه المستوردة. ويقوم هواة المستورد بتوفير احتياجاتهم من هذا الشارع.

**محطات التخزين:**

قطار مطروح يتحرك من الإسكندرية، ويتوقف في محطات عديدة، تسعفني الذاكرة منها بالمكس والدخيلة وعبد القادر والعامرية وكنج مريوط ومرغم وبهيج وبرج العرب والغربانيات والحمام والرويسات والعميد والجباسات، ثم العلمين وتل العيسى وسيدي عبد الرحمن، ويواصل فيتوقف في غزال والضبعة وفوكة وراس الحكمة، حتى يصل إلى مطروح، ثم يعود أدراجه مرة أخرى. وكان هناك قطار آخر، يقابله في الطريق، وهناك محطات للتخزين، أي يقف القطار في المحطة الكبيرة حتى يأتي مُقابله، فيتحرك كل منهما في اتجاهه، فالخط مفرد، لا يسمح إلا بقطار واحد.

كان عدد المسافرين في هذا الزمان قليلا نسبيًّا؛ ولذا كان بعض الجنود يستطيعون النوم على المقاعد الفارغة، ويضعون حقائبهم بجوارهم أو تحت رءوسهم.

**يحفظ بمحطة العلمين:**

كانت محطة السكة الحديد في العلمين تستقبل رسائلنا بعيدًا عن البريد الحربي الذي كان يتأخر كثيرًا، وكان ناظر المحطة يستقبل البريد المرسل، ويضعه في المخلاة التي يسلمها القطار في الإسكندرية، ومنها يوزع الرسائل في الاتجاهات المرسلة إليها. أما رسائل الأهالي إلى الجنود فكان يكتب عليها يحفظ بمحطة العلمين، ويقوم مندوب من الوحدة بفرز الرسائل والإتيان بما يخص الزملاء من رسائل.

**رحيل:**

من الزملاء الذين عرفتهم، وكانت شخصيته فريدة في تكوينها الجندي القديم "رحيل". وينتمي إلى منطقة الضبعة، القريبة من العلمين، وهو بدوي أصيل يتحدث اللهجة البدوية بسرعة، فلا يفهم عنه إلا كلمات قلائل، وكنت أقول له:

- تكلّم ببطء ووضّح كلامك.

يبتسم ويلمع الوشم الأخضر على جانب وجهه. ويبدأ في الحديث محاولا تقليد أبناء الحضر.

يراه الجنود انعزاليًّا، ولكنه كان يعتز بنفسه، ويترفع عن الاندماج في المزاح الثقيل. عندما يفضي إليّ بمكنونه أجده يحمل همومًا كثيرة. تزوج وأنجب وترك وراءه عائلة، وكان قبل التجنيد يدخل إلى ليبيا ويعود منها متكسبًا ببعض البضائع مثل آخرين من أبناء ربعه. في الليل وفي أثناء الخدمة وتحت جنح الظلام، يطلق لنفسه العنان، فيغني باللهجة البدوية التي لا يفهمها غير أهلها. وحين أمر عليه وأضبطه أقول له:

- فسر لي هذه الأغنية؟

يضحك ويشرح لي الكلمات التي يغنيها بلغة فصيحة. أجدها غالبًا حزينة، وتتناول الحظ والمكتوب والغربة والأشواق، مثل أغاني الشعب المصري على امتداد تاريخه الحزين.

**الصديق الوفي:**

في فترة تجنيده الممتدة التي استمرت حتى خرج قبلي بشهور قليلة، كان مثالا للصديق الوفي الذي يحفظ حق الصداقة والأصدقاء. ظل يراسلني إلى أن غادرت الوطن في أواخر الثمانينيات للعمل في الخارج، وعندما ذهب أحد أبناء القرية للعمل في منطقته أوصيته به، فقدم له المودة والعون أفضل ما يكون.

سمعني ذات مرة أتحدث في الإذاعة، فأرسل إليَّ، معبرًا عن فرحه وسعادته لأنه سمع صوتي، وسألني عن الأحوال والأخبار. تمنيت في زيارتي لمطروح قبل نحو عام أن أقابله

وأسلم عليه، ولكن ظروف الرحلة وظروف من معي لم تمكني من ذلك. كان صديقًا حقيقيًّا. ترى أين هو الآن؟

### زميل قارئ:

زميل آخر التحق بنا في قيادة الكتيبة من سلاح الإشارة، كان يعمل على جهاز اتصال بين القيادة الشمالية ووحدتنا. مستواه الثقافي مرتفع، يقرأ ويطالع، والمناقشة معه مفيدة وثرية. كنا نتبادل بعض الكتب لمطالعتها في الوقت الذي يتاح لنا. كان الوقت لديه متسعًا، ولكنه محدود بالنسبة لي.

عرفت أنه من إدكو، وينتسب إلى عائلة زيتون المعروفة. عمه الأديب الراحل محمود محمد زيتون من أهم أدباء البحيرة وشعرائها، وقد قابلته في دار الأدباء وقصر ثقافة الحرية بالإسكندرية، وقد وضع كتابًا مهمًّا، يرصد فيه تاريخ القرى والمدن بالمحافظة على عهد محافظها وجيه أباظة، وتمنيت أن يعاد طبع هذا الكتاب، ولكن مسئولي هذا الزمان لا علاقة لهم بالكتب ولا بالتاريخ ولا الجغرافيا.

### ترقية إلى درجة عريف:

عرفت فيما بعد زميلا ضمن هيئة تدريس الجامعة، ينتسب إلى عائلة زيتون، وسألته عن حسن أو محمد حسن زيتون، فأخبرني أنه يعمل في جهة ما خارج المحافظة. لم يبق في ذاكرتي إلا أصداء لقاءاتي معه في العلمين.

كان عملي في مكتب شئون الأفراد يقتضي أحيانًا أن أكون مع بعض الجنود المستجدين بالمكتب لبعض الوقت؛ نظرًا لقيام رئيس المكتب وآخرين بالإجازات، فيثقل عليَّ العمل، الذي يضاف إليه عرض المذنبين على القائد؛ لتوقيع الجزاءات، ومعظمها بسبب الغياب أو التأخر في الوصول إلى الوحدة. وتطلب ذلك أن تتم ترقيتي إلى درجة عريف، وهو ما كنت زاهدًا فيه، فكلما ارتفعت الدرجة في الجيش زادت المسئولية، وهو ما كنت أنفر منه؛ لرغبتي في أن أحمل مسئولية نفسي، وأفرغ لبعض القراءات كلما أمكن. ويبدو أن بعض ما يتمنى المرء لا يدركه أيضًا. بعد الترقية ازدادت المسئولية، وأصبحت مطلوبًا ومشغولا

أكثر من ذي قبل، ولكن ما باليد حيلة. كانت الإجازة تعوضني بعض الشيء، فكنت أقرأ وأكتب، وأذهب إلى القاهرة لأقابل الأدباء والكتاب وأحضر الندوات ومناقشات الرسائل العلمية، والمشاركة في بعض البرامج الإذاعية ضيفًا، وخاصة في البرنامج الثاني للإذاعة، وقد أتيح لي أن أتعرف على كثير من الأدباء في تلك المرحلة، وبعضهم كانوا شبابًا في تلك المرحلة، وصاروا الآن كهولا، أو بلغوا مرحلة الشيب مثلي، أو غادرونا إلى الحياة الخالدة.

### كبيرة وجريئة:

آنئذ كانت قدرتي على التفاعل مع الآخرين ومواجهتهم كبيرة وجريئة في الحقل الأدبي، ولكن المشكلة تكمن في عدم انخراطي في جماعة أو شلة أو حزب. طبيعتي تنفر من التحزّب والانخراط في جماعة. أحب دائمًا أن أكون مستقلا، أعلن عن رأيي وتوجهي بصراحة، وهو ما لا يعجب كثيرين ويسبب لي متاعب مزعجة، وخاصة في مجال النشر.

اليساريون منذ العهد الناصري يهيمنون على الصحافة والثقافة والإعلام بصفة عامة، وقد حاول الرئيس السادات أن يغير هذا الوضع قليلا، وخاصة بعد ما سماه ثورة مايو **1971**، التي أطاح فيها برءوس التنظيم الطليعي وثبت أركان حكمه، فقد كان التنظيم الطليعي يضم مجموعات من الشيوعيين والناصريين والعلمانيين المدربين على كتابة التقارير المؤذية/ ورفعها لأجهزة الأمن ضد من يرونه مغايرًا لهم، ولا يخضع لإرادتهم، وإذا كان السادات قد أطاح بالرءوس، فإن الجذور كانت عميقة، وكان المجال الإعلامي والثقافي أكثر عمقًا من المجالات الأخرى، وتجذر اليساريون على تعدد فصائلهم وتلاميذهم في كل التخصصات: الإذاعة، التلفزيون، الصحف العامة، المجلات الثقافية والأدبية، السينما، المسرح، دور النشر الحكومية، هيئة الاستعلامات، وغيرها.

### مثقفو النظام:

كانت الفترة السابقة على حرب رمضان (**1971- 1973**) فرصة ملائمة لمثقفي النظام الأمني في عهد عبد الناصر؛ كي يوجهوا الضربات الإعلامية للسادات، وقاد بعضهم حملة ضده لإعلان الاستسلام أو شن الحرب، وهي حملة حق أريد بها باطل، وهو إسقاط السادات واستعادة الدولة لحساب ورثة النظام الناصري، وقد استطاعوا بعد شعورهم

المؤكد أن السادات يستبعدهم، أن يقنعوا مجموعة من كبار الأدباء بزعامة توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وثروت أباظة، بتوقيع مذكرة تطالب السادات بإنهاء حالة اللاحرب واللاسلم، وأظن أن الذي تصدى للتحريض على كتابة المذكرة وجمع التوقيعات عليها كان الكاتب الشيوعي الطائفي المتعصب غالي شكري، ومع أن كبار المثقفين الذين وقعوا على المذكرة لم يعرف عنهم أنهم اصطدموا بالسلطة في أي عصر من العصور الملكية أو الناصرية أو الساداتية، إلا إنهم تحت تأثيرات مختلفة وقعوها ظنًّا منهم بأن السادات سيتقبلها بهدوء، وهو ما خالف ظنهم، وفاجأهم بما لم يتوقعوا.

**تقصي الحقائق:**

جاء في المذكرة / البيان التي صاغها توفيق الحكيم، وكتبها بخط يده ما يلي:

"نحن الكتاب والأدباء الموقعين على هذا البيان قد رأينا من واجبنا أن نعاون ونشارك - من مواقعنا في المجتمع - مؤسسات الدولة في تقصي الحقائق في حالة الاضطراب التي بدت بوادرها الآن في بعض الأحداث الجارية، يدفعنا إلى ذلك شعورنا بالمسئولية التاريخية، وثقتنا بشعبنا، وتقديرنا لوطنية رئيس الدولة، واعتقادًا منا بأن في استطاعته الإمساك بالزمام للسير بالبلاد في طريق محفوف بالمخاطر"، ويشير البيان إلى أن على الكتاب والأدباء أن يكملوا الصورة، وأن يقدموا المعونة، بإبراز ما استتر وتخفىّ مما يعتمل الآن في باطن الأمة وضميرها، كما يوضح بصراحة أن "البلد يغلي في الباطن على نحو لم يعد يخفى على أحد"، وأن كل الناس قد لا يعرفون تعليلا لما يشعرون به من قلق واضطراب وغليان داخلي. ويفسر البيان منشأ هذا الإحساس العام بالقلق والاضطراب والضياع بعدم وضوح الطريق أمامهم "فالصيحة المرتفعة في كل حين بكلمة المعركة. وأن الطريق هو المعركة".

**كلمة غامضة:**

ويضيف البيان "ومع الأسف تمضي الأيام، وتصبح كلمة المعركة مجرد كلمة غامضة لا حدود لها، ولا أبعاد لمعناها، ولا تحليل لعناصرها، مجرد كلمة مطلقة تلوكها الأفواه، مجرد لقمة مستهلكة لكثرة مضغها، وأصبح الناس يملون هذه الكلمة التي تتردد على جميع

النغمات في الأناشيد والأغاني والخطب والشعارات، حتى فقدت قوتها وفاعليتها، بل وصدقها، وصارت "اللقمة" الممضوغة في الفم "غصّة" لا هم يستطيعون ابتلاعها ولا هُم يجرءون على لفظها، وأصبحوا في حيرة من شأنهم، وأصبح طريق المستقبل أمامهم مرة أخرى مسدودًا وهم في ضياع".

وهذه الكلمات بالتحديد هي التي أغضبت السادات، وخاصة حكاية "اللقمة" التي وقفت في زور الناس، كما أشار أحمد بهاء الدين، وتكاد تتهم السادات صراحة بالخداع. والمفارقة أن السادات كان في تلك المرحلة قد اقترب بالفعل من وضع اللمسات النهائية للحرب، إلا أنه كان حريصًا على السرية التامة والتمويه على العدو، بعد أن عانى ضغوطًا شديدة في سبيل توفير السلاح، وفي تحديد هدف المعركة بما يناسب الإمكانات المتاحة، ومواجهة عدو لديه جهاز مخابرات، اشتهر بكفاءته وتعاونه مع أجهزة المخابرات الأمريكية؛ لمعرفة كل ما يدور في الوطن العربي، وخوض أصعب العقبات لعبور أصعب الموانع المائية (قناة السويس)؛ وذلك لطبيعة المياه والعمق والعرض، إلى جانب الحائط الترابي لخط بارليف، والمواسير البترولية التي وضعها العدو في قلب القناة؛ لتعمل في دقائق عند العبور، فيتحول كل شبر في خط المواجهة بالقناة إلى كتلة حريق تشوي كل من يجرؤ على عبورها، وتحوله إلى كتلة من الفحم!

**رمال الجبهة:**

يتحدث البيان بعد ذلك عن إحساس الشباب بالضياع، حيث يدرسون ويحصلون على الشهادات ليقذف بهم السادات - على حد قولهم - إلى رمال الجبهة لينسوا ما تعلموه ولا يجدون عدوًّا يقاتلونه، وتحول البيان إلى صيغة اتهام صريحة للنظام حيث قال: "إن كل نقص وإهمال أو توقف أو عبث أصبح يختفي خلف صوت المعركة، وفى انتظار المعركة وتمحكًا بالمعركة وإذا بالأمر ينقلب في نظر المواطنين إلى (مهزلة)، وإلى سخط، وإلى قرف عام. ما الحل؟". الحل كما يقول البيان "في الصدق؛ فإن الشعب يريد أن يقتنع بشيء لأنه غير مقتنع، ولابد من إراحة باله واقتناعه، بعرض حقائق الموقف أمامه واضحة، وهذا يقتضي النظر في تغيير بعض الإجراءات التي تسير عليها الدولة اليوم: ومنها حرية الرأي

والفكر وحرية المناقشة لإلقاء الضوء على كل شيء حتى تتضح الرؤية، وليكن ذلك داخل المؤسسات إذا كانت السرية في ظروفنا الحاضرة تقتضي ذلك، على ألا يكون للدولة رأي مسبق تضغط به على أهل الرأي، وتجعلهم مجرد أبواق لترديده وترويجه".

وينتهى البيان بالقول: "على الدولة في هذه الظروف العصيبة أن تتخفف هي من كل العبء والمسئولية، وتضعها على ظهر الأمة. إن في ذلك مصلحتها وصيانة لها أمام التاريخ". وكأن البيان يرى السادات عاجزًا عن قيادة البلاد، وعليه أن يختار من يساعده ليوضح له الطريق، أو ليذهب إلى بيته. الاثنين 8 يناير **1973**.

### باتا للأحذية:

كاد البيان يطيح بالحكيم وجماعته من المثقفين الذي وقعوا عليه، ولكن السادات اكتفى بفصل الموقعين من الاتحاد الاشتراكي، وحول أكثر من ستين كاتبًا إلى هيئة الاستعلامات والإذاعة والتلفزيون وشركات القطاع العام، وتندر بعضهم بأنه نقل إلى شركة "باتا للأحذية"!

المؤكد أن نفرًا منهم ذهب للعمل لدى الحكومات النفطية الثورية، التي أغدقت عليهم، وعوضتهم عما تركوه في مصر، وخاصة في بغداد ودمشق وعدن وطرابلس القذافي، وسموا أنفسهم بالطيور المهاجرة، واستمر بعضهم في الخارج ليذهب إلى العواصم الأوربية، وخاصة بعد كامب ديفيد؛ ليعمل فيما أطلق عليه الصحافة المهاجرة، التي رعتها ومولتها حكومات عربية للنيل من السادات.

### لقاء في القناطر:

بعد فترة من المذكرة / البيان، تم اللقاء في القناطر الخيرية بين السادات وتوفيق الحكيم، بحضور الدكتور عبد القادر حاتم، وبادر الحكيم السادات قائلا: "ما دام الضباب يعوق حركتك عن الحرب فلماذا لا تستشير أهل الفكر والرأي؟! وهذا هو الهدف من البيان". ورد السادات بأنه لم يغضب إلا من الفقرة التي تتحدث عن حالة القرف التي تعيشها البلاد وإلقاء شباب الجامعات في رمال سيناء دون أن تفيد منهم الدولة أو الجيش، وكرر السادات قوله: "إن هؤلاء الشباب يتدربون على القتال، وأنه واثق في كفاءة

الجندي المصري خير أجناد الأرض". وانتقل مسار الحديث ليعرض السادات على "الحكيم" مشروع دار الأوبرا الجديدة، وطلب الحكيم من السادات إعادة المضارين بسبب البيان، وكان شرط السادات لإعادتهم أن يعتذروا عما فعلوه، فيقول الحكيم: "إنهم لم يفعلوا شيئًا ليعتذروا عنه، وإذا كان هناك من يتحمل المسئولية ويعتذر فإنه أنا؛ لأنني الذي كتبت البيان، فأنا رأس البلاء بالنسبة لهم". فرد السادات: "بل أنت رأس الحِكمة"!!

**الأهم الوثبة:**

وأعاد السادات المثقفين والكتاب إلى مواقعهم قبل الحرب بأيام. وبعد العبور في العاشر من رمضان / السادس من أكتوبر 1973م، كتب توفيق الحكيم قائلا:

"عبرنا الهزيمة ..

عبرنا الهزيمة بعبورنا إلى سيناء ..

مهما تكن نتيجة المعارك فإن الأهم الوثبة ..

فيها المعنى أن مصر هي دائمًا مصر ..

تحسبها الدنيا قد نامت، ولكن روحها لا تنام ..

وإذا هجعت قليلا فإن لها هبَّة، ولها زمجرة، ثم قيام، وقد هبت مصر قليلا وزمجرت، ليدرك العالم ما تستطيع أن تفعل في لحظة من اللحظات، فلا ينخدع أحد في هدوئها وسكونها.

وكانت يدها التي بدرت منها حركة اليقظة هي جيشها المقدام بصيحة رئيسها الوطني بالقيام. سوف تذكر مصر في تاريخها هذه اللحظة بالشكر والفخر".

**رئيس حازم:**

لا ريب أن رد السادات على البيان بفصل الموقعين عليه من الاتحاد الاشتراكي – الذي لم يكن له قيمة حقيقية خارج ما يسمى باللجنة التنفيذية – ونقل بعضهم إلى أماكن أخرى بعيدًا عن الصحافة والثقافة، ثم إعادتهم قبيل حرب رمضان، عزز من موقع

السادات بوصفه رئيسًا حازمًا، وإن عمق ضغائن ورثة النظام الناصري عليه، سواء أكانوا من الشيوعيين أو الناصريين أو العلمانيين أو الانتهازيين، لدرجة أن من يكتبون المسلسلات والأفلام تجاهلوا دوره في حرب رمضان، وكان التجاهل فاضحًا وفاقعًا في مسلسلين كتبهما اثنان من ورثة الناصرية؛ الأول مسلسل ليالي الحلمية، والآخر مسلسل أم كلثوم. وهذه طبيعة اليساريين، لا يعرفون التسامح أو الموضوعية ولا يؤمنون بالحرية أو الديمقراطية.

### الأقلام المحجوبة:

في فترة العقاب التي فرضها السادات عليهم بعد البيان، انكسرت شوكتهم في الهيمنة على وسائل النشر إلى حد ما، وأتيح لأقلام محجوبة أن تظهر من جديد، مثل قلم الأستاذ جلال الدين الحمامصي الذي منع من الكتابة قرابة عقد من الزمان، وإن كان اسمه يتصدر جريدة الأخبار التي يرأس تحريرها. وأيضًا قلم الأستاذ رائد العطار مساعد رئيس تحرير الأهرام، وهناك أقلام أخرى ظهرت بعد اختفاء، أو عادت إلى مصر بعد ممارسة الكتابة في صحف لبنان.

### عودة الوعي:

ويذكر أن توفيق الحكيم كان قد أصدر في عام 1972 كتيبا عنوانه "عودة الوعي"، أثار ضجة كبيرة؛ بسبب انتقاده لتجربة يوليو في الحكم بقيادة جمال عبد الناصر، ورأى أن هذه التجربة التي بدأت في تصوره يوم الأربعاء 23 يوليو 1952 حتى يوم الأحد 23 يوليو 1973، تعد مرحلة فقدان الوعي بالنسبة للشعب المصري، فهي مرحلة لم تسمح بظهور رأي في العلن مخالف لرأي الزعيم المعبود. واعترف الحكيم في كتيّبه أنه أخطأ بمسيرته خلف الثورة بدون وعي قائلا:

" العجيب أن شخصًا مثلي محسوب على البلد هو من أهل الفكر، قد أدركته الثورة وهو في كهولته، يمكن أن ينساق أيضًا خلف الحماس العاطفي، ولا يخطر لي أن أفكر في حقيقة هذه الصورة التي كانت تصنع لنا، كانت الثقة فيما يبدو قد شلت التفكير. سحرونا ببريق آمال كنا نتطلع إليها من زمن بعيد، وأسكرونا بخمرة مكاسب وأمجاد،

فسكرنا حتى غاب عنا الوعي. اعتدنا هذا النوع من الحياة الذي جعلتنا فيه الثورة مجرد أجهزة استقبال"، ويتساءل: "كيف استطاع شخص مثلي أن يرى ذلك ويسمعه وألا يتأثر كثيرًا بما رأى وسمع، ويظل علي شعوره الطيب نحو عبد الناصر. أهو فقدان الوعي؟ أهي حالة غريبة من التخدير؟".

**فترة العقاب:**

ومع أن كتيب عودة الوعي كان يصب في مصلحة السادات؛ بحكم أنه يبدد الصورة الوردية للفترة الناصرية، ويهز الهالة التي يعيش الناصريون وأشباههم في داخلها - فإن فترة العقاب التي أنزلها السادات بالموقعين على البيان كانت قاسية عليهم، فلأول مرة تمتنع الصحف والمجلات عن نشر أخبارهم وصورهم، فضلا عن مقالاتهم وموضوعاتهم، كما اختفى صوتهم ورسمهم من الإذاعة والتلفزيون، وهم الذين كانت أجهزة الإعلام والصحف لا تتوقف عن استضافتهم، وتقديمهم للقراء والمستمعين والمشاهدين، وذاقوا لأول مرة ما ذاقه الذين همشوهم أو أقصوهم أمدًا طويلا من منابر النشر والتعبير.

**سرقة أدبية:**

وفي المجال الأدبي صدرت مجلة أدبية اسمها "الزهور" ملحقًا للمجلة العريقة "الهلال"، وعين لها مجلس تحرير مكون من أربعة أدباء هم يوسف الشاروني وعبد العزيز الدسوقي وعلاء الدين وحيد وأبو المعاطي أبو النجا. وفي هذه المجلة ظهرت أسماء شابة في القصة والشعر والمقالة والنقد والدراسة الأدبية. وأتيح لي أن أكتب فيها وأنشر عددًا من القصص والمقالات. وأذكر أنني اكتشفت سرقة أدبية، نشرت عنها في الزهور، وحظيت باهتمام أدبي في ذلك الحين. أرسل أحدهم قصة قصيرة جيدة كانت ضمن مواد عدد جديد من الزهور يوشك على الصدور، وقد أطلعني عليها سكرتير التحرير الأديب الراحل عبد العال الحمامصي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ليخبرني بموهبة جديدة تعرف عليها من خلال هذه القصة التي جاءته بالبريد. قرأت القصة، وتذكرت أنني قرأتها من قبل ضمن ما قرأت من قصص صديقي الأديب السوري المعروف فاضل السباعي.

في العدد التالي خصص عبد العال الحمامصي الباب الشهري الذي يحرره في الزهور لينشر ما كتبته عن السرقة الأدبية، ويستطلع رأي الأستاذ ثروت أباظة الذي فسر السرقة بأنها دليل على امتياز مؤلفها الحقيقي، وهو الأستاذ فاضل السباعي، وأصالته وجودة قصته، ولولا ذلك ما سرقها السارق، الذي اختفى تمامًا من الساحة الأدبية بعد اكتشاف جريمته.

**اتساع الظاهرة:**

مشكلة السرقات الأدبية قديمة، وكان لها بعد مختلف في البلاغة العربية، يختلف عن مفهوم السطو على عمل بأكمله أو جزء منه، ونسبته إلى شخص آخر (السارق) لم يتعب في تغيير جملة أو تحوير فكرة، ثم ينشره على الناس بلا خجل، بل يتقدم به لنيل درجة علمية أو الحصول على مكافأة مادية. في العصر الحديث - ومع تعدد منابر النشر على امتداد العالم العربي - اتسعت الظاهرة، وأخذت صورًا شتى، وقد تعرضتُ للسرقة من أناس لم أكن أتوقع أن يقترفوا هذه الجريمة، ويظنون أني لا أعلم بجريمتهم.

ومن أطرف ما وقع لي أن أحدهم سطا على كتابي "محمد ﷺ في الشعر العربي الحديث"، وأخذ منه ما راق له دون أن يشير إليَّ بكلمة، وزينه بالفصل الذي وضعته عن الشعراء النصارى، وما نظموه في نبينا الكريم ﷺ، ولم يدرك صاحبنا أن الشعر الذي نشرته في هذا الفصل ليس متاحًا معظمه للقراء بعد مرور وقت طويل على نشره في بلاد المهجر، وخفوت الحركة المهجرية، وموت كثير من أعلامها، وقد تعبت كثيرًا في الحصول على نصوصهم، ولولا ما قام به الأديب الكبير وديع فلسطين من مساعدة مخلصة في هذا المجال ما كنت حصلت على هذه النصوص. لقد كان الرجل ينسخ لي القصائد من جرائد ومجلات وكتب صدرت من زمن بعيد، ولا توجد في الغالب إلا عنده؛ بحكم علاقته الوثيقة بمعظم المهجريين، ثم يأتي السادة اللصوص ليتبجحوا بالتأليف المسروق، دون إشارة - ولو من باب ذر الرماد في العيون - إلى صاحب الفضل في الموضوع.

### خبرة في اللصوصية:

فجعت بأن أحدهم سطا على الفصل الخاص بالشعراء النصارى كله، وأصدره في كتاب مستقل، مستفيدًا بخبرته في اللصوصية الصحفية التي اعتاد عليها، حيث أعمل قلمه في النصوص والفقرات والعبارات تقسيمًا وتبديلا وتغييرًا، مع إضافات قليلة، وخرج على الناس بمؤلف مسروق دون أن يختلج له جفن!

الأكثر طرافة من كل ذلك أن بعضهم أخذ ينزع صفحات من الكتاب، يضع لها عناوين وينشرها مقالات في بعض المجلات الإسلامية دون أن يقرأ كتابًا واحدًا في الموضوع!

وما أكثر الرسائل العلمية التي كتبت في الموضوع وسطت على الكتاب، ونال أصحابها درجات علمية لا يستحقونها، والأمر لله من قبل ومن بعد!

لقد أصبحت هدفًا للصوص الأذكياء والأغبياء، وربما كان حيائي وسذاجتي وراء جرأتهم، التي تصل مع بعضهم إلى حد الوقاحة في السطو الجريء القبيح، ولأني لست منتسبًا إلى حزب أو جماعة أو شلة في مجال الإعلام والأدب، فلم أجد نصيرًا في مساعدتي على فضح اللصوص الذين يستبيحون الناس دون حياء أو خجل.

### تدهور خلقي:

ومهما يكن من أمر، فقد كانت السرقات مصدر حساسية بالنسبة لي، حيث صرت أتابعها، وأتعرف عليها في قراءاتي ومتابعاتي، بدءًا من الأخبار حتى الرسائل العلمية، مرورًا بالمقالات والقصائد والقصص والروايات والمسرحيات، وقد اكتشفت كثيرًا من الحالات التي تدل على تدهور خلقي وعلمي وثقافي.

### طبيعة الفلاح:

أتاحت لي الإجازات فرصة الاحتكاك بالوسط الصحفي في ذلك الحين - إلى حد ما. عرفت عددًا لا بأس به من الصحفيين والكتاب والأدباء والشعراء، وكنت أزورهم في مكاتبهم، وأرى طبيعة تعاملاتهم، ولكن طبيعة الفلاح كانت تجعلني أشعر بالغربة إزاء

كثير منهم، ومع ذلك فقد حظيت باحترامهم وتقديرهم، ولم يشفع لي ذلك في نشر كل ما أكتب؛ حيث كان النشر في لبنان يغنيني عن الإلحاح على بعضهم كي ينشروا ما أكتبه!

ولا ريب أن المرحلة السابقة على حرب رمضان كانت ثقيلة وقاسية وتضغط على الصدور والنفوس، ولم تكن المذكرة أو البيان الذي وقعه الحكيم ومجموعة المثقفين نابعًا من فراغ، وإنما نبع من إحساس قوي بالمذلة وشعور حاد بالمهانة؛ نتيجة الهزيمة المريرة والانتظار الطويل لمواجهة العدو!

### ويل للمهزوم:

كانت هناك محاولات من السادات للوصول إلى حلول سلمية دون خوض القتال، ولكن العالم لا يصغي عادة للمهزومين. إنه يفرض عليهم ما يريده المنتصر، وهناك مقولة شهيرة: "ويل للمهزوم!".

كان الوضع بالنسبة لنا نحن المهزومين سيئًا للغاية فالاتحاد السوفيتي لا يفي بوعوده بإرسال الأسلحة الروسية منذ عام 1971 الذي وصفه السادات عام الحسم دون أن يصل فيه إلى حسم بسبب الضباب!، وما حدث في عام 1971 حدث مثله في عام 1972؛ بسبب عدم وفاء السوفيت بوعودهم بإرسال السلاح، ولعل هذا كان من وراء إنهاء السادات وجود الخبراء السوفيت في مصر يوم 8 يوليو 1972، وكان واضحًا أن السوفيت يعارضون فكرة الحرب، ولا يؤيدون أو يشجعون قيام المصريين بالهجوم على قوات الاحتلال في عام 1971 وحتى نهايته لاسترداد سيناء، كما يقول الفريق محمد عبد الغني الجمسي في مذكراته عن الحرب.

### خلاف مع السوفيت:

كان الاجتماع الأول للرئيس السادات بوصفه رئيسًا للجمهورية مع القادة السوفيت في مارس 1971 بموسكو، نتج عنه خلاف بين وجهتي النظر المصرية والسوفيتية بخصوص التسليح. وقال السادات لهم، طبقًا لروايته في المجلس الأعلى للقوات المسلحة، كما يقول الجمسي: "قلت إنكم خلتوني وراء إسرائيل بخطوتين .. أنا معتدى عليَّ .. ومع ذلك لا أطلب التفوق على إسرائيل، ولكن أطلب المساواة .. وهنا كان الخلاف".

وجاء عام 1972، وأصبح واضحًا أن المحتلين لن يتحركوا لتغيير موقفهم سياسيًّا إلا إذا شعروا بأن قوتنا العسكرية أصبحت قادرة على خوض الحرب ضدهم. ومن هنا كان الخلاف مستمرًّا بين مصر والاتحاد السوفيتي بخصوص التسليح، ووصلت العلاقات بين الدولتين إلى أسوأ حالة في يوليو 1972، عندما قرر الرئيس السادات إنهاء مهمة المستشارين السوفيت (راجع: مذكرات الجمسي: حرب أكتوبر 1973، الطبعة الثانية عام 1998).

### تبريد الجبهة:

كان عام 1972 قد شهد عددًا من التغيرات على المستوى العالمي والمستوى المحلي، فقد عين في أول العام النمساوي كورت فالد هايم أمينًا عامًّا للأمم المتحدة، خلفًا ليو ثانت، كما عين اللواء محمد عبد الغني الجمسي رئيسًا لهيئة العمليات للقوات المسلحة المصرية. وانعقدت في شهر مايو قمة موسكو بين الرئيسين الأمريكي والسوفيتي، في إطار إستراتيجية سياسة الوفاق، وكانت تعني - ضمنًا - تبريد الجبهة المصرية، وعدم السماح بإشعالها ثانية، بعد اتفاق وقف إطلاق النار الساري منذ عهد جمال عبد الناصر. وقد أنهى السادات مهمة المستشارين السوفيت في مصر وترحيلهم - كما سبقت الإشارة - بسبب وقف تزويد الجيش المصري بالسلاح.

تبع ذلك بعض التغييرات في قيادة القوات المسلحة، فقد جاء شهر أكتوبر ليشهد عزل الفريق صادق وزير الحربية وإحلال اللواء أحمد إسماعيل علي مكانه ، وإحالة الفريق عبد القادر حسن، نائب وزير الحربية للتقاعد، وعزل قائد القوات البحرية المصري، الفريق محمود عبد الرحمن فهمي.

### ماذا بعد ؟

كان الإحساس العام بالقلق يملأ الشعب، وكان السؤال: ماذا بعد؟ وإلى متى تستمر هذه الحال التي يتم فيها شد الأعصاب دون أن يظهر ضوء في آخر النفق كما يقال؟

يريد الناس إجابة مريحة. والإجابة في هذا الوقت لا تُصدق حتى لو كانت صادقة، والذهاب إلى الحرب لا يعني أن تعلن ساعة الصفر على الناس، وهناك أزمة ثقة فيما يقوله

الحكام، وخاصة منذ حكاية الحسم وتفسيرها بالضباب، ووضع القوات الصعب بين مطرقة الاحتلال وسندان التخاذل السوفيتي عن تزويدها بالسلاح المطلوب. ثم هناك مئات الألوف من شباب الأمة في الملاجئ والخنادق والخيام على امتداد الجبهة ومدن الجمهورية، ينتظرون الذي يأتي ولا يأتي، وترتبط بهم عشرات الآلاف من الأسر، ومئات المصانع، وآلاف المدارس، ومصالح لا تعد ولا تحصى .. لا راحة ولا أمل .. كل شيء غامض ومثير للقلق واليأس!

**النتيجة صفر:**

مع بدايات عام **1973**، راحت مصر تبذل نشاطًا سياسيًّا مكثفًا، وتتصل بالدول الخمس الكبرى دائمة العضوية في مجلس الأمن، لعل وعسى أن تصل إلى شيء وتسترد سيناء المحتلة، ولكن النتيجة كانت صفرًا، ولعل السادات كان يتخذ من هذه الاتصالات غير المجدية نوعًا من التمويه أو الخداع الإستراتيجي، فقد كان الشعور العام في مصر والعالم العربي أن السادات لن يحارب، وأن ما يجري على الساحة السياسية - في أفضل الحالات - ما هو إلا حالة من حالات إزجاء الفراغ وشغل الناس. وكان معروفًا لدى العرب جميعًا - باستثناء الحكومات - أن الدول الكبرى لن تعطيهم شيئًا، ولن تحقق لهم مصلحة أو غاية، سواء أكانت هذه الدول في الغرب أو الشرق، فكلها تبيع كلامًا لا يسمن ولا يغني من جوع، وربما لا يتعامل بعضها بمثل هذا الكلام توفيرًا لوقتها، وتقول كلامًا صادمًا وفاجعًا مثل الولايات المتحدة، التي تنحاز إلى العدو انحيازًا صريحًا وواضحًا، وتقف إلى جانبه في الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي والمؤتمرات العالمية.

**مجلس الأمن:**

على سبيل المثال، طلبت مصر في**6** يونيه **1973** انعقاد مجلس الأمن لبحث مشكلة الشرق الأوسط، وتقديم تقرير عن مهمة السفير جونار يارنج ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة منذ نوفمبر **1967** حتى انعقاد المجلس في يوليو **1973**. وفي **26** يوليو **1973** تم التصويت على مشروع القرار الذي تقدمت به مجموعة دول عدم الانحياز، وصوتت أربع

عشرة دولة في المجلس لصالح القرار، الذي يدين استمرار احتلال العدو للأراضي العربية. وكانت أمريكا هي الدولة الوحيدة التي عارضته وأسقطته باستخدام حق الفيتو!

وسبق اجتماع مجلس الأمن مؤتمر قمة في واشنطن بين الرئيسين الأمريكي والسوفيتي، في إطار سياسة الوفاق. وهي سياسة تصب – كما سبقت الإشارة - في تبريد الجبهة، وعدم السماح باشتعالها مرة أخرى من جانب المصريين.

**إنكم مهزومون:**

ولأن المهزوم لا يجد صدرًا حنونًا في العادة، فقد ذكر السادات في كتابه البحث عن الذات، أن محمد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي المصري، التقى مع الدكتور هنري كسنجر مستشار الأمن القومي الأمريكي مرتين في عام **1973**؛ مرة بباريس، ومرة بالولايات المتحدة الأمريكية، وقال كيسنجر: "نصيحتي للسادات أن يكون واقعيًّا، فنحن نعيش في عالم الواقع، ولا نستطيع أن نبني شيئًا على الأماني والتخيلات. والواقع أنكم مهزومون، فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر. لابد أن تكون هناك بعض التنازلات من جانبكم؛ حتى تستطيع أميركا أن تساعدكم .. فكيف يتسنى وأنتم في موقف المهزوم أن تملوا شروطكم على الطرف الآخر؛ إما أن تغيروا الواقع الذي تعيشونه، فيتغير بالتبعية تناولنا للحل، وإما أنكم لا تستطيعون، وفي هذه الحالة لابد من إيجاد حلول تتناسب مع موقفكم غير الحلول التي تعرضونها .. وأرجو أن يكون معنى ما أقوله واضحًا .. فلست أدعو السادات إطلاقا إلى تغيير الوضع العسكري؛ لو حاول ذلك، فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخرى أشد مما انتصرت في عام **1967**، وفى هذه الحالة يصعب علينا أن نعمل أي شيء، وسوف تكون هذه خسارة كبيرة لمصر وللسادات شخصيًّا، وهو رجل أحب أن أتعامل معه في يوم ما". ويستطرد السادات ويقول: "كان هذا كلام كسنجر في فبراير وأبريل **1973**، فقلت في نفسي لا فائدة ترجى من الأمريكان، فقد استولت عليهم إسرائيل، وما زالت السياسة التي وضعها جونسون لأمريكا تفضل مصالح إسرائيل على مصالح أمريكا نفسها. وكما يقول رجل الشارع عندنا في مصر: إسرائيل هي الحارس الوحيد على مصالح أمريكا في الشرق الأوسط .. هذا ما جعلت من نفسها، أو هكذا

جعلتها أمريكا، والنتيجة في كلتا الحالتين واحدة، وهي أنه لا أمل في تحقيق السلام عن طريق أمريكا ما دامت إسرائيل لا تريد السلام".

**ماء الوجه:**

وكلام كيسنجر واضح ولا يحتاج إلى تأويل، فهو يدعو إلى الاستسلام الصريح للاحتلال والقبول بشروطه (أو ما يسميه بالتنازلات)؛ لأنه منتصر، وعدم محاربته؛ لأنه سينتصر مرة أخرى انتصارًا ساحقًا، وساعتها لن يكون هناك مجال حتى للاستسلام أو التنازلات، فضلا عن المفاوضات!

ومحاولة السادات تفسير موقف كيسنجر بسيطرة العدو على أمريكا، أو تفضيلها مصالحه على مصالحها هو نوع من حفظ ماء الوجه، فلم يكن يود أن يقول إن المهزومين لا يصغي إليهم أحد!

الإحساس بالهم الثقيل يجثم على صدور المصريين خاصة والعرب عامة، وبدا استجداء الانسحاب عملا عبثيًّا، ويسميه اليهود والأمريكان فرض شروط للمهزوم على المنتصر. وكأن جريمة العدوان على مصر والعرب حق مشروع للغزاة لا يردعهم عنه قانون ولا جيوش!

**شعر المقاومة:**

في تلك الفترة ازدهر ما سمي بشعر المقاومة الفلسطيني. في أواسط الستينيات وقبيل الهزيمة في عام **1967** كان الكاتب الفلسطيني الشيوعي غسان كنفاني يكتب في إحدى الصحف اللبنانية الشيوعية، واسمها "الحرية"، وتصدر أسبوعيًّا في بيروت، وكنت أشتريها كلما ذهبت إلى الإسكندرية مع صحف ومجلات أخرى، وكان كنفاني ينشر بها قصائد لشعراء الأرض المحتلة (فلسطين **1948**)، تحمل روح المقاومة والاعتزاز بالانتماء العربي. لم يكن العرب خارج ما يسمى الخط الأخضر يعرفون عنهم شيئًا، وتولى غسان نشر إنتاجهم، والتعريف بهم في صحيفته والصحف اللبنانية الأخرى، وكانت الصحف العربية في مصر وسورية والعراق وغيرها تنقل عن صحف بيروت ما ينظمه هؤلاء الشعراء.

وجد شعر المقاومة صدى كبيرًا في مصر والعالم العربي، وبدأت الصحف تلتفت إليه وتقارن بينه وبين شعر المنفى الفلسطيني، واشتهر عدد منهم لدى الأدباء ومحبي الأدب، ولأن معظم هؤلاء الشعراء كانوا يعملون من خلال الحزب الشيوعي الصهيوني (راكاح)؛ فإن الرفاق الشيوعيين وأشباههم في البلاد العربية وسعوا من دائرة الدعاية لهم، ورفعهم فوق شعراء العالم العربي، مع أن بعضهم كان متوسط الموهبة، ولكن عواطف الشعب العربي التي تتوق إلى صوت يعبر عن رفض الاحتلال ومقاومته، والصراخ بما في الأعماق من رغبة عارمة في مواجهة العدو والثأر منه، تقبلت المبالغة في الحفاوة بهؤلاء الشعراء، وبالصوت القادم من أعماق فلسطين المحتلة. وما بالك بمن يهتف بشعره قائلا:

**سجل أنا عربي**

**سجل ..**

**أنا عربي ..**

**أنا اسم بلا لقب ..**

**صبور في بلاد كل ما فيها ..**

**يعيش بفورة الغضب ..**

**جذوري ..**

**قبل ميلاد الزمان رست ..**

**وقبل تفتح الحقب ..**

**وقبل السرو والزيتون ..**

**وقبل ترعرع العشب ..**

**أبي من أسرة المحراث لا من سادة نجب ..**

**وجدي كان فلاحًا بلا حسب .. ولا نسب ..**

**يعلمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتب ..**

ويبني كوخ ناطور من الأعواد والقصب ..

فلا ترضيك منزلتي؟

أنا اسم بلا لقب!

سجل .. أنا عربي ..

أو من يقول:

**أبوس الأرض:**

أناديكم ..

أشد على أياديكم ..

أبوس الأرض تحت نعالكم ..

وأقول: أفديكم

وأهديكم ضيا عيني ..

ودفء القلب أعطيكم ..

فمأساتي التي أحيا ..

نصيبي من مآسيكم ..

أناديكم ..

أشد على أياديكم ..

أنا ما هنت في وطني ولا صغرت أكتافي ..

وقفت بوجه ظلامي ..

يتيمًا، عاريًا، حافي ..

حملت دمي على كفي ..

**وما نكست أعلامي ..**

**وصنت العشب فوق قبور أسلافي ..**

**أناديكم .. أشد على أياديكم!!**

**الحب القاسي:**

لاشك أن النكهة الجديدة في هذا الشعر استقطبت جماهير عريضة من محبي الشعر في العالم العربي، دون أن يعنيهم الالتفات إلى الخلفية الأيديولوجية لأصحاب هذا الشعر من شعراء الأرض المحتلة، وأغدق النقاد والأدباء والصحفيون والإعلاميون كثيرًا من المشاعر الدافئة والعواطف الحانية على هؤلاء الشعراء، لدرجة أن بعضهم كتب من داخل فلسطين السليبة يقول: ارحمونا من هذا الحب القاسي!

ولم تلبث الأمور أن دفعت ببعض هؤلاء الشعراء إلى مغادرة الأرض المحتلة، وانتقل أشهرهم إلى بيروت والقاهرة، وعين بعضهم في كبريات الصحف المصرية والعربية، بالإضافة إلى أنهم وجدوا حفاوة غير مسبوقة في المنتديات الأدبية والثقافية في العواصم العربية.

**يوم الأرض:**

كنت قبيل التجنيد قد بدأت أهتم بشعر المقاومة وأكتب عنه، واستطعت مع نهاية عام **1973** أن أعد كتابًا يعد من أوائل الكتب التي تناولت شعر المقاومة، نشرتُ أجزاء منه في بعض المجلات الأدبية، وحين أعلن المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عن مسابقة البحث في شعر المقاومة الفلسطينية بمناسبة يوم الأرض عام **1974**، تقدمت به وكنت الفائز الأول وحصلت على الجائزة.

وللأسف الشديد عرضت الكتاب على بعض دور النشر لطبعه، ولكنها لم تطبعه ولم تُعد أصوله إليَّ، فضاع الكتاب، وكانت تجربة لم أفد منها؛ لأنها تكررت في كتاب آخر لم يكن لدي نسخة من أصوله، فضاع أيضًا، وكان عن الأديب السوري عبد السلام العجيلي، وقد أشرت إلى هذه التجربة في موضع آخر من هذه السيرة.

**الإحساس باليأس:**

كانت رغبة الناس في المقاومة قوية، ولكن الإحساس باليأس كان واضحًا؛ بسبب ما يرونه على أرض الواقع من كلام مكرور متشابه، لا ظل له من الصدق، ومن وعود لا تتحقق أبدًا، ومع كل عام يضم الجيش إلى صفوفه أعدادًا كبيرة من المجندين ولا ضوء في نهاية النفق. وقد كتبت عددًا من القصص القصيرة، عبرت عن هذه الحالة، نشرتها في حينه بمجلة الأديب.

اشتاق الناس ليتغير شكل الزجاج الأزرق في نوافذ البيوت والمؤسسات والأبنية العامة، وإزالة الحوائط التي بنيت أمام العمارات والمنازل، وهي بعض تعليمات الدفاع المدني داخل المدن، يضاف إليها عمليات التدريب للموظفين المدنيين؛ كي يسهموا في مواجهة الغارات الجوية وآثارها، وإخلاء المصابين وإسعافهم.

**التوجيه الإستراتيجي:**

في آخر شهر سبتمبر عام **1973**، دعا الرئيس السادات إلى اجتماع طارئ للوزارات الرئيسة، ولم يكترث الناس به، فكم من اجتماعات عُقدت، وكانت المحصلة صفرًا. بعد هذا الاجتماع بيوم واحد وفي أول أكتوبر انعقد مجلس الحرب الصهيوني برئاسة جولدا مائير رئيسة وزراء العدو، وقرر استحالة قيام العرب بحرب ضد الكيان الصهيوني الغاصب!

ولكنهم ومعهم المصريون والعرب والعالم لم يعلموا أنه في الوقت ذاته الذي قرر فيه الصهاينة استحالة وقوع الحرب، كان الرئيس السادات يصدر التوجيه الإستراتيجي الأول للقوات المسلحة بمهامها وتقديره للموقف؛ مما يعني الاستعداد العملي لشن الحرب.

ومع ذلك قررت الاستخبارات العسكرية للعدو في الرابع من أكتوبر أن الحشود في سورية ومصر تتم في إطار المناورات العسكرية المعتادة. ولم تعلم هذه الاستخبارات أن إخطار قادة الجيوش في مصر، بموعد بدء المعركة قد تم في اليوم ذاته.

**قوات الصاعقة:**

وفي الخامس من أكتوبر أصدر الرئيس السادات التوجيه الإستراتيجي الثاني للقوات المسلحة، وقيامها بكسر الجمود بعمل عسكري، واسترداد الأرض دون أن يعلم أحد غير المعنيين بالأمر. كما عبرت في اليوم ذاته قوات الصاعقة المصرية إلى الشرق، حيث قامت بسد أنابيب النفط والنابالم التي نصبها العدو في المجرى المائي لقناة السويس، والانتشار على المحاور.

في اليوم الخامس من أكتوبر، كنت في إجازة طويلة لأول مرة منذ فترة طويلة، وكنا في شهر رمضان، وكان الإفطار مع الأسرة في رمضان له مذاق خاص، وكنت أمني نفسي بقضاء أيام طيبة مع أبي وأمي، وأستمتع بلقاء الأصدقاء، وصلاة التراويح والفجر في المسجد.

**مفاجأة مذهلة:**

لكن جاء يوم العاشر من رمضان **1993** هـ، السادس من أكتوبر **1973** بالمفاجأة التي لم يتوقعها أحد .. كان عبور القوات المسلحة إلى الضفة الشرقية وتحطيم خط بارليف وكان الإعلام المصري يتكلم – ربما لأول مرة - بهدوء، ويذيع بيانات قليلة. وذهل العالم!

***

## 5 - الفرحة والبطولة!

### ساعة فارقة:

في البداية لم يصدق أحد أن الجيش المصري فعلها وأخلف كل الظنون. أول مرة في التاريخ الحديث منذ عهد محمد علي يبدأ بالهجوم، وهو الذي ظل سنوات طوالا يتلقى الهجمات، ويطلب منه الانسحاب أمام الأعداء. في هذه المرة تحدى العوائق والموانع والصعاب وعدم التكافؤ، وجعل العدو في موقع الدفاع لأول مرة.

صارت الساعة الثانية ظهرًا يوم السبت العاشر من رمضان المعظم 1993هـ، الموافق السادس من أكتوبر 1973م، ساعة فارقة في التاريخ المعاصر. أبصار العالم وآذانه شُدت نحو قناة السويس، ترقب وتسمع ما يجري هناك من ملحمة قتالية غير مسبوقة.

كنت في القرية أقضي إجازة هادئة، وأستمتع مع الأسرة بأيام في رمضان لم يمض منها غير يوم واحد، ولم أدر ماذا أفعل بعد أن سمعت أنباء القتال.

أفطرت وقضيت الليل شبه يقظ: الراديو تحت أذني لا يفارقني، كنت أفكر: هل أسافر وأقطع الإجازة، أو أنتظر حتى يأتيني استدعاء من الوحدة؟

### لحظة كنت أنتظرها:

وكان قراري هو السفر بعد السحور وقطع الإجازة، هذه هي اللحظة التي كنت أنتظرها وأرجوها منذ سنوات. كل الشعب كان يترقبها ويتمناها. صليت الفجر وارتديت ملابسي العسكرية وسافرت. لاحظت أن الناس لأول مرة ترحب بالعساكر الذين يرتدون الزي العسكري .. كنا سابقًا نضعه في الحقائب، ونرتديه قبل الدخول إلى الوحدة .. السائقون في نخوة غير مسبوقة يوفرون أماكن للجنود، وبعضهم يرفض أن يتقاضى منهم أجرة .. كمسارية القطار يمرون على العساكر دون أن يسألوهم عن التذاكر .. وجوه الناس تعلوها ابتسامات عندما يرون جنديًّا أو مجموعة من الجنود .. وقد يهتف بعضهم بالدعاء: ربنا معاكم. مشاهد غير مسبوقة منذ زمن الهزيمة والانكسار.

وصلت القيادة، واستقبلني الزملاء بالأحضان، مع أني لم أغب عنهم إلا يومين فقط، ولكنهم كانوا سعداء بما يجري على الجبهة، وبعضهم يريد أن ينتقل إلى هناك؛ فالفرحة تغمرهم، وانتظار المجهول أخذ يتبدد أمام مواجهة المعلوم. بعد فترة لاحظت وجومًا غير عادي، سألت فعرفت أننا في الوحدة فقدنا بالأمس - يوم بداية القتال مع العدو - ما يقرب من عشرين جنديًّا في غير معركة! كيف؟!

## خسارة في غير معركة:

كانت إحدى سيارات النقل العسكرية التابعة للقيادة تتجه نحو الإسكندرية، وعلى ظهرها عدد كبير من العساكر، معظمهم من القدامى (المستبقين)، في مهمة خاصة بالوحدة. كان السائق يمضي على الطريق السريع المليء بالمنحنيات التي تعلو وتنخفض. كان الجنود كعادتهم يجلسون على حواف الصندوق الذي يرتفع على جانبي السيارة ومؤخرتها، ويبدو أن كثرة الاهتزاز مع السرعة جعلت أجزاء الصندوق تنفصل عن بعضها فسقط الجنود جميعًا على الأرض، وجاءت السيارات السريعة القادمة من الخلف فداست على الجنود وهم رقود في نهر الطريق لا يقدرون على الحركة، ولم ينج من الموت إلا اثنان فيما أذكر، وكانت إصابتهما شديدة، وعاشا بعاهات مستديمة.

حزنت على الراحلين وأسفت للمصابين، وتأملت في الحكمة الإلهية التي قضت أن تكون نسبة خسائر وحدتنا دون قتال أكبر من نسبة خسائر الوحدات المقاتلة على الجبهة.

## خطأ غير مقصود:

ويبدو أنني شخصيًّا كنت سألحق بهم نتيجة خطأ غير مقصود. اجتمع في مكتب رئيس العمليات عدد من الضباط والجنود لمناقشة مشكلة طارئة لا أذكرها الآن، وكانوا يفحصون إحدى البنادق، وقد ضغط أحدهم على الزناد على أساس أن البندقية فارغة من الرصاص، فإذا برصاصة تنطلق وتمر بجوار أذني مباشرة، وأنا في الصالة خارج المكتب، لو تحركت سنتيمترًا واحدًا كنت لحقت بضحايا السيارة، ولكن الله سلم. كنت أقف أمام نافذة المكتب الواسعة، مستندًا على السور الذي يطل على الفناء الواسع أمام مبنى القيادة،

فعبرت الرصاصة في فضاء فسيح، وكادت ترديني. حمدت الله على السلامة، هذه هي المرة الثانية التي أنجو فيها من موت مؤكد أو شبه مؤكد؛ الأولى أشرت إليها وكانت في طفولتي حين تم اختطافي بمعرفة مجهولين، وكادوا يقتلونني لولا لطف الله الذي أنقذني من بين أيديهم. المرة الثالثة سأتحدث عنها فيما بعد إذا شاء الله .. فقط أشير إلى أن الموت ليس في ميدان القتال وحده، ولكنه في كل مكان، فالأعمار بيد الله، والأجل محدود، لا يتقدم ولا يتأخر، وإن تعددت الأسباب.

**صور الراحلين:**

قضيت أيامًا عديدة في كتابة مجالس التحقيق الخاصة بالوفيات أو الإصابات عمومًا. كل جندي متوفى أو مصاب له ملف به أوراق تحقيق ونموذج خاص يدون فيه قرار المجلس، يرسل بعد إعداده وتوقيعات الضباط المسئولين والقائد إلى القضاء العسكري؛ للنظر فيه وإصدار الحكم الذي يترتب عليه استحقاقات ورثة المتوفين المادية.

كان الحادث مؤلمًا، خاصة مع وصول الجثامين إلى أهاليهم وذويهم بصحبة زملائهم الذين ذهبوا في مأموريات التسليم!

ظلت صور الراحلين تتراءى لي لفترة طويلة، ولكن الانشغال بما يجري، والتعليمات التي تترى، والبيانات التي تصل تباعًا شغلتنا وأنستنا الحادثة المفجعة!

**المرور في ميدان التحرير:**

كان العالم مذهولا، وأضحى منبهرًا بالأداء العسكري المصري على الجبهة، وخاصة طريقة العبور وتحطيم خط بارليف. كان الجنود يمدون الكباري على القناة، ويعبرون عليها بدقة وبسهولة وتدفق؛ لدرجة أن بعض المحللين أشار إلى أن المرور فوق قناة السويس كان أيسر وأكثر انتظاما من المرور في ميدان التحرير بمدينة القاهرة.

لاحظت أن الأغاني التي تبثها الإذاعة والتلفزيون في هذه الحرب كانت مختلفة تمامًا عن الأغاني التي أعدت في حرب **1967**، التي انتهت بهزيمة منكرة. كانت أغاني حرب العبور في رمضان تبدو عميقة، ومن القلب، وتصل إلى القلب مباشرة، وتشجع على

الجهاد والقتال. سمعنا مثلا أغنية "سمّينا وعدّينا" التي بدت تعبيرًا شعبيًّا بسيطًا، يبرز الإيمان والإخلاص والصبر في الميدان:

**سمينا وعدينا وإيد المولى ساعدتنا ..**

**جمعنا كل قوتنا .. وساندتنا عروبتنا ..**

**وسمّينا .. وعدّينا .. وإيد المولى ساعدتنا ..**

**سمّينا .. وعدّينا .. شقينا طريق النصر ..**

**وإيد المولى ساعدتنا .. رجّعنا ابتسامة مصر!**

**خيوط الفجر بتنوّر .. و كل الشعب بيكّبر ..**

**وفي رمضان وبالإيمان .. أراضينا بتتحرّر !**

**وسمّينا .. وعدّينا .. شقينا طريق النصر ..**

**وإيد المولى ساعدتنا .. رجّعنا ابتسامة مصر!**

والأغنية من كلمات الشاعرة علية الجعّار، ومن تلحين الموسيقي عبد العظيم محمد، ومن غناء المطربة شهرزاد – رحمهم الله جميعًا.

**باسم اللّه:**

وكانت هناك أغنية أخرى جماعية، كتبها ولحنها بليغ حمدي، وكان لها صدى في وجدان الشعب والجيش معًا، وهي أغنية الله أكبر - باسم الله:

**باسم الله .. الله أكبر  باسم الله باسم الله**

**باسم الله .. أذّن وكبّر  باسم الله باسم الله**

**باسم الله .. الله أكبر  باسم الله باسم الله**

**باسم الله .. أذن وكبر  باسم الله باسم الله**

**نصرة لبلدنا باسم الله باسم الله**

بإدين ولادنا باسم الله باسم الله
وأدان على المدنه باسم الله باسم الله
بيحيي جهادنا باسم الله باسم الله
الله أكبر أذّن وكبّر
الله أكبر أذن وكبر
وقول يا رب النصرة تكبر
باسم الله .. الله أكبر باسم الله باسم الله
باسم الله .. أذن وكبر باسم الله بسم الله
باسم الله .. الله أكبر باسم الله باسم الله
باسم الله .. أذن وكبر بسم الله بسم الله
بكفاحنا يا مصر .. باسم الله باسم الله
تاريخ النصر .. باسم الله باسم الله
جنود الشعب .. باسم الله باسم الله
بتخطى الصعب .. باسم الله باسم الله
الله أكبر .. أذن وكبر
الله أكبر .. أذن وكبر
وقول يا رب النصرة تكبر
باسم الله .. الله أكبر باسم الله باسم الله
باسم الله .. أذن وكبر باسم الله باسم الله
باسم الله .. الله أكبر باسم الله باسم الله

**باسم الله .. أذن وكبر باسم الله باسم الله**

**سينا يا سينا .. باسم الله باسم الله**

**أدينا عدينا .. باسم الله باسم الله**

**ما قدروا علينا .. باسم الله باسم الله**

**جنود أعادينا .. باسم الله باسم الله**

**الله أكبر .. أذن وكبر**

**الله أكبر .. أذن وكبر**

**وقول يا رب .. النصرة تكبر.**

وكانت هناك أغنيات أخرى عديدة، تفاوتت في مستواها وأدائها، ولكنها جميعًا كانت تهز وجدان المصريين في الجبهة وما وراءها، وتحرك مشاعر الوطن العربي والإسلامي؛ لأنها كانت في معظمها مفعمة بالإخلاص وحب الوطن.

**عبور .. ومهمة:**

لقد عبر اللواء 130 مشاة آلي خاص ذاتيًّا من البحيرات المرة في اليوم الأول للقتال، وتم دفع مزيد من عناصر الصاعقة المصرية إلى عمق سيناء، وأخذت الفرقة 18 مشاة تحاصر مدينة القنطرة شرق، وجرى تحقيق المهمة المباشرة لألوية نسق أول بعمق 4 ـ 5 كم من القناة.

في اليوم الثاني 7 أكتوبر، صار التقدم ببطء، والوصول إلى المهمة المباشرة لفرق نسق أول (5 ـ 8 كم)، مع توسيع رءوس الكباري في الشرق. وتم إنشاء أول كوبري (خفيف) للفرقة 19 المشاة، واستطاعت القوات تحرير مدينة القنطرة شرق.

وفي اليوم الثاني نفسه أرسل حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي إلى كسنجر - بناء على تعليمات من السادات - يخبره أن مصر لن تزيد من العمق في القتال. ولعل ذلك كان مناورة من السادات؛ لعدم استفزاز أمريكا، وإتاحة الفرصة للقوات كي تعمل في وضع

أفضل، وفي النهاية يضع العدو أمام أمر واقع، حيث تتقدم القوات، وتحقق مكاسب كبيرة على الأرض.

وفي اليوم الثالث تم إنشاء أول كوبري (ثقيل) للفرقة 19 مشاة. وقد استشهد نائب مدير سلاح المهندسين العسكريين العميد أحمد حمدي، المسئول عن الكباري، الذي يحمل اسمه الآن نفق قناة السويس، واستطاعت القوات المصرية الاستيلاء على 17 نقطة قوية لخط بارليف، وتوحيد رءوس كباري فرق المشاة بعمق 8 ـ 10 كم، وتحقيق المهمة التالية للفرق.

### عساف ياجوري:

في هذا اليوم الثالث (8 من أكتوبر) وصلت الاحتياطيات الإستراتيجية المدرعة اليهودية لميدان القتال، وشنت ضربات مضادة قوية وحدثت معركة الفردان، وجرى أسر الكولونيل عساف ياجوري، الذي عرضت صوره مع الأسرى اليهود على شاشة التلفزيون.

وفي اليوم الرابع 9 أكتوبر، تم تحقيق المهمة المباشرة للجيوش (12 ـ 15 كم)، وتوحيد رءوس كباري الجيوش، والاستيلاء على النقط القوية في رأس كوبري الفرقة 16 مشاة (تل سلام ـ الدفرسوار)، وسيطرتها على جبل المر. وقامت الفرقة 7 مشاة بالاستيلاء على النقطة القوية في كبريت.

وكان اليهود في هذا اليوم قد بدءوا يركزون جهدهم الرئيس على الجبهة السورية، وأخذت طائراتهم تقصف العاصمة السورية دمشق بالطائرات، بينما استطاعت الفرقة 19 مشاة المصرية أن تستولي على عيون موسى في العاشر من أكتوبر، وجرت فيه معركة اللواء الأول المشاة الآلي. ومنذ هذا اليوم حتى يوم 13 من أكتوبر توقفت القوات المصرية، وأنشأت دفاعات عاجلة، فيما سمي (الوقفة العملياتية).

### عملية الغزالة:

وكان العدو في يوم 12 أكتوبر قد صدق من خلال مجلس وزرائه على البدء في عملية "الغزالة" للعبور غرب القناة، التي عرفت إعلاميًّا باسم الثغرة، بينما كان الرئيس

السادات يأمر في اليوم نفسه بتطوير هجوم القوات المصرية شرقًا؛ لتخفيف الضغط على الجبهة السورية، وهو ما حدث في يومي14 ـ 15 أكتوبر.

وقد فصّل الفريق سعد الدين الشاذلي والفريق الجمسي وقادة آخرون تفاصيل ما جرى منذ الساعة الثانية ظهر العاشر من رمضان - السادس من أكتوبر حتى هذه اللحظة الفارقة التي بدأ فيها العدو يعمل على العبور إلى غرب القناة، بينما الجيش المصري يطور هجومه شرقًا؛ من أجل تخفيف الضغط على القوات السورية.

ويعزى التخطيط الجيد للمعركة إلى الفريق سعد محمد الحسيني الشاذلي (1922 - 2011)، الذي عينه الرئيس محمد أنور السادات رئيسًا لهيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية في الفترة ما بين 16 مايو 1971 وحتى 13 ديسمبر 1973. والشاذلي مؤسس أول فرقة سلاح مظلات في مصر وقائدها، وأمين عام مساعد جامعة الدول العربية للشئون العسكرية، ويعد من أهم أعلام العسكرية العربية المعاصرة. وأول قائد عربي عسكري يقود العرب إلى النصر في العصر الحديث.

### الحرفية العسكرية:

وقد لمست بوصفي مجندًا مدى اهتمام الشاذلي بالحرفية العسكرية، وفرض الانضباط على أفراد القوات المسلحة جميعًا، بدءًا من كبار الضباط حتى الجنود الصغار، فعلى سبيل المثال فرض على الضباط عدم مغادرة المعسكرات إلا بتصريح من القيادة، وهو ما لم يكن سائدًا من قبل؛ حيث كان الضابط يستأذن شفويًّا، ويمضي إلى حيث يريد، ولا يعارضه خارج المعسكر أحد من شرطة عسكرية أو غيرها، كما وزع كتيبات لتعليم الأفراد كيف يواجهون الصعوبات الميدانية التي تتعلق بحياتهم وشئونهم الخاصة، وكيف يستخدمون جملا عبرية للتعامل مع أسرى العدو، أو مع جنوده عند اقتحام مواقعهم، وكان يتابع التدريبات، ويحرك المنظومة العسكرية بذكاء، يجمع بين الحزم والحسم والإنسانية.

ويذكر للرجل أنه القائد المصري الوحيد الذي دخل بقواته إلى فلسطين المحتلة لعمق خمسة كيلو مترات في حرب 1967، وكان آخر المنسحبين من الجيش المصري في هذه الحرب، وكان انسحابه بأقل خسائر عرفتها القوات المسلحة .

**المآذن العالية:**

وبالنسبة للخطة التي وضعها للهجوم على العدو، واقتحام قناة السويس عام 1971، وتحرير جزء من سيناء وفقًا لإمكانات الجيش المصري وسماها "المآذن العالية"، يقول الشاذلي:

«إن ضعف قواتنا الجوية وضعف إمكاناتنا في الدفاع الجوي ذاتي الحركة يمنعنا من أن نقوم بعملية هجومية كبيرة .. ولكن في استطاعتنا أن نقوم بعملية محدودة، بحيث نعبر قناة السويس، وندمر خط بارليف، ونحتل من (10) إلى (12) كيلو مترًا شرق القناة، ونتحول بعد ذلك لأخذ مواقع دفاعية».

كانت فلسفة هذه الخطة تقوم على أن للعدو مقتلين:

المقتل الأول: «هو عدم قدرته على تحمل الخسائر البشرية؛ نظرًا لقلة عدد أفراده».

المقتل الثاني: «هو إطالة مدة الحرب، فهو في كل الحروب السابقة كان يعتمد على الحروب الخاطفة التي تنتهي خلال أربعة أسابيع أو ستة أسابيع على الأكثر؛ لأنه في خلال هذه الفترة يقوم بتعبئة (18٪) من شعبه، وهذه نسبة عالية جدًّا. ثم إن الحالة الاقتصادية تتوقف تمامًا في مجتمعه، والتعليم يتوقف، والزراعة تتوقف، والصناعة كذلك؛ لأن معظم الذين يعملون في هذه المؤسسات في النهاية ضباط وعساكر في قواته المسلحة».

**حرمان العدو من أهم مزاياه:**

الخطة كان لها بعدان آخران على صعيد حرمان العدو من أهم مزاياه القتالية يقول عنهما الشاذلي:

"عندما أعبر القناة وأحتل مسافة بعمق (10) (12) كم شرق القناة بطول الجبهة (حوالي 170 كم)، سأحرم العدو من أهم ميزتين له:

الميزة الأولى: «تكمن في حرمانه من الهجوم من الأجناب؛ لأن أجناب الجيش المصري ستكون مرتكزة على البحر المتوسط في الشمال، وعلى خليج السويس في الجنوب، ولن يستطيع الهجوم من المؤخرة التي ستكون قناة السويس، فسيضطر إلى الهجوم بالمواجهة، وعندها سيدفع الثمن فادحًا».

الميزة الثانية: « يتمتع العدو بميزة مهمة في المعارك التصادمية، وهي الدعم الجوي السريع للعناصر المدرعة التابعة له، حيث تتيح العقيدة القتالية الغربية التي يعمل العدو بمقتضاها للمستويات الصغرى من القادة بالاستعانة بالدعم الجوي، وهو ما سيفقده؛ لأني سأكون في حماية الدفاع الجوي المصري، ومن هنا تتم عملية تحييد الطيران الصهيوني خلال المعركة»".

**التوجيه رقم 41:**

لقد أصدر الفريق الشاذلي واحدًا وأربعين توجيهًا، تبين طريقة أداء الجنود لمهامهم القتالية، ويعدّ التوجيه (رقم **41**) الذي يأتي ضمن خطة المآذن العالية هو ما تم تنفيذه في عمليات حرب أكتوبر، حيث نجحت الخطة نجاحًا ساحقًا. ولقد بدأ هذا التوجيه بوضع جميع المشكلات والمصاعب أمام المخطط المصري لعبور القناة وتدمير خط بارليف، وكان أمام مجموعة العمل أن تضع الحلول أمام كل مشكلة. فلقد كانت أعقد المشكلات التي قابلت المجموعة الساتر الترابي على الضفة الشرقية للقناة، وهو الذي أعطى للعدو ميزة السيطرة بالنيران، والملاحظة ضد القوات القائمة بالعبور. وأدى ذلك إلى اقتراح ضرورة بناء نقاط قوية مرتفعة مزودة بمصاطب دبابات على الضفة الغربية للقناة، تسمح للجانب المصري أن يؤمن قواته التي تعبر القناة بالنيران والمعلومات.

قام الفريق الشاذلي بتجميع خبرة القتال من أعمال القوات المصرية والدروس المستفادة بعد الحدث مباشرة، وتم توزيعها على عناصر القوات المسلحة؛ للاستفادة منها في أي أعمال قتالية مشابهة مستقبلا، وكان منها على سبيل المثال التوجيه الخاص بتأمين الرادارات في المناطق المنعزلة، وذلك بعد الغارة الإسرائيلية على أحد الرادارات المنعزلة في الزعفرانة.

وبدأ التفكير في إصدار ذلك التوجيه عندما كان الفريق الشاذلي يراجع خطة العملية الهجومية لاقتحام قناة السويس وتدمير خط بارليف، ووجد أن هناك العديد من المشكلات التي تعوق وتؤثر في التخطيط للعملية الهجومية. فأصدر أوامره بتشكيل لجنة خاصة لإعداد هذا التوجيه؛ ليكون منهاجًا لخطة الحرب. وبعد أن انتهى العمل من هذا التوجيه، أصبح هو الخطة التفصيلية لعبور قناة السويس واقتحام خط بارليف للقوات المسلحة بالكامل. وكان الفريق الشاذلي في منتصف عام 1973 قبيل الحرب بأشهر قليلة قد زار كلية القادة والأركان، وبدأ النقاش مع الطلبة من الثامنة صباحًا حتى السابعة مساءً، واستكمل النقاش في يومين.

### التفاصيل الدقيقة:

تضمن هذا التوجيه الخطة التفصيلية لعبور القوات. بدءًا من عدد الجنود في كل قارب، وتسليح كل جندي، وحجم الذخيرة التي يحملها سواء لنفسه أو للقوات المعاونة. ووصل الأمر إلى توقيت دخول معدات العبور لمنطقة القناة، ابتداء من القوارب المطاطية إلى معدات الكباري، وأسلوب حمايتها، ومواقع مولدات الدخان، والدفاع الجوي ... إلخ. وركز التوجيه على كل التفاصيل الدقيقة للغاية، ولم يترك للقادة إلا التنفيذ الدقيق.

بدأت الحرب على الجبهتين المصرية والسورية في وقت واحد، ونفذ الجيش المصري خطة المآذن العالية التي وضعها الفريق الشاذلي بنجاح غير متوقع، لدرجة أن الشاذلي يقول في كتابه عن حرب أكتوبر: "في أول 24 ساعة قتال لم يصدر من القيادة العامة أي أمر لأي وحدة فرعية. قواتنا كانت تؤدي مهامها بمنتهى الكفاءة والسهولة واليسر كأنها تؤدي طابور تدريب تكتيكي". ويضيف: "كان كل شيء في صبيحة يوم 6 أكتوبر كما خططنا له .. أشعر بالارتياح .. وسلمنا أمرنا لله سبحانه وتعالى بعد أن قمنا بواجبنا البشري بأقصى ما نستطيع".

### نجاح حاسم:

ويقول الفريق الشاذلي: « بحلول الساعة الثانية من صباح يوم الأحد 7 أكتوبر 1973، كانت قواتنا قد حققت نجاحًا حاسمًا في معركة القناة، فقد عبرت أصعب مانع مائي في

العالم، وحطمت خط بارليف في 18 ساعة، وهو رقم قياسي لم تحققه أي عملية عبور في تاريخ البشرية، وقد تم ذلك بأقل خسائر ممكنة، فقد بلغت خسائرنا 5 طائرات و20 دبابة و280 شهيدًا، ويمثل ذلك 2.5 ٪ من الطائرات، و2 ٪ من الدبابات، و0.3 ٪ من الرجال، أما العدو ففقد 30 طائرة و300 دبابة، وعدة آلاف من القتلى، وخسر معهم خط بارليف بكامله .. لقد تم سحق ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مشاة كانت تدافع عن القناة، وأصبحت أسطورة خط بارليف التي كان يتغنى بها الإسرائيليون في خبر كان».

في يوم 8 أكتوبر 1973 زار الفريق الشاذلي الجبهة للمرة الأولى، وكان بذلك أول مسئول من القيادة العامة يزور جبهة القتال ويعبر الضفة الشرقية، وجد الفريق الشاذلي فرحة عارمة بين الجنود والضباط بما تحقق، وقد عادت الثقة إلى جميع الأفراد، وأحاطوا جميعًا بالفريق الشاذلي يهتفون باسم التوجيه (41) أو الخطة التي تم بها العبور، ومع ذلك لم تكن الجبهة قد استقرت بعد؛ لأن بعض الحصون لم تسقط بعد.

**تطوير الهجوم:**

أرسلت القيادة العسكرية السورية مندوبًا للقيادة الموحدة للجبهتين، التي كان يقودها المشير أحمد إسماعيل علي، تطلب زيادة الضغط على القوات الإسرائيلية على جبهة قناة السويس؛ لتخفيف الضغط على جبهة الجولان، فطلب الرئيس السادات من أحمد إسماعيل تطوير الهجوم شرقًا لتخفيف الضغط على سوريا.

يقول الفريق الشاذلي: "بعد عودتي من الجبهة يوم الخميس 11 أكتوبر فاتحني الوزير أحمد إسماعيل في موضوع تطوير الهجوم نحو المضايق، ولكني عارضت الفكرة بشدة، وقلت له أي تطوير خارج نطاق الـ12 كيلو التي تقف القوات فيها بحماية مظلة الدفاع الجوي، وأي تقدم خارج المظلة معناه أننا نقدم قواتنا هدية للطيران الإسرائيلي، ما زالت القوات الجوية الإسرائيلية قوية، وتشكل تهديدًا خطيرًا لأية قوات برية تتحرك في العراء دون غطاء جوي، وبدا لي أنه اقتنع بهذا وأغلق الموضوع.

ولكنه عاد وفاتحني بالموضوع مرة أخرى في صباح اليوم التالي الجمعة 12 أكتوبر، مدعيًا هذه المرة أن الهدف من هجومنا هو تخفيف الضغط على الجبهة السورية.

**معارضة التطوير:**

عارضت الفكرة للمرة الثانية، وقمت بتذكيره بالاجتماع الذي عقد في نوفمبر **1971** بمقر الجامعة العربية في اجتماع مجلس الدفاع العربي المشترك، والذي قلت فيه:

«ليكن معلومًا لدى الجميع أنه نظرًا للوضع المركزي الذي تتمتع به إسرائيل، ونظرًا لتفوقها الساحق في الطيران، فلا الجبهة المصرية تستطيع أن تخفف الضغط عن السورية أو العكس فيما لو حدث وركز العدو على إحدى الجبهتين .. لذلك أطالب بأن تكون كل جبهة لها القدرة على الصد».

**ويضيف الشاذلي:**

"إن رأيي معروف مسبقًا، وقلت هذا في اجتماع رسمي موثق، وأن لدى العدو 8 ألوية مدرعة أمامنا، ولن يحتاج إلى سحب قوات إضافية من الجبهة السورية؛ حيث إن هذه القوات قادرة على صد أي هجوم نقوم به، وليس لدينا دفاع جوي متحرك إلا أعداد قليلة جدًّا من سام **6**، لا تكفي لحماية قواتنا التي ستقع فريسة للطيران الإسرائيلي؛ نظرًا لتفوقها بمجرد خروجها من تحت مظلة الدفاع الجوي .. إذا نحن قمنا بهذه العملية فإننا سوف ندمر قواتنا دون أن نقدم أية مساعدة لتخفيف الضغط على الجبهة السورية".

**القرار السياسي:**

وحوالي الظهر تطرق الوزير لهذا الموضوع للمرة الثالثة خلال **24** ساعة، وقال هذه المرة:

«القرار السياسي يحتم علينا ضرورة تطوير الهجوم نحو المضايق، ويجب أن يبدأ ذلك من صباح غد **13** أكتوبر» ..

بعد الظهر كانت التعليمات الخاصة بتطوير الهجوم قد تم إعدادها، وتحرك اللواء محمد غنيم إلى الجيش الثاني الميداني، واللواء طه المجدوب إلى الجيش الثالث الميداني، حاملين معهما تلك الأوامر إلى قائدي الجيشين.

في الساعة (0330) مساءً، اتصل اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني الميداني بالقيادة العامة، طالبًا مكالمة الفريق الشاذلي؛ ليخبره باستقالته، ورفضه تنفيذ الأوامر، وبعدها بدقائق اتصل اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث الميداني بالقيادة، وأبدى معارضة شديدة لتلك التعليمات التي أرسلتها القيادة العامة إليه والمتعلقة بتطوير الهجوم. قال الفريق الشاذلي لهم: إنه نفسه معترض على تطوير الهجوم، لكنه أجبر على ذلك.

فاتح الفريق الشاذلي الوزير أحمد إسماعيل علي مرة أخرى في الموضوع، وأبلغه باعتراضات قائدي الجيشين، وتقرر استدعاء اللواء سعد مأمون واللواء عبد المنعم واصل لحضور مؤتمر بالقيادة العامة. في مساء اليوم نفسه، وفى خلال هذا المؤتمر الذي عقد من الساعة (0600) إلى الساعة (1100) مساءً، كرر كل منهم وجهة نظره مرارًا وتكرارًا، ولكن كان هناك إصرار من الوزير أحمد إسماعيل علي أن القرار سياسي، ويجب أن نلتزم به، والشيء الوحيد الذي تغير هو تأجيل الهجوم من فجر يوم 13 أكتوبر إلى فجر يوم 14 أكتوبر كما كان محددًا.

**نحو المضايق:**

في صباح يوم 14 أكتوبر تم سحب الفرقتين المدرعتين (21) و(4)، وتم دفعهما شرقًا نحو المضايق. الجدير بالذكر أن الفرقتين المدرعتين (21) و(4) كان موكلا إليهما تأمين مؤخرة الجيش المصري من ناحية الضفة الغربية لقناة السويس، وصد الهجوم عنها إذا ما حدث اختراق للأنساق الأولى.

بناءً على أوامر تطوير الهجوم شرقًا نحو المضايق، هاجمت القوات المصرية في قطاع الجيش الثالث الميداني - في اتجاه السويس - بعدد (2) لواء، هما اللواء (11) مشاة ميكانيكي في اتجاه ممر الجدي، واللواء (3) المدرع في اتجاه ممر متلا، وفي قطاع الجيش الثاني الميداني اتجاه الإسماعيلية، هاجمت الفرقة (21) المدرعة في اتجاه الطاسة، وعلى المحور الشمالي لسيناء هاجم اللواء (15) مدرع في اتجاه (رمانة).

اصطدمت القوات المصرية المتجهة شرقًا بمقاومة إسرائيلية عنيفة، وكمائن للدبابات، وإسناد جوي إسرائيلي مباشر، ونتيجة لتفوق قوات العدو في الدبابات والطيران، وعمل القوات المصرية خارج نطاق حماية الصواريخ والدفاع الجوي، فقد منيت هذه القوة بخسارة فادحة في ساعات، وتراجعت إلى الغرب. وكان ذلك بداية لتغير غير مريح على مسرح العمليات!

**أسوأ قرار إستراتيجي:**

لقد فشلت خطة التطوير كما توقع الفريق الشاذلي وخسرت القوات المصرية 250 دبابة من قوتها الضاربة الرئيسة في ساعات معدودات من بدء التطوير؛ للتفوق الجوي الإسرائيلي. وكان قرار التطوير - وبتقدير الكثيرين من المتابعين للشأن العسكري - أسوأ قرار إستراتيجي اتخذته القيادة السياسية؛ مما أضر كثيرًا بسير العمليات فيما بعد، وأثر على نتائج الحرب، وجعل ظهر الجيش المصري غرب القناة مكشوفًا لأية عملية التفاف، وهو ما حدث بالفعل.

في صباح اليوم التالي 15 أكتوبر اقترح الفريق الشاذلي إعادة تجميع ما تبقى من الفرقتين المدرعتين (21) و (4) من شرق القناة إلى غرب القناة وإعادتهما إلى مواقعهما الرئيسة؛ للقيام بمهام التأمين التي تدربوا عليها، وليتمكنا من إعادة الاتزان إلى المواقع الدفاعية، ولكن وزير الحربية أحمد إسماعيل عارض الاقتراح؛ على أساس أن سحب هذه القوات قد يؤثر على الروح المعنوية للجنود، وقد يفسره العدو على أنه علامة ضعف، فيزيد من ضغطه على قواتنا، ويتحول الانسحاب إلى ذعر. يقول الفريق الشاذلي: «لم أكن لأوافق على هذا الرأي .. كنا نتكلم بلغتين مختلفتين، ولا يستطيع أي منا أن يقتنع بما يقوله الآخر. فهو كونه كان يقود المعارك على الخرائط فقط، ولم يزر الجبهة قط إلا بعد وقف إطلاق النار ببضعة أسابيع، وبعد أن أصبحت مزارًا لكل الناس بما في ذلك طلبة المدارس، كما أن عدم اتصاله بالضباط والجنود لم يسمح له بأن يلمس ما أحدثه نجاحنا في عبور قناة السويس في رفع روحهم المعنوية، وفي استعادة ثقتهم بقادتهم الذين رسموا لهم الخطط، وهيأوا لهم الظروف التي مكنتهم من تحقيق هذا النصر».

**المبادأة للعدو:**

في يوم **14** أكتوبر أصيب اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني الميداني بأزمة قلبية، وتم إحلال اللواء عبد المنعم خليل مكانه لقيادة الجيش الثاني الميداني.

أصبحت المبادأة في جانب القوات الإسرائيلية التي استعدت لتنفيذ خطتها المعدة من قبل، والمعروفة باسم (الغزالة) للعبور غرب القناة، وحصار القوات المصرية الموجودة شرقها، خاصة وأن القوات المدرعة التي قامت بتطوير الهجوم شرقًا هي القوات التي كانت مكلفة بحماية الضفة الغربية ومؤخرة القوات المسلحة، وبعبورها القنال شرقًا، وتدمير معظمها في معركة التطوير، بعد فشل التطوير، أصبح ظهر الجيش المصري مكشوفًا غرب القناة. وقد استغلت إسرائيل تلك النقطة، فيما عرف بعد ذلك بثغرة الدفرسوار.

في عصر يوم **13** أكتوبر ظهرت طائرة استطلاع أمريكية من نوع (**SR-71-A**) حديثة التطور فوق منطقة القتال، وقامت بتصوير الجبهة بالكامل، ولم تستطع الدفاعات الجوية المصرية إسقاطها؛ بسبب سرعتها، التي بلغت ثلاث مرات سرعة الصوت، وارتفاعها الشاهق. وفي خلال يوم **15** أكتوبر قامت الطائرة نفسها برحلة استطلاعية أخرى فوق الجبهة والمنطقة الخلفية، اكتشفت تلك الطائرة في رحلتها الثانية وجود ثغرة غير محمية وبعرض **25** كيلو بين الجيش الثالث الميداني في السويس والجيش الثاني الميداني في الإسماعيلية.

**آرئيل شارون:**

قام الأمريكان بإبلاغ القيادة الإسرائيلية التي وجدت فرصتها، فدفعت عبر (البحيرات المرّة) ثلاث مجموعات، تمكن بعضها في ليلة (**15-16** أكتوبر) من اجتياز قناة السويس إلى ضفتها الغربية بين الجيشين الثاني والثالث عند منطقة الدفرسوار القريبة من البحيرات المرّة، شكل عبور هذه القوة إحداث ثغرة في صفوف القوات المصرية، عرفت باسم (ثغرة الدفرسوار). وتم نصب جسر طوف لعبور الدبابات والآليات المدرعة. يوم **16** أكتوبر تمكن عدد اثنين لواء مدرع + لواء مظلي من العبور إلى غرب القناة، بقيادة الجنرال أرئيل شارون قائد الفرقة المدرعة الإسرائيلية (**143**).

حاولت هذه القوة احتلال مدينة الإسماعيلية، فتصدى لها لواء مظلات وكتيبتا صاعقة مصرية، واستطاعت هذه القوات أن تمنع قوات العدو من احتلال الإسماعيلية، وكبدتها خسائر فادحة. ولكن تمكن أرئيل شارون من إحتلال المنطقة ما بين مدينتي الإسماعيلية والسويس.

**اقتراح الشاذلي:**

في يوم **17** أكتوبر اقترح الفريق الشاذلي للمرة الثانية سحب الفرقتين المدرعتين **(21)** و**(4)** من شرق القناة، وباستخدام هاتين الفرقتين يتم توجيه ضربة رئيسة للواءين الإسرائيليين غرب القناة، وفي الوقت نفسه يقوم اللواء **(116)** المتواجد غرب القناة بتوجيه ضربة أخرى للعدو، بينما تقوم الفرقة **(21)** مدرعة المتواجدة شرق القناة، بتوجيه ضربة لقوات العدو؛ بهدف إغلاق الطريق المؤدي إلى الثغرة. وليزيد من الخناق على القوات الإسرائيلية الموجودة في الغرب، والقضاء عليها نهائيًّا، علمًا بأن القوات الإسرائيلية يوم **17** أكتوبر كانت لواء مدرع ولواء مظلات فقط وتوقع الفريق الشاذلي عبور لواء إسرائيلي إضافي ليلا.

وأضاف أن القوات المصرية ستقاتل تحت مظلة الدفاع الجوي وبمساعدة الطيران المصري، وهو ما يضمن التفوق المصري الكاسح، وسيتم تدمير الثغرة تدميرًا نهائيًّا، وكأن عاصفة هبت على الثغرة وقضت عليها وفق تعبيره، علمًا بأن سحب هذه الألوية لن يؤثر مطلقًا على أوضاع الفرق المشاة الخمس المتمركزة في الشرق.

**المناورة بالقوات:**

هذه الخطة تعد من وجهة نظر الفريق الشاذلي تطبيقًا لمبدأ من مبادئ الحرب الحديثة، وهو «المناورة بالقوات»، يقول الفريق الشاذلي: «المناورة بالقوات هي مبدأ مهم جدًّا من مبادئ الحرب. وتعني في العلم العسكري أن يقوم القائد بتحريك قوات قبل وفي أثناء المعركة من مكان إلى آخر، حيث تستطيع من موقعها الجديد أن تحقق نجاحًا أكبر في القتال. ففي العمليات الهجومية يستطيع القائد الذي يطبق هذا المبدأ استغلال الفرص التي قد تظهر له في أثناء القتال؛ نتيجة سوء توزيع العدو لقواته في الدفاع، أو نتيجة بدء حركتها، فيدفع قواته في الاتجاهات الضعيفة؛ حيث يمكن اختراق خطوط خصمه

الدفاعية، والوصول إلى مؤخرته. فإذا ما نجح القائد المدافع في استدراج خصمه إلى منطقة القتال التي يريدها انقضت عليه قواته من الأمام والخلف والأجناب لإبادتها. فالمناورة بالقوات إذن شيء والانسحاب شيء آخر. فالأولى هي الاستمرار في القتال في مكان آخر، أما الثانية فهي الهروب من المعركة.

**الفرق بين المناورة والانسحاب:**

وقد بيّن القرآن الكريم الفرق بين المناورة بالقوات والانسحاب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال]. فتولية الدبر معناها الانسحاب من القتال، أما التحرف للقتال، أو التحيز إلى فئة فهو ما يطلق عليه اليوم في العلم العسكري مبدأ المناورة بالقوات. لقد كان الخلاف الرئيس بيني (أي الشاذلي) وبين السادات وأحمد إسماعيل يدور - طول فترة الحرب - حول تطبيق هذا المبدأ. واشتد الصراع بيني وبينهما بصفة خاصة خلال الأيام من **15** وحتى **20** من أكتوبر».

لم يقبل الوزير أحمد إسماعيل رأي الشاذلي؛ بدعوى أن الجنود المصريين لديهم عقدة نفسية من عملية الانسحاب للغرب منذ نكسة (هزيمة) **1967**، وبالتالي رفض سحب أي قوات من الشرق للغرب، وقرر أن تتم مواجهة الثغرة بقيام القوات المدرعة المصرية في الشرق (في سيناء) بسد منافذ عودة القوات الإسرائيلية المتسللة إلى سيناء، واستدعاء قوات تهاجمها من الغرب، وبذلك تكون محصورة بين القوات المصرية. وقد استدعى الأمر دعوة الرئيس أنور السادات إلى مقر القيادة في اليوم نفسه (**16** أكتوبر). يقول الفريق الشاذلي: « فكرت أن أستعين برئيس الجمهورية؛ لكي ينقض قرار الوزير، وأن يوافق على وجهة نظري، فيما يتعلق بسحب بعض القوات من الشرق، وأن نقوم بتوجيه ضربتنا الرئيسة ضد الثغرة من الغرب. شرحت الاقتراحات السابق ذكرها، ولكن الرئيس لم يمهلني لكي أتم مقترحاتي، وثار ثورة عارمة وفقد أعصابه وأخذ يصرخ في وجهي بعصبية:

(أنا لا أريد أن أسمع منك مرة ثانية هذه الاقتراحات الخاصة بسحب القوات من الشرق، إذا أثرت هذا الموضوع مرة أخرى فإني سوف أحاكمك).

**جرح عميق:**

حاولت أن أشرح له بأن المناورة بالقوات شيء والانسحاب شيء آخر، ولكنه كان في ثورة عارمة، لا يريد أن يسمع، ولا يريدني أن أسترسل في الكلام. لقد أصابني كلام السادات بجرح عميق، وجال بخاطري أن أستقيل، ولكن سرعان ما استبعدت هذا الخاطر. كيف أترك القوات المسلحة في أوقات الشدة؟ ماذا سيقول عني الخصوم؟ هرب عند وقوع أول أزمة؟ لا لن أقبل ذلك على نفسي. لقد عشت مع القوات المسلحة فترة مجد، ويجب أن أقف معها وقت الشدة، حتى لو لم أستطع أن أنقذ ما أريد إنقاذه كله. ابتلعت كبريائي والتمست العذر للسادات، وقلت لنفسي: لابد أن السادات أعصابه متوترة، حتى إنه لم يستطع أن يواجه الموقف. يجب أن أتحمله ولو مؤقتا من أجل مصر».

وصلت الأمور بين الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل من ناحية وبين الشاذلي إلى مرحلة النهاية، وقام السادات بإقصاء الفريق الشاذلي لفترة مؤقتة في أثناء الحرب، وتعيين المشير محمد عبد الغني الجمسي بدلا منه لمواجهة اختراق العدو للثغرة.

**أروع الملاحم:**

يمكن القول إن الفترة من 14 أكتوبر حتى 23 منه، شهدت أروع ملاحم البطولة والفداء من جانب القوات المصرية، مع غزارة التضحيات وضخامة الخسائر، ويكفي أنها منعت قوات العدو من احتلال الإسماعيلية والسويس، وشهد يوم 14 أكتوبر معارك الدبابات الكبرى التي سبقت الإشارة إليها. وفي يوم 16 جرت معركة اللواء 16 المشاة، المعروفة باسم (المزرعة الصينية). كما جرت في اليوم نفسه معركة اللواء 25 مدرع المستقل.

بيد أن هذا اليوم أيضًا شهد عبور المظليين اليهود، ومعهم كتيبة دبابات إلى الغرب. وفي يوم 17 هاجمت الدبابات الصهيونية في الغرب قواعد الصواريخ المضادة للطائرات. ودخل اللواء 23 المدرع يوم 18 في الغرب، وسقطت قرية الجلاء (المزرعة الصينية) تحت ضغط الهجمات اليهودية. وعبرت مجموعة عمليات شارون (143)، ومجموعة عمليات

آدن (163) إلى الغرب، بعد إقامة الكباري عند الدفرسوار. واتسعت الثغرة في الغرب عند الدفرسوار شمالا وجنوبًا وغربًا. كما عبرت يوم 19 مجموعة عمليات ماجن (252) إلى الغرب، واستشهد العقيد إبراهيم الرفاعي قائد مجموعة القتال 39 الخاصة في أثناء القتال مع الدبابات اليهودية جنوب الإسماعيلية.

**القرار للقائد العام:**

ويعلق المشير الجمسي على موضوع الثغرة في مذكراته صفحة 421 بالقول:

«لقد كان هناك خلاف في فكر رئيس الأركان – يقصد الشاذلي - وفكر القائد العام – يقصد أحمد إسماعيل - على الطريقة التي نواجه بها موقفًا عسكريًّا أمامنا، وهذا واجب وحق لكل مسئول في جهاز القيادة أن يبدي رأيه واقتراحه في الموقف. ولكن القرار في النهاية الذي يتحتم على الجميع الالتزام به هو قرار القائد العام، المسئول عن إدارة العمليات».

ازداد تدفق القوات المعادية في الغرب، وتطور الموقف سريعًا، إلى أن تم تطويق الجيش الثالث المصري بالكامل في السويس، ووصلت القوات اليهودية إلى طريق السويس - القاهرة، ولكنها توقفت لصعوبة الوضع العسكري بالنسبة لها غرب القناة، خاصة بعد فشل الجنرال أرئيل شارون في الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية، وفشل الجيش الإسرائيلي في احتلال مدينة السويس؛ مما وضع القوات الإسرائيلية غرب القناة في مأزق صعب، وجعلها محاصرة بين الموانع الطبيعية والاستنزاف، والقلق من الهجوم المصري المضاد الوشيك.

**معالجة الثغرة:**

ويشير الجمسي إلى طريقة معالجة الثغرة عسكريًّا، فيذكر أنه كان على القيادة العامة أن تقرر الطريقة التي تتبع لمواجهة الموقف في قطاع الاختراق. وكان القرار في 16 أكتوبر ضرورة سد الثغرة في شرق القناة؛ لمنع تدفق أي قوة معادية تالية، وعزل القوة التي تعمل في الغرب، واحتواء قوة العدو في الغرب لتدميرها، وفي يوم 17 بدأ تنفيذ القرار. كانت قواتنا في الشرق تسد الثغرة، وفي الوقت نفسه يقوم لواء من الفرقة 23 ميكانيكية بالهجوم ضد قوة العدو التي عبرت إلى الغرب.

ويقول الجمسي: تعرض اللواء 25 مدرع في أثناء تقدمه شمالا من قطاع الجيش الثالث شرق البحيرات لقصف جوي شديد، وهجوم مضاد على جنبه الأيمن من مدرعات العدو؛ الأمر الذي كبده خسائر كبيرة، واضطر للتوقف، فلم يتم سد الثغرة من الشرق! وقامت فرقة آدان بدفع وحدة الكباري، وإسقاط كوبري بالقناة تحت قصف مستمر من مدفعية الجيش الثاني.

أصبح للعدو من فرقة شارون كتيبتان من الدبابات وكتيبتان من المظلات، محملة على عربات مجنزرة في الدفرسوار غرب القناة.

**شهادة ديان:**

يقول موشيه ديان عن فرقة شارون بعد القتال الشديد والخسائر الكبيرة التي أصابتها لتأمين منطقة إنشاء الكوبري:

"حاربت فرقته ببسالة وتكبدت أبشع الخسائر؛ إذ استولى رجاله على رأس الجسر على الضفة الشرقية للقناة في معركة مدرعات شرسة، تعرضوا فيها جميعًا لنيران العدو المهلكة المتواصلة ..

وفي هذه المعركة قتل أكثر من مائتي رجل، ففي لواء (...) قتل جميع قادة السرايا مرتين على التوالي. لقد قتل أولا القادة الأصليون، ثم قتل بعد ذلك القادة الذين حلوا محلهم، أما القادة الحاليون فهم الصف الثالث في أيام قليلة".

**القتال في الغرب:**

على مدى يومي 18 - 19 استمر القتال في شرق القناة وغربها، إلا أن القتال في الغرب كان له الأسبقية. وبعد أن تمكن العدو من إنشاء كوبري في الدفرسوار، ازداد تدفق قواته المدرعة غربًا، وأصبحت له المبادأة في القتال كما يقول الجمسي.

تقدمت قوات العدو المدرعة غربًا وجنوبًا في اتجاه فايد في ظل تفوق جوي صهيوني، وقد بذلت قواتنا الجوية مجهودًا كبيرًا في هذه الفترة الصعبة لحماية قوات الجيش، بالتعاون مع قوات الدفاع الجوي. وبلغ متوسط المجهود الجوي لقواتنا الجوية في منطقة الثغرة – كما يقول الجمسي 330 طائرة / يوم، في المدة من 15 – 18 أكتوبر، وبمتوسط 250 طلعة

طائرة / يوم، في المدة من 19- 22 أكتوبر، وكان ذلك دورًا بارزًا لقواتنا الجوية التي استخدمت فيها كل أنواع الطائرات المتيسرة.

ونظرًا للتفوق البري والجوي الذي أصبح للعدو في غرب القناة، وكما أن المبادأة صارت في جانبه، كان من الضروري وضع الفرقة الرابعة المدرعة تحت القيادة المباشرة للقيادة العامة؛ حتى يمكن استخدامها – بحكم أنها القوة الرئيسة – إما في قطاع الجيش الثاني أو الثالث غرب القناة حسب تطور الموقف.

**وقف إطلاق النار:**

كان الرئيس السادات قد قرر قبول وقف إطلاق النار بعد عودته من مركز العمليات ليلة 21/20 أكتوبر إلى مقر عمله في قصر الطاهرة وسبّب ذلك بالمساعدات الأمريكية للعدو، عن طريق القمر الصناعي، وتوصيله المعلومات للقيادة الصهيونية، بينما أحجم الروس عن مساعدتنا في مجال المعلومات، بالإضافة إلى الجسر الجوي الأمريكي الذي أقامته أمريكا؛ لنجدة اليهود، حيث كانت الطائرات الأمريكية الجبارة التي تحمل الدبابات والأسلحة الحديثة في مطار العريش، ثم استخدام العدو لصاروخين وإطلاقهما على بطاريّتين مصريتين، فعطلتهما تعطيلا كاملا وهذا الصاروخ يسمى "القنبلة التلفزيونية"، وكان لما يزل تحت الاختبار في أمريكا، فأرسلته لنجدة العدو. وشعر السادات كما يقول في "البحث عن الذات" أنه يحارب أمريكا وحده لمدة عشرة أيام، ويواجه أحدث أسلحتها التي لم يستخدم أغلبها من قبل، في الوقت الذي لم يقف الاتحاد السوفيتي إلى جانبنا، بل كان متحفزًا للطعنة الغادرة من وراء الظهر كما فعل في يونيه 1967!

**القرار الأول:**

في الخامسة والنصف من صباح 22 أكتوبر صدر قرار مجلس الأمن رقم 338 لوقف إطلاق النار في خلال 12 ساعة، ودعوة الأطراف المعنية إلى البدء فورًا عقب انتهاء القتال لتنفيذ قرار مجلس الأمن 242 بجميع أجزائه، وإجراء مفاوضات تحت إشراف مناسب؛ بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط، ولكن اليهود لم يحترموا القرار مع موافقتهم عليه؛ لأنهم لم يحققوا هدفًا سياسيًّا أو عسكريًّا إستراتيجيًّا، ودار

القتال في الفترة من 22 – 24 أكتوبر بعنف شديد، ومع ما بذلته قواتنا من تضحيات واستبسال، فقد كانت هذه الفترة من أصعب الفترات في القتال غرب القناة.

**القرار الثاني:**

وصدر قرار مجلس الأمن رقم 339 يوم 23 أكتوبر؛ لتأكيد مضمون القرار السابق، ووافقت عليه مصر والعدو الذي ترك لجيشه حرية العمل ليحتل السويس، ويحقق هدفًا يؤثر سياسيًّا وعسكريًّا وإعلاميًّا.

مع المقاومة الشعبية والقوات العسكرية لم تستطع قوات العدو اقتحام مدينة السويس وإخضاعها، وإن بقيت دباباتها المدمَّرَة في الطريق الرئيس المؤدي إلى داخل المدينة شاهدًا على فشل هذه القوات في الاستيلاء عليها، مع أنها استطاعت أن تتقدم جنوبًا إلى ميناء الأدبية والزيتية، والاستيلاء عليهما، وعزلت المدينة، وكانت قد استولت على مطاري فايد وكسفريت ووصلت إلى الشلوفة، واقتحمت مركز القيادة المتقدم للجيش الثالث الميداني الذي تم حصاره في الشرق.

**القرار الثالث:**

وأصدر مجلس الأمن قراره رقم 340 مساء يوم 25 أكتوبر، بناء على مشروع لدول عدم الانحياز، يقضي بإنشاء قوة طوارئ دولية لمراقبة تنفيذ وقف القتال، وعودة القوات إلى خط وقف إطلاق النار في 22 أكتوبر. وجرت مباحثات؛ لتثبيت وقف إطلاق النار، وإمداد قوات الجيش الثالث، بعد قطع طريق مصر السويس الصحراوي.

وعين الجمسي ممثلا لمصر في مباحثات الكيلو 101 على طريق مصر السويس، تحت إشراف الأمم المتحدة؛ لتطبيق القرارين 338، 339، والسماح بمرور إمدادات غير عسكرية للجيش الثالث. واجتمع الوفدان في الواحدة والنصف من صباح 28 أكتوبر لبدء المباحثات.

وتوقف القتال يوم 28 أكتوبر 1973!

* * *

## 6 - شهداء ومباحثات

### مصيدة قاتلة:

كان وقف إطلاق النار مصدر راحة لليهود، بل مصدر فرح بعد معارك لم يتصوروا يومًا أنها ستواجههم. كانوا دائمًا يخوضون معارك سريعة، يفرضون بدايتها ويقررون نهايتها، ولكنهم هذه المرة فوجئوا بمن يفرض عليهم بداية الحرب، وأيضًا هو الذي يقرر - مع كل الظروف الصعبة التي يمر بها - وقف القتال، بعد أن صاروا بقواتهم في مصيدة قاتلة!

أتيح للجنود المصريين بعد وقف القتال أن يحصلوا على إجازات قصيرة، يزورون فيها أسرهم، ويطمئنونهم عليهم. وقد حصلت على إجازة لمدة يومين، ضاع معظمهما في السفر ذهابًا وإيابًا، ولكن رؤية أبي وأمي والأسرة وأهل القرية أراحتني وطمأنتهم.

كنت قبل السفر قد التقيت بأحد أبناء القرية المجندين في الوحدة، أخبرني أن شقيقًا له قدم من الجبهة، وأخبره باستشهاد اثنين من أقاربي، ولم يعلن الخبر رسميًّا بعد، وأنه لم يصرح بذلك لأحد من أهل القرية.

الأول استشهد في الأيام الأولى للحرب في منطقة القطع شرق بورسعيد، وهي منطقة رخوة تعثرت المدرعات والدبابات في عبورها، وكان الشهيد ضمن القوات الخاصة التي حاولت مساعدة المدرعات، ولكنه قضى مع آخرين، واستطاع العدو أن يمد طريقًا صناعيًّا، ويتقدم في اتجاه بورسعيد بعد أن أجبرته الموجة الأولى لقواتنا المهاجمة على التراجع.

### سؤال عن الغائبين:

الشهيد الآخر قضى في الثغرة. وعندما كنت في الإجازة كان الأهالي يتساءلون عن الغائبين الذين لم يحصلوا على إجازات ولم يرهم أهلوهم. كانوا كثيرين، وعندما كنت أُسأل عن الغائبين كنت أقول لهم: إن الإجازات بالتناوب. وسوف يحصل كل الجنود على

إجازات بالتتابع. لم أبح بما أعرف بخصوص الشهيدين لأحد، حتى أبي لم أخبره بشيء. كنت أتصور أن من نقل إليّ الخبر قد يكون غير دقيق، أو أنه يعني أحدًا غيرهما، وأن هناك أملا في أن يكونا بخير وعلى قيد الحياة. ولكنني ما كدت أعود إلى الوحدة حتى رأيت اسميهما بين الضحايا، وفي الإجازة التالية علمت أن السلطات المعنية قد أبلغت ذويهما، وأنها استدعتهم لإنهاء المتعلقات بكل منهما.

فراق الشهداء صعب على الأهل والأقارب، خاصة الآباء والأمهات، ولكن الأعمار بيد الله لا تتقدم ولا تتأخر، والأجل ينتهي في موعد ومكان يحددهما علام الغيوب .. النفس البشرية تتقبل الموت إلى حد ما في صورته الاعتيادية حين يسجى الميت أمام الأعين ويدفن بأيدي الأقارب والجيران والمعارف. أما حين يموت بعيدًا، ولا يُعرف كيف مات، ولا أين وُوري جثمانه، فتكون القسوة ذات مخالب تنهش القلب وتجرح الوجدان، ولكن الزمان يتكفل بتضميد الجراح، ويعيد الحياة إلى مجراها الطبيعي، فالموت في كل الأحوال حق، وإن كان حقًّا غير محبوب إلا عند من رسخ يقينه وثبت إيمانه، فهو لا يحبه ولكنه يتقبله في تسليم!

**الكيلو 101:**

عقب وقف إطلاق النار، جرت وفقًا لقرارات الأمم المتحدة الثلاثة التي صدرت عن مجلس الأمن (338- 339 – 340) مباحثات، عرفت باسم الكيلو **101** على طريق السويس القاهرة، حيث نصبت خيمة التقى فيها وفدان عسكريان؛ أحدهما مصري برئاسة الفريق الجمسي، والآخر يهودي برئاسة الجنرال أهارون ياريف، وحضر المباحثات الجنرال سلاسفو رئيس بعثة الأمم المتحدة لمراقبة وقف إطلاق النار.

كان هدف المباحثات بالنسبة للجانب المصري إمداد الجيش الثالث المحاصر بالمواد غير العسكرية، التي تتعلق بالتموينات والمياه وغيرها، وكذلك إمداد مدينة السويس باحتياجاتها الإنسانية. وهو ما تحقق في المباحثات العسكرية، حيث كان الوضع بالنسبة للعدو يمثل مأزقًا حقيقيًّا، يسعى إلى تجاوزه وإنقاذ قواته الموجودة في غرب القناة.

### قوات الثغرة:

كانت قوات العدو التي صنعت الثغرة تقدر بحوالي 6- 7 ألوية موجودة في منطقة محددة، ومحاطة من جميع الجهات بموانع طبيعية أو صناعية أو بقوات مصرية، مما وضعها في موقف عسكري ضعيف، بالإضافة إلى مصاعب إمدادها وإخلائها وطول خطوط المواصلات والاستنزاف اليومي للأفراد والمعدات. وقد اضطرت لتخصيص 4 -5 ألوية عند الدفرسوار لحماية القوات الموجودة في الغرب، كما خصصت عشرة ألوية من الجيش الصهيوني أمام رءوس الكباري في الجيشين الثاني والثالث، مع الاحتفاظ بالاحتياطي الإستراتيجي في أقصى درجات التعبئة.

ويشير الجمسي إلى أن وصول قوات الطوارئ بقيادة الجنرال سلاسفو لمراقبة وقف إطلاق النار لم يمنع قواتنا من بدء حرب استنزاف غرب القناة؛ حتى لا تعطي فرصة لقوات العدو لتثبيت أقدامها في مواقع دفاعية، مع تكبيدها أكبر خسائر ممكنة في الأفراد والمعدات إلى أن يحين الوقت المناسب لمهاجمتها. وقد حدث 452 اشتباكًا بالنيران منذ إيقاف إطلاق النار بقرار مجلس الأمن 340 حتى توقيع اتفاقية فض الاشتباك الأول التي أنجزها هنري كسنجر وزير الخارجية الأمريكي في يناير 1974.

### رهينة عسكرية:

لقد تحولت قوات العدو غرب القناة إلى رهينة في يد قواتنا تستنزفها في الأفراد والمعدات والاقتصاد، بدلا من أن تكون سلاحًا تضغط به علينا، وظهرت حقيقة الثغرة عندما طلب العدو في اتفاقية فك الاشتباك الأول ترك الثغرة، وسحب قواته شرقًا بعيدًا عن القناة.

استمرت مفاوضات الكيلو 101 وقتًا طويلا نسبيًا؛ بسبب مراوغات اليهود الغزاة، ورغبتهم في تحرير أسراهم، ونقل جثث موتاهم أو الأشلاء المتبقية منها، وهو ما يمثل نقطة ضعف بالنسبة لهم، ويولد ضغوطًا شديدة على حكومتهم من جانب أسرهم وذويهم، ولم تسفر هذه المفاوضات في النهاية إلا عن اتفاق إجرائي من ست نقاط، ثم أوقفتها مصر

بسبب عدم جدواها، ليتولى هنري كسنجر عملية تفاوض مكوكية بين القاهرة وتل أبيب، لتسفر عن فك الاشتباك الأول.

**النقاط الست:**

أما اتفاق النقاط الست الذي توصلت إليه مفاوضات الكيلو **101** في الحادي عشر من نوفمبر **1973**، فاشتمل على الآتي:

**1** – الالتزام بوقف إطلاق النار بدقة.

2 – بدء محادثات بين الطرفين لبحث مسألة العودة إلى خطوط 22 أكتوبر ضمن خطة لفك الاشتباك وفصل القوات، تحت إشراف الأمم المتحدة.

**3** – حصول مدينة السويس على إمدادات يومية من الطعام والماء والأدوية، ونقل الجرحى منها.

**4** – عدم فرض أية عوائق تمنع وصول إمدادات غير عسكرية إلى الضفة الشرقية للقناة.

5 – إحلال مراكز تفتيش للأمم المتحدة محل مراكز قوات الاحتلال على طريق القاهرة السويس، وفي نهاية الطريق من ناحية السويس يمكن لضباط العدو المشاركة مع مسئولي الأمم المتحدة في التحري عن طبيعة الإمدادات العسكرية.

**6** – يبدأ تبادل الأسرى والجرحى عقب إقامة نقاط التفتيش على طريق القاهرة السويس.

**النقطة الثانية:**

ويشير الجمسي في كتابه عن حرب أكتوبر أن النقاط تم تنفيذها باستثناء النقطة الثانية المتعلقة بالفصل بين القوات، فقد ظلت تحت البحث فترة طويلة؛ بسبب الحلقة المفرغة التي صنعها وفد العدو، ومراوغاته وحرصه على كسب الوقت، وهو ما أدى إلى أن يعلن المتحدث الرسمي في مصر بعد الاجتماع السابع عشر يوم 28 نوفمبر **1973** وقف

مباحثات الكيلو متر 101؛ بسبب مراوغة العدو المستمرة في تنفيذ البند الثاني من اتفاق النقاط الست، وتحميله النتائج المترتبة على عدم تنفيذها لقرارات مجلس الأمن.

أخذ الحديث عن تسريح بعض الدفعات القديمة يتناثر بين الجنود، حيث كان ظهور وزير الخارجية الأمريكي هنري كسنجر في ساحة التفاوض، وزيارته للقاهرة، وإعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وأمريكا، التي ظلت مقطوعة منذ هزيمة 1967، فضلا عن تبادل الأسرى - من عوامل الإحساس بالأمل في الانتقال إلى الحياة المدنية.

**تجاعيد الكهولة:**

رأيت بيننا جنودًا من الاحتياطي الذين شهدوا حرب اليمن والهزيمة وظلوا حتى حرب رمضان. بعضهم أمضى ما يقرب من خمسة عشر عامًا، وبعضهم ظهرت تجاعيد الكهولة على جبينه، أو أخذت أخاديد الشيخوخة تغزو وجهه. هناك حلم بمعاودة الحياة في ظل الأسرة والعائلة والأصدقاء ومواصلة العمل في التخصصات والأنشطة التي تعودوا عليها قبل الحياة العسكرية.

قيل إنه سيتم تسريح دفعة كل شهر أو كل ثلاثة أو كل ستة شهور. وستخرج كل مجموعة متقاربة في سنوات التجنيد دفعة واحدة. وتزايد الكلام في الموضوع؛ لينثر الفرح في قلوب المجندين المستبقين وأسرهم، مع أنه كان مجرد تكهنات وشائعات، فقد أحيا في النفوس أمل انتهاء الحياة العسكرية، بعد أن خاضت قواتنا القتال على نحو غير مسبوق، وأشاد العالم بأداء الجندي المصري، وتجاوزه للقصور في التسليح والإمكانات.

**تجدد الأمل:**

بالنسبة لي كان فرحي أكبر من كل الزملاء؛ لسبب بسيط، هو تجدد الأمل بمواصلة الدراسة في الجامعة، بعد أن بلغت الثامنة والعشرين من العمر، وقضيت قرابة ست سنوات محرومًا – بالقانون وتعنت مسجل الكلية – من متابعتي للدراسة في ظل التجنيد. كان يمكن لمسجل الكلية أن يمتنع عن تسليمي شهادة التخرج ما لم أقدم شهادة تأدية الخدمة العسكرية، كما فعل مع زملاء آخرين، ولكنه رفض بسبب شكواي للمستويات

الأعلى، وتمسك بحرفية القانون. لم أكن فرحًا لأنني سأخلع الزي العسكري بقدر ما كنت فرحا لأنني سأذاكر، وأدخل الامتحان، وأحصل على الشهادة الجامعية.

لدي عاطفة قوية للمشاركة في الحرب إذا وقعت، بيد أن الانتظار الطويل للمجهول تحت رداء العسكر، كان قاصمة الظهر نفسيًّا ووجدانيًّا. عندما تم العبور، بل عندما أعلن البيان الأول للعبور استرحت واستراح الناس جميعًا؛ لأن حالة الفراغ القاتل التي كانت تسمى "اللاحرب واللاسلم" قد انتهت، وراح الناس يلتقطون أنفاسهم، ويبحثون عن مستقبلهم في دوامة الحياة المدنية بصعوباتها ومشكلاتها ومتاعبها المزمنة.

### تغيرات في القيادة:

كانت الأحوال داخل القوات المسلحة تشهد تغيرات في القيادة. ففي الثاني عشر من ديسمبر تمت إقالة الفريق سعد الدين الشاذلي، رئيس الأركان الذي خطط للعبور، والقائد الميداني الحقيقي للمعركة، وتعيين الفريق محمد عبد الغني الجمسي رئيس العمليات بدلا منه. وفي الثالث عشر منه تم تعيين اللواء سعد مأمون، قائدًا لقوات تصفية الثغرة في الغرب.

وجرت في 21 ديسمبر مباحثات جنيف بمقر الأمم المتحدة برئاسة اللواء طه المجدوب، والجنرال موردخاي جور، والجنرال سلاسفو بعد توقف مباحثات الكيلو 101. وعقب ست جلسات فاشلة؛ بسبب مراوغات العدو، توقفت المباحثات يوم 9 يناير 1974. وفي يوم 10 يناير أعلنت الولايات المتحدة أن الدكتور كسنجر – وزير الخارجية - في طريقه إلى مصر؛ للمساعدة في التفاوض، وكانت مباحثات أسوان بين أمريكا ومصر.

### كسنجر والسادات:

وصل كسنجر إلى أسوان في الحادي عشر من يناير 1974؛ لإجراء مباحثات مع الرئيس السادات؛ لوضع اتفاقية عن "فك الاشتباك" والفصل بين القوات، وهو البند الثاني من النقاط الست التي أخفقت محادثات الكيلو 101 وجنيف في التوصل إلى حل بشأنه. وأخذ كسنجر في جولات مكوكية بين مصر وتل أبيب، ووافق السادات على تخفيض حجم القوات على الضفة الشرقية للقناة لتصبح 7000 رجل، 30 دبابة، وعددًا محدودًا من

قطع المدفعية كما يقول الجمسي في مذكراته عن الحرب، بعد أن كان لنا عشرة أضعاف عدد الرجال الذين تم الاتفاق عليهم، ونحو 300 دبابة شرق القناة، وعدد كبير من قطع المدفعية لدعم القوات في سيناء. ولم يكن هناك ما يدعو عسكريًّا أو سياسيًّا - كما يقول الجمسي - إلى قبولنا هذا التخفيض للقوات والتسليح!

### فك الاشتباك:

وفي يوم 17 يناير أذيع اتفاق " فك الاشتباك "بين مصر والعدو، وبدا تنفيذه يوم 25 يناير وكانت الخطوة الأخيرة فيه يوم 5 مارس 1974م. ونتيجة لهذا الاتفاق احتفظت القوات المصرية بخطوطها التي وصلت إليها في سيناء بعد العبور، وانسحبت قوات العدو شرقا بما في ذلك قواته التي كانت في غرب القناة، وهو أول انسحاب من أرض محتلة تحت ضغط القوة العسكرية المصرية في حرب رمضان.

في هذه الفترة بدأ الإعداد الفعلي لتسريح مجموعة من دفعات المجندين القدامى، وشاركت في إعداد شهادات تأديتهم الخدمة العسكرية، وراحوا يسلمون مهماتهم من سلاح وعهدة وغير ذلك، وتم منحهم إجازة لمدة أسبوعين قبل توديعهم، وعرفت أنني سأخرج في المجموعة التالية المقرر تسريحها في أول مايو 1974م، وكان لها اسم حركي نسيته.

### موضوع الزواج:

شغلتني أمي - رحمها الله - قبل الحرب بموضوع الزواج. فقد وصلت الثامنة والعشرين وتزوج زملائي في القرية كلهم تقريبا إلا أنا! وأحسست أنه كلما مضى العمر أصبحت رغبتي تتضاءل في الزواج، ولكن إلحاح أمي كان كبيرًا، واختارت لي فتاة من القرية كانت في مرحلة التعليم الثانوي التجاري، وأجرت اتصالا مع أمها أو أختها، وكانت الفتاة عديلة (أخت زوجة) زميل لي، وقابلتُ الأم واتفقت معها وفهمت منها أنها فضلتني على آخرين. وشاع الخبر في أرجاء القرية انتظارًا للإجراءات الرسمية من شبكة وعقد قران وزفاف، وهو ما توقعناه عقب التسريح من الجيش مباشرة..

لم تكن مشاعري واضحة تجاه الفتاة. اختيار أمي من حيث أدب الفتاة وأخلاقها ورزانتها جعلني أوافق، فأنا أريد بناء أسرة ومواصلة الحياة، وهو غاية من يريد العيش في سلام.

**حق القرابة:**

جاءت الرياح بما لا يشتهي السَّفِن. كان هناك زميل آخر قريب للفتاة تقدم إليها، وأعلن أن القرابة تجعله أحق بها وفقًا لتقاليد الريف آنئذ حتى لو لم تكن الفتاة راضية، فضلا أن حال أسرته المادية أفضل من حال أسرتي، فأبوه تاجر يملك مالا كثيرًا بمعايير الغنى في القرية، ويملك عددًا من الأفدنة الزراعية، وبالنسبة لأبي فهو لا يملك شيئًا من ذلك، وإن كان له سجل تجاري مثله. واستخدم الزميل بعض أقاربه المؤثرين ليضغطوا على أسرة الفتاة كي تقبل به!

أذكر أن كيسنجر كان يتنقل بين مصر وفلسطين المحتلة، وكانت نشرات الأخبار تتحدث عن الثلوج التي تسقط في مدينة القدس العتيقة وتعوق تحرك موكبه وهو يسعى لفض الاشتباك وتثبيت وقف إطلاق النار، وكنت مع بعض أقارب الفتاة التي خطبتها من أمها (توفي والدها من سنوات بعيدة)؛ نزور مريضة قريبة لهم في مستشفى المعادي العسكري بالقاهرة، ويومها كان جثمان المطربة الشهيرة أم كلثوم يهبط من مصعد مجاور للمصعد الذي هبطنا فيه بالمستشفى، حيث قضت نحبها بعد صراع مع المرض.

**استغربت واندهشت:**

بعد عودتنا إلى القرية فوجئت بكلام يتناثر حول الزميل الذي ينافسني على خطبة الفتاة، ملخصه أنه استخدم كل الأسلحة المتاحة ليحقق هدفه، وأنه نجح في مسعاه، وتحدد يوم قريب للاحتفال بالخطبة وتقديم الشبكة!

استغربت الأمر واندهشت! كيف يرجع الناس في كلامهم وينقضون عهدهم ببساطة ودون أن يقدموا سببًا مقنعًا أو اعتذارًا مقبولا. كانت ثقتي مؤكدة في كلام الأم حين لمّحت أن الزميل المذكور حين علم أن هناك كلامًا مبدئيًّا من جانبي للخطبة، ذهب إليها، وردت عليه ردًّا قاطعًا بالرفض، وشرحت لي الأسباب، فكيف تحول اتجاه الريح؟

**حديث الساعة:**

بات الموضوع حديث الساعة في القرية التي تعد أسرة واحدة أو دارًا واحدة لا يخفى فيها شيء. صار الأمر بالنسبة لي منتهيًا، فقد تعودت أن أتوقف عن الطعام حين أجد أحدًا ممن لا يأكلون معي ينظر فيه. لم يكن الأمر رغبة صادقة من جانب الزميل المنافس في بناء أسرة، بقدر ما كان نوعًا من إثبات الوجود القاهر. عندما أكون فقيرًا يحترم نفسه، وفي الوقت نفسه أكون أول الخريجين، وحين أكون متواضعًا وأفوز بجوائز كبيرة، وحين أعيش في أعماق الريف، ويظهر اسمي ورسمي في الصحف والمجلات، وحين لا أرفع صوتي في القرية، ولكنهم يسمعون صوتي في الإذاعة .. كل ذلك يغري بالمواجهة مع شخصي الضعيف؛ لإثبات أن الآخر أقوى وأفضل!

المسألة لم تكن أبدًا اختيار فتاة لتكون زوجة وإثبات الأحقية بها، بدليل أن الخطبة انتهت إلى فشل بعد شهور قليلة، ولكنها كانت محاولة تعويض لقصور في نواح أخرى لا تعنيني، وما فكرت فيها، كنت أهتم بشئوني الخاصة، ولا أنافس أحدًا، ولا أطمع فيما في يد أحد. ولكن الأمر بدا واضحًا، وهو ضرورة أن أدفع ضريبة تفوقي في كل مراحل حياتي منذ الطفولة، ولعلي ما زلت أدفعها حتى الآن؛ بسبب إصراري على العمل، وبذل الجهد، وتأدية واجب قد يهمل الآخرون أو يقصرون في أدائه!

**أمي تغلي:**

ظهر هناك من يريد إشعال النار بيني وبين الأطراف الأخرى، وحين تأكدت أن أهل الفتاة رضخوا تمامًا للمسار الجديد. لزمت الصمت، وصرفت النظر عن الموضوع تمامًا. أمي هي الوحيدة التي كانت تغلي من الداخل، وأفرغت غضبها في إحدى قريبات الفتاة، ولمتها على ذلك لومًا عظيمًا، ولكنها أفهمتني أنها لم تستطع كظم غيظها من سلوك أسرة الفتاة الذي كان مخاتلا وغادرًا!

في إحدى الإجازات، وجدت بعض أقارب الفتاة يدعونني وأنا أمام المسجد مع بعض الناس لحضور احتفال شبكتها على الزميل المنافس. بعد انصرافهم وجدت جارًا من الجيران وكنت أعده مثل أبي يلتفت إليَّ ويتكلم في غضب، ويتلفظ بألفاظ قاسية ضد

الداعين، ويتحدث عنهم وعن سلوكهم المنافي للأصول بعنف شديد، ثم يقول لي في صيغة الأمر:

- البس واذهب وأثبت أن الأمر لا يهز شعرة من رأسك! هيّا لا تتردد!

**ماء بارد:**

كان كلام الرجل مباغتًا وقويًّا ومقنعًا، أدرته في رأسي بسرعة، وذهبت إلى البيت على الفور، وارتديت بدلة جديدة. كنا نكتفي في مثل هذه المناسبات بارتداء الملابس العادية أو الجلابيب. وذهبت إلى الاحتفال، وتعلقت بي العيون، وساد صمت لبعض الوقت، فقد كان حضوري مدهشًا وغير متوقع، ومررت على الحاضرين من أهل العروسين والمدعوين أحييهم وأنا أبتسم في تلقائية نافيًا – ضمنًا – أي نوع من الهزيمة النفسية كما تخيل بعضهم، كانت الحفاوة بي واضحة. مال علي أحدهم قائلا:

- لقد سكبت عليهم ماء باردًا!

لم أرد، واكتفيت بابتسامة هادئة، وعندما عدت إلى البيت أحسست أن أمي غير راضية، ولكني أفهمتها أن الأمر ليس خطيرًا، وأن كل شيء نصيب!

أما أبي فقد رأى أن تصرفي هو الصواب، وقال لي ما معناه: إن الله يدخر لي ما هو أفضل.

ظل حضوري لحفل الشبكة حديث القرية بصورة وأخرى لبعض الوقت، وإن كان في نهاية الأمر قد نزع فتيل خلاف لن يعود بالخير على أي طرف من الأطراف.

**الثقافة الأسبوعية:**

في الوحدة كنت أعد الأيام الباقية على التسريح من أجل حلم الدراسة الجامعية، وانشغلت في الشهور الباقية عليه بالكتابة إلى نشرة ثقافية متواضعة باسم "التحرير"، تحولت إلى مجلة باسم "الثقافة الأسبوعية" ملحقة بمجلة الثقافة الشهرية، التي كان يرأسها في البداية يوسف السباعي، ثم تولاها الدكتور عبد العزيز الدسوقي.

نشرت في التحرير أو الثقافة الأسبوعية موضوعات قصيرة تحت عنوان "يوميات من الميدان"، كان موضوعها في الغالب عن العبور وأدب الحرب، وقضايا نقدية. وقد خصصت الثقافة الأسبوعية عددًا كاملا من أعدادها لتنشر أول مجموعة قصصية لي تحت عنوان "رائحة الحبيب"، وقد ناقشها الدكتور شكري محمد عياد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البرنامج الثاني للإذاعة (اسمه الآن البرنامج الثقافي)، ورأى أنها رواية في لوحات؛ لأن البطل حامد الشيمي كان هو الشخصية الرئيسة في القصص السبع التي اشتملت عليها المجموعة.

**القصة والنقد:**

وقد أثنى عليها الدكتور شكري ثناء طيبًا، وتمنى الأستاذ يوسف الشاروني في لقاء خاص أن أتفرغ لكتابة القصة والرواية وأترك النقد. فالقصة مفيدة على كل المستويات، وبين لي أن القصة حين تنشر ينال صاحبها مكافأة، وحين تعد للإذاعة يأخذ عليها أجرًا، وعندما تقدمها السينما يحصل المؤلف على مبلغ كبير. أما النقد فلا يعود على صاحبه إلا بالمتاعب والأحقاد من جانب من تكتب عنه ومن تتجاهلهم، فمن تكتب عنه يريد مدحًا على طول الخط، وقصر الكتابة عليه دون غيره، أي تتحول إلى ناقد ملاكي، وإذا تعرضت لمستوى رديء، أو ذكرت مآخذ أخرى صرت عدوًّا، ومن لم تكتب عنه يكرهك ويسعى للنيل منك، ويهتبل الفرصة ليهاجمك في أية مناسبة!

وقد تعرضت لكثير من الأحقاد والمتاعب لهذا السبب، وكثيرًا ما سمعت مقولة: "النقاد مثل ذباب الخيل" يرددها على مسمعي بعض الموتورين في مناسبات مختلفة؛ لأنني لم أكتب عنهم أو أتناول إنتاجهم الرديء.

**رتبة رائد:**

وأذكر أن أحدهم كان ضابطًا مهندسًا في الجيش يكتب بعض الروايات التي تفتقد الرؤية الناضجة والأسلوب السليم. فاجأني ذات يوم وأنا في زيارة لمجلة الثقافة قبيل تسريحي من الجيش، كنت أرتدي ملابسي المدنية، وكان هو يتباهى بملابسه العسكرية التي تحمل رتبة رائد، وتصور أن رتبته ستخيفني أنا المجند الذي يحمل درجة عريف. قال لي ورئيس التحرير يسمع:

- لماذا تهاجمني؟

قلت له:

- كيف؟

قال بانفعال:

- هاجمتني عندما كتبت عن روايتي (....)!

قلت له بهدوء شديد:

- أولا: لم أهاجم شخصك بكلمة. ثانيًا: ما كتبته نقد أدبي يقوم على أسس وأسباب. ثالثًا: ينبغي أن تفيد من النقد ولا تعده هجومًا. رابعًا: أعترف أنني أخطأت حين بذلت وقتي وجهدي لأتناول عملا لا يستحق القراءة ولا الكتابة!

تكهرب الجو، وتدخل رئيس التحرير بكلمات للترضية وإغلاق الموضوع.

ساعتها أحسست بقيمة نصيحة الأستاذ الشاروني، وليتني أخذت بنصيحته؛ كنت وفرت على نفسي كثيرًا من المتاعب، وركزت في مجالات القصة والرواية، ولكنها الأقدار تضعنا حيث تريد لا حيث نريد نحن.

**يوم الأرض:**

في هذه الفترة أعلن المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عن مسابقة بعنوان "يوم الأرض"، تتناول تقديم بحث عن الأدب في فلسطين المحتلة، وكان لدي كتاب عن شعرائها، تقدمت به إلى المسابقة، وفزت بالجائزة. وكان هذا نوعًا من الانتعاش المعنوي في ظل ظروف لم تكن مريحة بالنسبة لي على المستوى الشخصي.

وبعد إعلان الجائزة عرفت عددًا من الأدباء عن قرب في المجلس الأعلى للفنون والآداب؛ منهم الأستاذ فوزي العنتيل، وهو شاعر رقيق عرفني به الدكتور عبده بدوي، له شعر جيد، ومع أن نزعته كانت أميل إلى الرومانتيكية فقد كان منحازًا إلى البسطاء والفلاحين، وقد ترجم بعض الأعمال الأدبية لأدباء من أوربا الشرقية التي كانت خاضعة

للشيوعية آنئذ. وللأسف لم يلق العنتيل اهتمامًا يليق بقدراته الأدبية وموهبته الشعرية، لا في حياته ولا بعد مماته، وسمعت أن هناك بعض الرسائل الأكاديمية كتبت عنه، ولكني لم أطلع عليها، كما عرفت الأستاذ مظلوم خضر، والأستاذ صلاح طنطاوي الذي كتب المسلسلات التلفزيونية الإسلامية، وكان له أخ يعمل مخرجًا في التلفزيون اسمه أحمد الطنطاوي، أخرج عددًا من المسلسلات في الاتجاه ذاته، ولعلي سمعت أن له زوجة مخرجة أيضًا شاركت في بعض الأعمال الدرامية التاريخية.

**القرامزة:**

كانت دار الهلال في ذلك الحين تصدر مجلة المصور ومجلة الهلال، وملحقها مجلة الزهور، إلى جانب مجلة حواء، وكتاب الهلال، وروايات الهلال، ومجلتين للأطفال (سمير وميكي)، وكان يوسف السباعي رئيسًا لمجلس الإدارة وأبرز مساعديه: أمينة السعيد وصالح جودت.

كان صالح جودت منذ الستينيات يواجه حملات الشيوعيين المصريين على الثقافة الإسلامية التي يصفونها عادة بالرجعية والفكر المحافظ والثقافة المتخلفة، وغير ذلك من أوصاف تنتقص منها، وتضع ثقافتهم اليسارية في إطار التقدم والتحرر والاستنارة، وكان يزعجهم بمقالاته وآرائه العنيفة، وكان يسميهم بالقرامزة. وقد فتح الهلال والزهور أمام الأصوات الأدبية والفكرية التي حجبها اليساريون طويلا، ولم يمنع اليساريين من النشر أو المشاركة، فقد كان في هذا الجانب غير متعصب وكان يسمح لهم بنشر كتبهم ومقالاتهم وقصصهم وأشعارهم، ولا يغلق الأبواب في وجوههم مثلما يفعلون حين تتاح لهم فرصة السيطرة على منبر من المنابر!

**مجلة الزهور:**

كانت مجلة الزهور هي التي تعني الشباب، مع أن الراسخين كانوا ينشرون فيها إنتاجهم أيضا. أشرف على الزهور أربعة من النقاد والأدباء وهم: يوسف الشاروني وأبو المعاطي أبو النجا وعلاء الدين وحيد وعبد العزيز الدسوقي. وكان يدير التحرير نصر الدين عبد اللطيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان رجلا طيبًا هادئًا، يسكن بالقرب من دار الهلال، التي قضى فيها

أيام شبابه وكهولته، وكان يكتب مقالات طريفة، ويرد على رسائل الأدباء في الهلال والزهور، وعاصر عددًا من رؤساء الإدارة والتحرير الذي تتابعوا للعمل في دار الهلال ومطبوعاتها.

**أديب عصامي:**

أما سكرتير التحرير فهو عبد العال الحمامصي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أديب عصامي من الصعيد - من بلدة إخميم على ما أذكر – وجاء إلى القاهرة في فترة مبكرة من عمره، وعمل في بعض المهن المتواضعة؛ بحكم أن مؤهلاته الدراسية كانت متواضعة أيضًا، وحدثني أنه عمل في بعض شركات الإنتاج السينمائي، ورأى هناك ما لم يعجبه من علاقات ومعاملات، وقد ساعده يوسف السباعي وثروت أباظة ليعمل في المجال الصحفي، فعمل في دار الهلال، ثم في مجلة أكتوبر التي صدرت عن دار المعارف، وظل بها حتى تجاوز سن التقاعد، ثم رحل إلى بارئه.

عندما صدرت مجلة القصة عن وزارة الثقافة عام **1964**، برئاسة محمود تيمور، وإدارة محمد عبد الحليم عبد الله – رحمهما الله – خصصت عددًا للشبان من كتاب القصة القصيرة، وكان من بينهم عبد العال الحمامصي، وقد علق على قصص الشبان عدد من كبار النقاد، منهم محمد غنيمي هلال ومحمد مندور وعلي الراعي، كان معظم الشبان من اليساريين، ولكن مجلة القصة منحت من نشرت لهم جواز مرور إلى الحياة الأدبية.

**كان مهذبًا:**

نشر عبد العال الحمامصي فيما بعد بعض القصص، وانغمس في الحياة الأدبية ونادي القصة وشارك في البرامج الثقافية بالإذاعة، وصار ضيفًا شبه دائم عليها، وفيما بعد قدم عددًا كبيرًا من الكتاب الشباب، وحضر مؤتمرات أدباء الأقاليم، وكثيرًا من الندوات والمؤتمرات، وكان له دور بارز في اتحاد الكتاب ومجلس إداراته ونشاطاته، وناضل ليفوز ببعض الجوائز الثقافية؛ جائزة الدولة التشجيعية وجائزة التفوق، وكان له باب شبه أسبوعي على صفحتين في مجلة أكتوبر، ينشر فيه أخبار الأدباء، ويعرف بالكتب الجديدة، وظل مستمرًّا – فيما أظن - حتى رحيله، حيث لم أتمكن من متابعة المجلة بعد أن

سافرت للعمل في الخارج في التسعينيات. وحظي الرجل بعلاقات طيبة مع الأدباء من كل التيارات، فقد كان مهذبًا، ويمتنع عن الدخول في المناطق الشائكة والمواقف الحادة، وإعلان الرأي المباشر؛ ولذا كان يفوز في انتخابات اتحاد الكتاب بأكبر عدد من الأصوات التي تذهب للمشاركة.

**كان تعويضًا:**

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحدثني عن أحد أبنائه الذي يدرس الطب، وفرحته الغامرة بتخرجه، ولعل ذلك كان تعويضًا عما لم يحققه هو.

وقبل سنوات (أغسطس 2009) جاء نعيه في الصحف عن عمر يناهز 77 عامًا بعد صراع طويل مع المرض العضال، وقد ترك بعض المؤلفات بين مجموعات قصصية وأخرى في الدراسات الأدبية أو الحوارات الصحفية، ومنها «للكتاكيت أجنحة»، و«هذا الصوت وآخرون»، و«بئر الأحباش»، و«البوصيري .. المادح الأعظم للرسول»، و«القرآن معجزة كل العصور» رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد نشرتُ في الزهور عددًا من القصص والدراسات والحوارات الأدبية، وظللت أتواصل معها حتى تغيرت القيادات في دار الهلال، وجاءت الأحداث السياسية التي بدأت بزيارة الرئيس أنور السادات إلى القدس المحتلة، واتفاقيات كامب ديفيد، فكان افتراق في المواقف واختلاف في المسارات.

**مسلمون لا نخجل:**

في عام 1972 على ما أذكر نشر لي الأستاذ أنور الجندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقالا قصيرًا بمجلة إسلامية متواضعة اسمها "الاعتصام". وقد جعلت المجلة المقال افتتاحية لها، وكان عنوانه "مسلمون لا نخجل"، وهو العنوان الذي حمله أحد كتبي بعد نحو عامين. كنت قد كتبت المقال تحديًا لمناخ عام يعيش في ظلال الاشتراكية، والعمل الاشتراكي والهتاف بالتقدمية، ولعن الرجعية، ونحو ذلك من شعارات تزدري الإسلام والثقافة الإسلامية، وتهمش كل

من يهتف بالإسلام، أو تعزله عن السياق الأدبي والثقافي السائد، أو تمنعه تمامًا من النشر والخطاب العام.

اتخذت مجلة "الاعتصام" من مبادئ الجمعية الشرعية منهجًا لها، وكانت توزع أمام مساجد هذه الجمعية منذ نشأتها في عام 1938 بشارع الخيمية بالقرب من الأزهر الشريف، وقد تبنت التعريف بالإسلام والدفاع عنه، ومحاربة البدع والضلالات، والدعوة إلى الإسهام في المشروعات الخيرية. فضلا عن الدفاع عن المسلمين في شتى أرجاء العالم العربي والإسلامي، بدءًا من قضية فلسطين والمغرب واليمن والجزائر وليبيا، إلى قضايا المسلمين في الفلبين، وبلغاريا، والبوسنة والهرسك، وإندونيسيا وجامو وكشمير وأفغانستان والسودان، وغيرها .. حتى صارت في السبعينيات وما بعدها المجلة الإسلامية الأولى في مصر والعالم العربي.

**الاكتفاء الذاتي:**

وكان مؤسسها الشيخ أحمد عيسى عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ قريبًا لمؤسسي الجمعية الشرعية من آل خطاب السبكي، الذين أسسوا الجمعية الشرعية، وكانوا أول من دعا إلى الاكتفاء الذاتي من النسيج، ومقاطعة منسوجات إنجلترا دولة الاحتلال، وذلك بالدعوة إلى استخدام الأنوال في المنازل لنسج القماش الشعبي، ولقيت دعوتهم استجابة كبيرة في أرجاء القطر.

وقد حافظ مؤسس الاعتصام على موقف المجلة إزاء الحكومات المتعاقبة في مصر، وظل رافضًا للاستبداد والطغيان والظلم والانحراف، وقد تأبّت في فترة عبد الناصر على تأييده أو مباركة خطابه السياسي، بل إنها وقفت موقفًا معاديًا للانحرافات الفكرية والنظريات المستوردة.

وقد ولد الشيخ أحمد عيسى عاشور في عام 1899 بقرية "الشنباب" من أعمال مديرية الجيزة، لأسرة متدينة، ووالد يعمل بالتجارة .. تعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وأتم حفظ القرآن الكريم وهو في الخامسة عشرة من عمره، وحدثني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه عمل

بالتجارة لفترة محدودة، والتحق عام 1917 م بالأزهر الشريف .. وفى عام 1931 حصل على "شهادة العالمية"، وكان قد عمل مأذونا نحو أربع سنوات (1927-1931) بقريته. شارك الشيخ بقلمه في تحرير مجلة "الفضيلة" الناطقة بلسان الجمعية الشرعية، حتى أسس مجلة "الاعتصام"، وذلك بعد وفاة الشيخ محمود خطاب السبكي عام 1933 بخمسة أعوام، وخلفه نجله الشيخ أمين في رئاسة الجمعية الشرعية.

**تربية إسلامية:**

عانت الاعتصام في ظل حكومات عبد الناصر والسادات ومبارك من متاعب عديدة، وأوقفتها السلطة في سبتمبر عام 1981م، ثم عادت إلى الصدور مرة أخرى عام 1985م، واستمرت حتى توقفت عام 1990؛ بحكم القانون الذي أصدره السادات، والقاضي بإلغاء ترخيص الصحف بوفاة أصحابها، وهو ما حدث عقب وفاة الشيخ أحمد عيسى عاشور مباشرة.

ربى الشيخ أولاده تربية إسلامية حسنة، فحفظوا القرآن الكريم، ودرسوا في الأزهر الشريف، ومنهم من اكتفى بما تلقاه في بعض المراحل بالأزهر الشريف ليتفرغ لعملية النشر، ومنهم من استمر حتى حصل على الدكتوراه، ولكنهم جميعًا خدموا الإسلام بما نشروه من كتب ومطبوعات، لم يكن الهدف من نشرها الربح والتجارة، بقدر ما كانت الغاية هي التعريف بالإسلام والدفاع عنه، وخدمة قضايا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بالكلمة الحرة الصادقة.

قابلت الشيخ مرات عديدة في الخيمية، وبعد انتقال الأسرة إلى المعادي، حيث أقاموا منزلا بجوار جمعية الفتح الخيرية، التي أسهموا في إنشائها لخدمة الناس عامة، وكانت مستشفى الفتح في مقدمة الخدمات التي أفادت الفقراء والبسطاء، وقد استقدموا لها أحدث الأجهزة الطبية المتاحة في فترة الثمانينيات والتسعينيات.

**أعلام الدعوة:**

في منزل المعادي حضرت لقاءات عديدة؛ تكريمًا لأعلام الدعوة في مصر والعالم العربي، وكان يحضرها الشيخ وأبناؤه، وهي مناسبات للحديث في شئون المسلمين ومتاعبهم

وطموحاتهم، وعرفت من خلالها كثيرًا من الحقائق والمعلومات حول ما يجري في العالم العربي والإسلامي.

كان يدير الاعتصام الحاج حسن عاشور، وهو أكبر أبناء الشيخ، وكان هو المسئول عنها إداريًّا وتحريريًّا، وتولى الدكتور محمد عاشور الابن التالي للحاج حسن رئاسة التحرير، بحكم عضويته في نقابة الصحفيين، وكان في الوقت نفسه مديرًا لتحرير جريدة التعاون الخاصة بمخاطبة الفلاحين والمزارعين، مع الاهتمام بشئون الزراعة، وكان هناك أبناء آخرون للشيخ يتولون الشئون الإدارية، ونشر الكتب والمكتبة، ومنهم طه ومصطفى وعبد اللطيف. أما الابن حسين - وهو الثالث في الترتيب - فقد انفرد بإصدار مجلة المختار الإسلامي، من خلال دار النشر التي حملت الاسم نفسه وكانت له مكتبة في شارع الفجالة.

### متاعب الرقابة:

توطدت علاقتي بالحاج حسن، وصرت عضوًا أساسيًّا في تحرير "الاعتصام"، بعد تطويرها شكلا وموضوعًا، وطبعها في مطابع الأهرام التجارية بالقرب من كوبري أبي العلا، وكنا نسهر لوقت متأخر من الليل عدة أيام قبيل إصدار العدد الجديد من المجلة، وأضطر للمبيت في القاهرة، وكان العمال والموظفون في المطابع يهتمون بالمجلة اهتمامًا خاصًّا ،ويتحملون المتاعب التي تفرضها الرقابة على الصحف التي فرضها عهد جمال عبد الناصر بحذف بعض الموضوعات أو تعديلها، وبالمناسبة فقد كان الرقيب طلعت خالد - وهو وكيل وزارة الإعلام – من المتعاطفين مع المجلة، وكان يعدل بخط يده في الموضوعات بحيث تبقى الغاية منها، وفي الوقت نفسه لا تقع المجلة ولا كتابها تحت طائلة القانون. وكان الرجل من أهل سيناء الطيبين المحبين للخير.

### الإخلاص والصدق:

كانت إمكانات المجلة محدودة، ولكنها بالإخلاص والصدق حققت نجاحًا كبيرًا، وكان توزيعها يرتفع عددًا بعد عدد؛ لدرجة أن شركتي التوزيع الكبيرتين وهما الأهرام والأخبار

كانتا تتنافسان على توزيعها، فقد كانت تحقق لهما عائدًا أفضل من عائد توزيع المجلات القومية المتراجع. لقد وصل توزيع بعض الأعداد من الاعتصام إلى خمسين ألف نسخة، بينما كانت المجلات القومية يتراوح توزيعها بين خمسة آلاف نسخة وعشرة آلاف في أحسن الأحوال.

**صورة جديدة:**

انتقلت الاعتصام من الشكل الروتيني المعتاد للمجلة الإسلامية، التي تطبع بطريقة بدائية، وتدور في أفق تفسير بعض الآيات القرآنية، وشرح حديث شريف، وتناول قضايا فقهية وعقدية، وترجمة لبعض الشخصيات، وعرض لبعض المواقف التاريخية والفتاوى والمقتطفات، إلى صورة جديدة في الطبع والإخراج، وتزويدها بالصور والخرائط والرسوم التعبيرية، ودعمها بالخط الرائع الجميل لأفضل خطاطي زمانه، وهو الحاج زايد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إضافة إلى تناول الواقع الإسلامي وقضاياه الداخلية والخارجية في مادتها الشهرية، وهو ما جذب إليها جموعًا غفيرة من القراء.

ولا ريب أن الفضل - بعد الله - يعود للحاج حسن في تطوير المجلة وتحويلها إلى المجلة الإسلامية المعارضة الوحيدة في السبعينيات قبل ظهور الدعوة وصحف المنابر السياسية والأحزاب.

**كان مثقفًا:**

الحاج حسن من مواليد 1929، وكان مثقفًا وحافظًا للقرآن الكريم والحديث الشريف، وحضر إلى القاهرة في بداية الصبا، وكان في الثانية عشرة وعمل في مجال الطباعة والنشر بدار الشعب، فكان مثالا للجدية وعلو الهمة .. كما كان كاتبًا موهوبًا، وخطيبًا بارعًا، وتتلمذ في الصحافة على كتابات ومقالات وأسلوب الكاتب الصحفي "محمد التابعي" .. وفى الأدب والثقافة قرأ أعمال الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، وخاصة عبقرياته وإسلامياته .. وامتلك السيطرة على اللغة، فقد كان ضليعًا في قواعد النحو يتقن الإعراب ولا يلحن، ويصحح لمستمعيه كثيرًا من الأخطاء النحوية واللغوية، وكان فقيهًا في دينه،

مستشهدًا دائمًا بأحاديث رسول الله ﷺ، قارئًا لكتاب الله باستمرار، مجودًا قراءته، مجتهدًا في تلاوته، خاشعًا في صلاته.

تقلد بعض المناصب الرفيعة، منها عضوية أمانة محافظة القاهرة، وأمانة صندوق اتحاد الناشرين، ورئاسة قسم المناقصات والمشتريات بمؤسسة دار الشعب الحكومية.

ارتبط في شبابه بالرعيل الأول لعلماء الجمعية الشرعية وأعلامها، ومنهم الشيخ درويش الجعبري، الذي غادر بلدته "الخليل" بفلسطين لاجئًا إلى مصر، كما جاور مفتي الجمعية الشرعية الشيخ علي حلوة، والإمام أمين خطاب السبكي، حيث تتلمذ على يديهما، وتأثر بهما، فكانوا قدوة له ومثلا.

### كان منفتحًا:

وكان مهمومًا بقضايا المسلمين والقضايا العامة، وإلى جانب ذلك كان منفتحًا على الناس جميعًا، ولديه قدرة على استيعاب المواقف والأشخاص أيًّا كانت الظروف والأحوال، وكان يسعى دائمًا إلى الإفادة من كل العناصر التي تقوي الدعوة وتنهض بها، كما كانت لديه قدرة على المناقشة والحجاج، وقد اعتقل أكثر من مرة بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين، وتعرض في المعتقل إلى المهانة والقسوة والتعذيب، ولكنه لم يبح بشيء من ذلك إلا نادرًا.

كانت لذته الكبرى هي تحرير الاعتصام، وكان يتفنن في اختيار العناوين الجذابة، وكان بعض الأصدقاء يقول: إن الاعتصام هي "روز اليوسف" الإسلاميين. وأذكر أنه بعد توقف المجلة، نقل هوايته إلى الكتب الحركية، فكان يكتب عناوينها كأنها عناوين الاعتصام، وهو ما يجعل العنوان طويلا، ولكنه كان يشد القراء.

### طفرة كبيرة:

في السبعينيات شهدت عملية النشر طفرة كبيرة، وتصدر الكتاب الإسلامي هذه الطفرة، ولم تكن إمكانات المجلة تسمح بتمويل دار نشر كبيرة، إلا أنه عن طريق علاقاته المتشعبة مع تجار الورق وآلات الطباعة والناشرين في مصر والعالم العربي،

تمكن من تحويل دار الاعتصام المتواضعة؛ لتقوم بدور كبير في نشر الكتب بأسعار مخفضة، فأقبل عليها الشباب الجامعي وغيرهم، واستقطب عددًا من الكتاب المرموقين لنشر كتبهم ومؤلفاتهم، وساعده اهتمامه بإخراج الكتب في صورة جيدة وغلاف فاخر، يرسمه كبار الرسامين في تغيير الصورة الذهنية التي كانت ترى الكتاب الإسلامي شاحبًا أو باهتًا على ورق متواضع.

مهمة النشر – وخاصة في جانب التمويل – تبدو صعبة للغاية، وخاصة أن بيع الكتب لا يتم في فترة قصيرة، وقد يستغرق بيع كتاب سنوات طوالا؛ مما يجعل عائده في حكم المعدوم، ولكن الرجل تغلب على ذلك بوسائل عديدة، منها تسهيل مهمة مكتبات التوزيع، بتوسيع هامش أرباحهم، والدخول إلى مجال البيع عن طريق شركات توزيع الصحف التي تتقاضى عمولات كبيرة، ولكنها تفيد توزيع الكتاب بالإعلان عنه في الصحف، فضلا عن تيسير عرض الكتاب على الجمهور، فيراه القارئ على فرش بائع الصحف بامتداد مدن الجمهورية، وهذا أفضل من ترك الكتاب محبوسًا بين أربعة جدران لدى المكتبات، فيستغرق توزيعه وقتًا طويلا، ولا يراه القارئ إلا في العاصمة وبعض المدن.

**دول الخليج:**

ومما ساعد على تحريك نشر الكتب، وتوفير بعض السيولة اللازمة لتسديد مستحقات تجار الورق وآلات الطباعة ومستلزماتها، أن دول الخليج اهتمت - بعد حرب رمضان وارتفاع أسعار النفط - بإنشاء المدارس والجامعات، وهو ما أنتج اهتمامًا بالكتاب بصفة عامة، والكتاب المدرسي بصفة خاصة، وأتاح فرصة كبيرة لدور النشر المصرية واللبنانية والسورية لتوريد كميات ضخمة من الكتب في تخصصات مختلفة، سواء للجهات الرسمية أو الخاصة. وفي المدارس والجامعات والمؤسسات الأخرى كانت هناك حركة دائبة لإنشاء مكتبات مدرسية أو جامعية أو عامة، تخدم الطلاب والباحثين والجمهور، وهي حركة امتدت لدرجة شراء المكتبات الخاصة والمخطوطات التي يملكها العلماء الكبار والراحلون بالسعر الذي يحدده أصحابها أو الورثة.

**مقاطعة مصر:**

هذه الحركة أفادت كثيرًا في نشر الكتاب، وفتحت مجالا – وخاصة في مصر – لازدهار حركة النشر، وإنشاء دور نشر عديدة. ولكن هذه الحركة - للأسف - تراجعت بعد مقاطعة مصر عقب توقيع معاهدة كامب ديفيد **1979**، ومطاردة الحركة الإسلامية تحت دعاوى التطرف والإرهاب، واعتقال الإسلاميين في سبتمبر **1981**، والمحاكمات التي جرت في عقدي الثمانينيات والتسعينيات، والعنف والعنف المضاد الذي ساد فيهما.

لقد تضاءلت حركة النشر في دار الاعتصام، وتكاثرت الديون، ودخلت السلطة على خط التراجع بتقدير جزافي للضرائب، وصل إلى عشرة ملايين جنيه، مع الدخول في قضايا أمام المحاكم؛ من أجل التخفيض، وانتهى الأمر إلى إنهاء المشروع، وتصفية الدار إلا من مكتبة صغيرة تعرض ما تبقى من كتب نشرت من قبل وكتب الآخرين!

بالطبع كان الحاج حسن قد أرهقته السنون، وتراجعت الصحة، ومتاعب الشيخوخة، فلم يستطع استعادة ما كان.

**رفيقًا بالفقراء:**

ويحتل الجانب الإنساني في حياة الحاج حسن مساحة كبيرة، فقد كان عطوفًا على أصحاب الحاجات، رفيقًا بالفقراء والمحتاجين، وكان يؤمن بما يسمى الصدقة المخفية - أي يعطي الباعة والحرفيين البسطاء ومن على شاكلتهم - فوق ما يستحقون من أجر، وكان حريصًا عند تناول الطعام في المكتب أن يتناول منه العمال والموظفون، وفي المناسبات كان يدعوهم إلى المنزل مع الكتاب والعلماء والضيوف.

كان لشدة شوقه أن يرى الاعتصام في أيدي القراء، يبذل جهده في أي عمل يذكره بها. وقد استطاعت الجمعية الشرعية أن تحصل على ترخيص بمجلة شهرية اسمها "التبيان" كان من وراء التخطيط لها، في البداية ظلت فترة تصدر بوصفها نشرة داخلية، وعندما حصلت الجمعية على الترخيص، تولى إدارتها لفترة حتى منعته الظروف الصحية من

مواصلة العمل. ولكنه تركها وهي تحمل روح الاعتصام، وإن كانت الأوضاع العامة لا تسمح بمنهج الاعتصام.

في سنواته الأخيرة عانى المرض صابرًا محتسبًا حتى لقي ربه في 16- 8 - 2008 رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

**الجرأة والشجاعة:**

كان التناول في قضايا الواقع يتسم بالجرأة والشجاعة، والدخول إلى المناطق المحظورة، وخاصة في الواقع السياسي المصري، وكان كتاب الاعتصام يملكون الموهبة في العرض والمهارة في التعبير؛ مما جعلها الصحيفة المعارضة الوحيدة في النصف الأول من السبعينيات، وكان في مقدمة الكتاب الشيخ محمود عبد الوهاب فايد، والأستاذ خالد محمد خالد، والأستاذ محمد عبد الله السمان، وأنور الجندي، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور عيسى عبده، والأستاذ محمد عطية خميس، والشيخ عبد الحميد كشك، والشيخ عز الدين فريد، والأستاذ عمر التلمساني، والشيخ صلاح أبو إسماعيل، واللواء الركن محمود شيت خطاب (من العراق)، والدكتور يوسف القرضاوي، واللواء كمال عبد الحميد، والمحامي الوفدي كمال خالد، واللواء أركان حرب محمد جمال محفوظ، والشيخ يوسف البدري، والدكتور نجيب الكيلاني، والدكتور أحمد عبد الرحمن، والدكتور علي جريشة، والمستشار محمود عبد الحميد غراب، والدكتور عبد الحليم عويس، والأساتذة جابر رزق، ومحمد عبد القدوس، وعبد المنعم سليم جبارة، ومحمد إبراهيم مبروك، وصلاح عبد المقصود، وأحمد منصور، وغيرهم.

**حديث الثلاثاء:**

وكان الشيخ أحمد عيسى عاشور – مؤسس المجلة – يقدم بابًا للفقه الميسر، وأحيانًا يجيب عن الفتاوى، بيد أنه قدم عملا مهمًّا للغاية، وهو "حديث الثلاثاء" للإمام الشهيد حسن البنا، وكان هذه الحديث مفاجأة بحق، وكشف عن ذكاء الشيخ أحمد عاشور، ودأبه، وذاكرته القوية التي تتبعت الإمام الشهيد في دروسه الأسبوعية، وسجلت ما قاله في

كراسات بطريقة النقل السماعي شفاهة منه. وقد صدرت هذه الأحاديث فيما بعد مجموعة في مجلد كبير - كما أذكر – رحم الله الرجلين العظيمين.

اما الدكتور محمد عاشور – رئيس التحرير – فقد كان مقلا في الكتابة للمجلة؛ بسبب انشغاله بتحقيق كتب التراث، وكان من أهم ما حققه عمل ضخم، تمثل في مسند الإمام أحمد بن حنبل، وكان يشاركه التحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا، وقد أصدرا عددًا لا بأس من الكتب القيمة المحققة – رحمهما الله.

**فجوة كبيرة:**

ولعل مشاركتي في تحرير الاعتصام كانت سببًا في خلق فجوة كبيرة بيني وبين عناصر التيارات العلمانية، فقد وضعوني في قوائمهم السوداء. حين يذكرونني يشيرون إليّ بقولهم "بتاع الاعتصام!". يتناسون جهدي الأدبي والنقدي .. لا يلمسونه بكلمة، ورتبوا على ذلك حرماني من النشر في صحفهم ومجلاتهم، لدرجة أن بعضهم كان يحذف الأخبار الأدبية والعلمية التي أشارك فيها، أو يكتفي بحذف اسمي من بين المشاركين.

كان هناك بعض الشرفاء يدركون قيمة ما أكتب ولا يطبقون عليه الحظر العدواني، ولكنهم للأسف كانوا قلة في ميدان يهيمن عليه غلاة اليسار والليبراليين والمرتزقة، الذين يعيشون مشدودين دائمًا إلى اتجاه الريح!

**الإذاعة والتلفزيون:**

بالطبع لم يكن مرحبًا بي في الإذاعة ولا في التلفزيون؛ لأن المسئولين عن البرامج الثقافية والأدبية في أغلبهم، لم يكونوا مرحبين بالفكر الإسلامي أو بالحديث عن الإسلام، أو أنهم - في أفضل الأحوال - يطالبون بمقابل، وهو الكتابة عن أعمالهم الأدبية الرديئة!

ومع ذلك فإني أذكر أن الأستاذ عادل النادي - مقدم برنامج "مع النقاد" بالبرنامج الثاني للإذاعة - دعاني للمشاركة في حلقات عديدة مع زملاء أفاضل، وعندما سافرت

للعمل خارج البلاد، وعدت بعد فترة، تبخرت رغبتي في متابعة النشاط مع البرامج الثقافية المحدودة، وكانت مشاركاتي قليلة أو نادرة، ثم تلاشت تمامًا.

أتاحت لي إذاعة القرآن الكريم فرصة مخاطبة قاعدة عريضة من الجمهور، من خلال برنامج "بلاغة الرسول" الذي يقدمه الدكتور عبد الله الخولي، وبرنامج "قصة في حديث" الذي يقدمه الأستاذ رجب خليل، وكان للبرنامجين طابع أدبي إلى حد ما، وكنت أسعد بتعليقات الناس التي أسمعها، وأنا في طريقي إلى المسجد أو العمل.

### محاولات منع:

جرت محاولات من بعض المسئولين الكبار في الأزهر والأوقاف، وكنت أنتقد سياساتهم بمقالاتي في الصحف، لمنع أحاديثي في إذاعة القرآن الكريم، ولكنها باءت بالفشل الذريع. وقلّ نشاطي فيما بعد عندما مرضت وصعبت عليَّ الحركة والمشي، فكان المذيع يتفضل بزيارتي لتسجيل بعض الحلقات على فترات متباعدة. وعندما وقع انقلاب 3 يوليو 2013، فرضت السلطات حظرًا عليَّ مع آخرين في الصحف والإذاعة جميعًا، ولعلي أعود إلى الحديث عن ذلك فيما بعد إن شاء الله.

كانت الكتابة للاعتصام من أخف أنواع الكتابة وأسهلها بالنسبة لي. كانت اللغة حادة ومباشرة، وتواجه السلطة مباشرة، وأذكر أنه قبيل إصدار العدد بأيام كنت أجلس على مكتب قبالة الحاج حسن عاشور مدير المجلة، أكتب الموضوع أو التعليق، وأترك له مهمة استخراج العناوين الملائمة من داخل الموضوع، وكان الدكتور محمد عاشور يتولى المراجعة ليوقع أمر النشر.

### موضوعات كثيرة:

كنت أكتب موضوعات كثيرة بدون توقيع، أو أوقع بأسماء مستعارة، تتضمن الكنية: أبو محمد – أبو عبد الله، وكنت أكتب بابًا شهريًّا، يتضمن نقدات قصيرة عنوانه "رسالة إلى فلان"، وكنت أوقعه باسم "الضاحك الباكي"، وهو عبارة عن رسالة موجهة إلى مسئول كبير أو وزير أو شخصية عامة مصرية أو عربية أو أجنبية أو هيئة اعتبارية. وكان هذا

الباب لونًا جديدًا في الصحافة الإسلامية، طورته المجلات والصحف الإسلامية مع إعادة صدور مجلة الدعوة والمختار الإسلامي والنور ولواء الإسلام، وغيرها.

كانت الموضوعات التي أتناولها تمثل في الغالب الموضوعات الرئيسة في الأعداد الشهرية، ومنها الافتتاحية التي كنت أكتبها بالتناوب مع الحاج حسن والأستاذ السمان، وكانت تعالج القضايا الراهنة التي تحظى باهتمام الجمهور، وتتماس عادة مع الموقف الإسلامي. وكانت المجلة تفرد لموضوعاتي صفحات عديدة، وتجعلها عنوان الغلاف، فكانت - على سبيل المثال - قضايا الأحوال الشخصية والصحافة والثقافة والإعلام، والعلاقات مع العدو الصهيوني، وأحداث لبنان والعراق وسورية، ومشكلات المسلمين في أفغانستان والهند وكشمير وإفريقيا وأوربا وأمريكا، تحظى بمعالجات مستفيضة ومساحات ممتدة، ويشارك فيها في الغالب الأستاذ محمد عبد الله السمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

### مذكرات وايزمان:

وقد لخصت في أعداد متوالية مذكرات حاييم وايزمان مؤسس دولة العدو في فلسطين المحتلة وأول رئيس لها، وكنت أقدم لكل جزء يُنشر بمقدمة تكشف عن أهم الدروس المستفادة، مع التوجيه إلى أسلوب العمل والدأب اليهودي في الإلحاح على الفكرة، التي يتم العمل من أجل تحقيقها، أو الوصول إلى أكبر قدر ممكن منها.

* * *

## 7 - رجال ومواقف

في الاعتصام تعرفت على كثير من الكتّاب الإسلاميين في مصر والعالم الإسلامي، وقدمت العديد من الشباب الذين كانوا يراسلون المجلة عبر البريد، وصاروا كتابًا مرموقين.

### ركن قصيّ:

ويعدّ الأستاذ محمد عبد الله السمان من أهم الذين عرفتهم في الاعتصام معرفة شخصية. كنت قد رأيته في مجلة الأزهر في الستينيات، ويبدو أن ذلك كان عقب خروجه في إحدى المرات من المعتقل. كان في ركن قصيّ ينكبّ على ورق يكتب فيه، وبدا أنه لا يحب أن يشارك الجالسين على المكاتب الأخرى الكلام؛ فقد كانوا يتسامرون وهم يعملون. كان الصمت يفرض عليه ستارًا من الجمود وعدم التفاعل. لم أتكلم معه ولكن من كنت أجلس إليه أخبرني باسمه. تذكرت أني كنت أقرأ له عروضًا للكتب في مجلة الرسالة في إصدارها الثاني (1963 – 1965)، كما كنت أطالع له بعض المقالات في مجلة الأزهر وأنا طالب في المرحلة الابتدائية (الإعدادية فيما بعد).

### آفاق متشعبة:

أخبرني حين التقينا في الاعتصام أنه كان يقرأ مقالاتي المتواضعة في بعض الصحف والمجلات ويشيد بها، وكرمني فيما بعد حين كان يقتبس مما أكتب ويستشهد به في بعض كتبه ومقالاته، وعندما كنا نلتقي كان الحديث يمتد بيننا إلى آفاق متشعبة. وكانت مقالاته في الاعتصام حادة ولاهبة، يوجهها إلى طغاة السلطة وخصوم الإسلام، وكان يكتب في الاعتصام أكثر من مقالة، ويوقع أحيانًا بأسماء مستعارة منها: أبو إيمان، أبو ذر، أبو هالة، مالك الحزين، مستمع.

لقد جاء من الصعيد الذي ولد فيه ونشأ (قرية الحما – طما – سوهاج عام 1917) ليكون قريبًا من الإمام الشهيد حسن البنا، ويرافقه في دروسه ورحلاته ولقاءاته، وفي الوقت نفسه يكمل تعليمه العالي، بعد أن حصل على دبلوم المعلمين. لقد حصل على الشهادة العالية من كلية اللغة العربية، وفي سن متأخرة قرر دراسة القانون، وحصل على الليسانس في القانون، ثم دبلوم في الشريعة الإسلامية من جامعة عين شمس بالقاهرة.

عمل السمان بمجلة «الرسالة» أواخر عهد إصدارها الأول في الفترة من 1950 – 1953، وفي إصدارها الثاني كما سبقت الإشارة، فضلا عن الأزهر والاعتصام، وشارك بالكتابة في المجلات الإسلامية والصحف اليومية داخل مصر وخارجها.

## عاصفة فكرية:

وقد أثار كتابه (الإسلام حائر بين أهله) عاصفة فكرية (أيام الملك فاروق)؛ لوضعه أسسًا ومفاهيم لعودة الخلافة والحكم الإسلامي، فظل يتردد على المحاكم ثلاث عشرة جلسة، إلى أن حكم القاضي بالبراءة!

ولسبب ما فإن السمان هاجم ذات يوم الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الراحل، وأراد أن ينشر هجومه في الاعتصام، ولكن الحاج حسن رفض نشر الهجوم العنيف، الذي اتكأ على فكرة مهاجمة بدع الصوفية وخزعبلاتهم، والربط بينها وبين الشيخ عبد الحليم الذي حصل على الدكتوراه من السوربون. غضب السمان، وذهب إلى روز اليوسف التي وجدت فيه ضالتها للتشنيع على الإسلاميين، وجعلت من مقالة السمان عنوانًا رئيسًا للغلاف: إسلام لا دروشة. وزاط الماركسيون في روز اليوسف واستدعوا المعلقين والكتاب ليحتفلوا على صفحاتها بهذا الصيد الثمين!

ردت الاعتصام على روز اليوسف، وكانت معركة عنيفة، امتدت إلى المنابر، وكان صديق السمان من أيام المعتقل الشيخ عبد الحميد كشك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الذين غضبوا من الصديق الذي أنساه غضبه فداحة اللجوء إلى الماركسيين المتربصين بالإسلام والمسلمين، وخصص خطبة للرد عليه عبر فيها عن صدمته وفجيعته من صديقه.

**قيثارة الدعوة:**

بيد أن السمان كان أوّابًا ورجّاعًا إلى الحق، فترك روز اليوسف وعاد إلى أحضان الاعتصام، وتصالح مع قومه، ولما توفي الشيخ كشك عام 1996م، قام السمان بإعداد كتاب بعنوان «الشيخ كشك قيثارة الدعوة إلى الله»؛ تعبيرًا عن تقديره له وحبه إياه.

وأذكر أن عبد الرحمن الشرقاوي الذي كان يرأس روز اليوسف لم يجد غضاضة في أن يمد جسور الصلح مع الاعتصام، ويبدي استعداده لزيارتها وتناول الشاي مع أسرتها، وبذلك أغلقت صفحة كتبها السمان الغاضب لدينه، وإن أخطأ طريق المعالجة.

ومن المفارقات أن نجلي محمود كان من أصدقاء السمان المقربين، مع أنه كان في منزلة حفيده، وكانا يتهاتفان ويتكلمان لوقت طويل ويتبادلان الرسائل والكتب، وقد كشفت لي هذه العلاقة أن السمان كان من كتاب الرواية الجيدين، وقد كتب أكثر من عشر روايات، نشر واحدة منها، هي رواية "الشهيدة" التي كتبها في المعتقل، وأسقط أحداثها على تركيا وأتاتورك بدلا من مصر وعبد الناصر، ونقلتها للنور زوجه ' حينما كانت في زيارة له.

**أبواب السماء:**

عندما مات السمان عام 2007 عن عمر يناهز التسعين عامًا، كتبت عنه مقالة ضمنتها كتابي: "وجوه عربية وإسلامية"، الذي صدر في العام التالي؛ لأعرّف به الأجيال الجديدة.

ظل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعيدًا عن الإعلام تلفزيونًا وإذاعة، ولكنه كان يكتب أدعية لبرنامج في إذاعة الشرق الأوسط اسمه «أبواب السماء» وبقي يكتبه لسنوات عديدة.

ترك السمان ثروة كبيرة من الكتب التي أسهمت في إيقاظ الوعي، وتنبيه الأمة إلى المخاطر، وحثها على العمل، ومقاومة الاستبداد والطغيان، ومنها: عظة الموت - مذبحة الهنود الحمر - الرحمة المهداة - لماذا أسلمت؟ - لا يا سيادة المفتي - حصاد الشر - قصص الأنبياء – الإسلام .. الجدار المائل - الإسلام حائر بين أهله - الإسلام هو الحل - الإسلام والعقيدة معًا - الإسلام والأمن الدولي ـ أين نحن من الإسلام؟ - المؤامرة على الإسلام في

الجزائر - المتطاولون الصغار على شريعة الإسلام - الأمة المسلمة تحت الصفر - محنة الأقليات المسلمة - الذين طغوا في البلاد - صدام حسين .. هولاكو القرن العشرين - حسن البنا الرجل والفكرة - أيام مع الإمام الشهيد حسن البنا - الشيخ كشك قيثارة الدعوة إلى الله - الخطب المنبرية لعبد الحميد كشك.

كما أصدر سلسلة الثقافة الإسلامية من **1958 - 1965**م، واستكتب فيها أعلام الفكر الإسلامي؛ للتعريف بالإسلام وشريعته وقيمه وحضارته.

**عصر صعب:**

وللأسف الشديد رحل السمان ولم يجد من يقدمه للأجيال الجديدة بما يليق بجهاده وعطائه، ولا يعني أن مقالة هنا أو هناك تكفي تعبيرًا عن التعريف بالرجل بوصفه قدوة في مجال الدعوة الإسلامية التي تعيش عصرًا صعبًا، وتدفع الثمن غاليًا حصارًا وملاحقة وتضييقًا واعتقالا ومحاكمات جائرة. وكنت أتمنى لو أتيح لي الوقت والجهد لأكتب عنه كتابًا يتكافأ مع شموخه وإصراره وإخلاصه للفكرة الإسلامية، ولكن ملاحقة الأحداث التي تمر بها الأمة، والالتزامات العديدة، ووهن الصحة، أسهمت في عدم تحقيق هذه الأمنية الغالية، التي أتمنى أن يفسح الله لي من العمر والصحة ما أستطيع به الكتابة عن الرجل وتوفيته حقه المهضوم!

**جابر رزق:**

ولعل أبرز من تعرفت بهم في دار الاعتصام وتحولت المعرفة إلى صداقة حتى لقي ربه، كان الأستاذ جابر رزق رَحِمَهُ ٱللَّهُ .. كان قد خرج عام **1974** من السجن الذي دام سنوات بسبب قضية الإخوان المسلمين عام **1965**، وهي القضية التي أعدم فيها سيد قطب مع آخرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

جاء جابر ليزور الاعتصام في أواسط **1976** تقريبًا، ويشارك بالكتابة فيها، وتعارفنا. كان سكرتيرًا لتحرير مجلة الدعوة الناطقة باسم الإخوان المسلمين، التي أنشاها الشيخ صالح عشماوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل انقلاب **1952**، وعادت للصدور بعد الإفراج عن الإخوان،

وتولى رئاسة تحريرها الأستاذ عمر التلمساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان مقرها في شارع سوق التوفيقية. وفي الوقت نفسه، كان جابر محررًا بمجلة الإذاعة والتلفزيون، التي كان يرأس تحريرها آنئذ الأديب ثروت أباظة.

زرت معه مقر الدعوة، وصرت واحدًا من كتابها، وكانت مقالاتي عنوانًا للغلاف، وخاصة بعد مبادرة الرئيس أنور السادات وزيارته للقدس عام 1977، وفي الدعوة عرفت جيلا شابًّا من محرريها: بدر محمد بدر، وصلاح عبد المقصود وأحمد عز الدين وأحمد السيوفي، ومن بعدهم جيل تال منه: عامر شماخ وأحمد جعفر، وانضم إليهم لبعض الوقت أنور الهواري الذي ترك الإخوان فيما بعد، وهاجمهم، وانحاز إلى النظام المستبد، وصار رئيسًا لتحرير بعض مجلاته، بالإضافة إلى المسئولين والمحررين الكبار: الشيخ صالح العشماوي والأستاذ التلمساني والحاج مصطفى مشهور والأستاذ إبراهيم شرف والأستاذ عبد المنعم سليم جبارة والحاج شحاتة هدهد والأستاذ محمد عبد القدوس، وغيرهم.

**كان عصاميًّا:**

ولد جابر رزق الفولي في 2-10-1936م في قرية "كرداسة" التابعة لمحافظة الجيزة، ونشأ في بيئة متوسطة الحال، وكان عصاميًّا في حياته، درس الابتدائية في كرداسة، والثانوية بمدرسة السعيدية، ثم عمل مدرسًا للغة الفرنسية، وأكمل المرحلة الجامعية بجامعة القاهرة "كلية الآداب" قسم الصحافة، وتخصص في العمل الصحفي، وعين في مجلة الإذاعة والتلفزيون، وصار من أنجح الصحفيين الإسلاميين بمصر.

وفي سنة 1981م سجن مرة أخرى مع قيادات الإخوان المسلمين لمدة خمسة أشهر، وكان الرئيس أنور السادات قد اعتقل - فيما عرف بحملة سبتمبر - نحو 1600 شخصية من الإسلاميين والسياسيين وبعض قيادات الكنيسة؛ بسبب معارضة كامب ديفيد، وأحداث ما أطلق عليه الفتنة الطائفية، وكان جابر رزق من أبرز الكتاب المعارضين لاتفاقية كامب ديفيد، حيث كشف على صفحات "الدعوة" ما سمي بخطة الدكتور ميتشيل، التي اتفقت عليها أجهزة الأمن والمخابرات في مصر والولايات المتحدة والكيان الصهيوني، واشتهرت باسم خطة تجفيف المنابع، أي استئصال التيار الإسلامي بجماعاته

المختلفة ورموزه المتعددة، وإغلاق صحفه ومنابره، وحرمان أفراده من الوظائف الحكومية المهمة والتجنيد والالتحاق بالكليات العسكرية والشرطية، وهو ما أزعج الرئيس السادات، وتحدث عنه في إحدى خطبه الطويلة.

### طبّقت بحذافيرها:

ومع أن السلطة نفت وجود خطة الدكتور ميتشل إلا إنها طبقتها بحذافيرها، وصدرت القوانين اللازمة لتنفيذها تحت ذرائع مختلفة. وكان قانون إغلاق الصحف بعد وفاة أصحابها أول قانون يطبق على صحيفة "الدعوة"، التي توفي صاحبها الشيخ صالح عشماوي عام 1983، فلم يسمح النظام بإعادة إصدارها بعد أن توقفت عام 1981 إثر دخول الإخوان إلى السجن في حملة سبتمبر، ومن بينهم الشيخ صالح والأستاذ التلمساني.

جرت محاولات لإصدار مجلة إسلامية على هيئة كتاب دوري يعبر عن جماعة الإخوان، ولكن الأجهزة الأمنية صادرت العدد الأول، وكان يحمل اسم "البشير"، وكشرت عن أنيابها لتكرار المصادرة إذا صدر عدد آخر من البشير أو غيره.

حاول الإخوان المهاجرون في أوربا وبعض الدول الإسلامية إصدار "الدعوة" في حجم صغير شكلا محدود الصفحات، وتوزيعه عن طريق البريد، ولكن المحاولة لم تكن ذات أثر ملحوظ، فقد كان قراؤها قلة وخاصة في مصر، وكان مصيرها إلى التوقف بعد نحو سنتين.

### اكتشاف مجلة:

استطاع جابر رزق وصحبه من محرري الدعوة عام 1986، اكتشاف مجلة إسلامية كانت تصدر في الأربعينيات باسم "لواء الإسلام"، وكان صاحبها وزير تموين سابق في وزارات النحاس باشا (1942- 1950) اسمه "أحمد باشا حمزة"، وهو رجل طيّب وخيّر ومحب للإسلام ووظّف مجلته لخدمة الدعوة الإسلامية، وبعد رحيله آلت ملكية المجلة لابنته "فاطمة حمزة"، فقامت على شئونها حتى شغلتها ظروفها الخاصة فأبقت على المجلة في صورة رمزية تمنع السلطة من إلغاء ترخيصها، وهنا بدا لجابر وصحبه إعادة إصدار المجلة بإمكانات كبيرة، فملأت فراغًا كبيرًا في المجال الإسلامي، واستقطبت أقلامًا شهيرة،

وكان لي شرف تحرير القسم الأدبي، واكتشاف المواهب الأدبية، بالإضافة إلى المقالات، حتى شاء الله وغادرت مصر للعمل في إحدى الكليات بالرياض.

وللأسف لم تكتمل المسيرة كما يحب الإسلاميون، فجاءت حرب الخليج، لتضطر صاحبة الترخيص تحت ضغوط سياسية عنيفة من جانب الدولة الخليجية التي كانت تعيش فيها مع أسرتها، إلى التخلي عن إصدار المجلة بمعرفة الإخوان؛ لأن الاستمرار يعني بالنسبة لها ولأسرتها فقدان أشياء كثيرة، في مقدمتها مصادر الرزق والثروة والإقامة!

**الإصلاح والأمة:**

هناك تجربتان صحفيتان متميزتان، خاضهما جابر في الخليج. الأولى كانت لرئاسة تحرير مجلة "الإصلاح" التي تصدرها إحدى الجمعيات في الإمارات عام 1978، ومع أنه بث الحيوية في أوصال المجلة بالإخراج الصحفي واستكتاب الكتاب المرموقين، إلا إنه لم يبق هناك طويلا، وعاد إلى مصر، والأخرى كانت من خلال عمله مراسلا لمجلة "الأمة" التي صدرت في قطر، ومجلة الأمة الإسلامية كانت تجربة فريدة، وخاصة أنها صدرت في وقت اختفاء الدعوة والاعتصام بحكم قرارات سبتمبر 1981 التي أصدرها السادات، وفقا لخطة الدكتور ميتشيل بتجفيف المنابع أو الاستئصال. كانت الأمة شهرية ومهنية ومخدومة صحفيًّا وفكريًّا، ويتضح ذلك في شكلها وإخراجها والكتّاب الذين يكتبون فيها والقضايا التي تعالجها. لقد توفرت للأمة إمكانات جيدة، جعلت الإقبال عليها في العالم العربي كبيرًا ولافتًا، لدرجة أن بعض الأعداد كان يعاد طبعها بعد نفادها. ولعل هذا كان وراء قلق بعض الجهات المعادية للإسلام في الداخل والخارج، بعد أن استمرت في الصدور عدة سنوات، وأثبتت تأثيرًا ملحوظًا، فصدر قرار فجائي غير مفهوم – أسبابه غير مقنعة – بإغلاق المجلة مع مجلات أخرى بحجة توفير النفقات! وكان إيقاف المجلات الأخرى للتغطية على إيقاف الأمة؛ لأنها كانت المقصودة بالقرار الغريب.

كان جابر يتصل بالكتاب ويقترح الموضوعات، ويتابع المجلة، وينصح بما يضيف إليها ويرقيها، ولكن الأيدي الخفية لا تتوقف عن العبث بمقدراتنا، مع ضعف بعضنا أو قابليته للعبث!

**التعذيب والبعث:**

بيد أنه في عمله بمجلة الإذاعة والتلفزيون استطاع أن يثير عددًا من القضايا المهمة التي حركت الضمير الاجتماعي مثل التعذيب في سجون جمال عبدالناصر، وجرائم البعث النصيري في سورية وغيرها، بعد أن صدرت مجموعة من الكتب التي تنتقد التجربة العسكرية الناصرية، مثل كتاب عودة الوعي لتوفيق الحكيم، وسنة أولى سجن لمصطفى أمين، وحوار وراء الأسوار لجلال الدين الحمامصي. وقد لقي جابر تشجيعًا من ثروت أباظة رئيس تحرير المجلة، وكان من الذين هاجموا جمال عبد الناصر في مقال رمزي شهير بعنوان "الحصان الذي نفق!"، وعلى إثره تمت إزاحته من المجلة إلى الأهرام ليرأس الصفحة الأدبية!

**تنظيم الصفوف:**

كان لجابر - بالإضافة إلى ذلك - دور كبير في تنظيم صفوف شباب الحركة الإسلامية وتوجيههم، مع التركيز على البرامج التربوية والسلوكية، وكان يسعى إلى الاهتمام ببناء قاعدة إعلامية لجماعة الإخوان المسلمين من شباب الإخوان، وتشجيعهم على العمل النقابي من خلال النقابات، والعمل في داخل المجتمع، والانفتاح على التيارات الأخرى، وكسب صداقات كثيرة في هذه التيارات؛ مما كان له أثره الواضح في المشاركة في مجلس نقابة الصحفيين وغيرها.

وقد لاحظت أنه كان لا يتأخر في حل مشكلات الآخرين، وكان يسارع في تيسير الصعاب التي تعترض الشباب خاصة، ويذهب بنفسه إلى الأماكن التي يمكن أن تسهم في التيسيرات والحلول.

**الشهيد عواد:**

ويحسب له أنه جمع شعر الشهيد محمد عواد الذي خرّ صريعًا بسياط التعذيب في أقبية السجون الناصرية، وقد كتبتُ عن الديوان بعد صدوره.

وقد ترك قبيل رحيله مجموعة من المؤلفات في الفكر والدعوة والتراجم، ومن أهمها:

مذابح الإخوان في سجون ناصر، الإمام الشهيد حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه، الدولة والسياسة في فكر حسن البنا، المؤامرة على الإسلام مستمرة. محمد عواد الشاعر الشهيد، مذبحة الإخوان المسلمين في ليمان طرة، الأسرار الحقيقية لاغتيال الإمام الشهيد حسن البنا، طه حسين .. الجريمة والإدانة، حسن الهضيبي الإمام الممتحن، الإخوان المسلمون في سورية النصيرية. بالإضافة إلى مجموعة ضخمة من المقالات والتحقيقات التي قام بها أثناء جولاته الدعوية في أنحاء العالم العربي والإسلامي وفي البلاد الأوروبية، وأمريكا.

**الأجل المحتوم:**

وعقب عودته إلى مصر بعد مشاركته في مؤتمر بإستانبول أوائل عام 1988م، شعر بآلام نزلة برد، وظل يتردد على مكتبه في مجلة "لواء الإسلام"، وهو يظن أن المسألة مجرد نزلة برد بسيطة ستنتهي، ولكنها استمرت طويلا، وتطورت، وشعر أنه لابد من مراجعة طبيب، ثم أكثر من طبيب، حتى تقرر سفره للعلاج في ولاية فلوريدا بالولايات المتحدة، وهناك وافاه الأجل المحتوم يوم الاثنين 6-11-1408هـ، الموافق 20-6-1988م عن عمر يناهز الثالثة والخمسين، وعاد جثمانه إلى مصر ليدفن بالقاهرة قرب أستاذه عمر التلمساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

**عيسى عبده:**

في الاعتصام رأيت الدكتور عيسى عبده، واسمه بالكامل عيسى عبده إبراهيم عبد الملك (1318 هـ - 1400 هـ = 1901م - 1980م)، وكان يكتب في الاعتصام مقالات اقتصادية من منظور إسلامي، يتحدث فيها عن خطورة النظام الاقتصادي القائم على الربا والفوائد، ويدعو إلى اقتصاد إسلامي يحرك رأس المال في مشروعات إنتاجية يفيد منها

المجتمع كله، وليس مجموعة أفراد معدودين، وعبر عن ذلك في محاضرات ومقالات وأحاديث إذاعية ومقابلات تلفزيونية في الدول العربية؛ لذا يعد رائد الاقتصاد الإسلامي بحق، فقد كان من وراء أول بنك إسلامي أنشئ في دبي، وانتشرت بعده فكرة إنشاء البنوك الإسلامي في العالم الإسلامي، ولعل الدكتور أحمد النجار تأسى به في إنشاء البنوك الإسلامية في مصر.

عمل الدكتور عيسى أستاذًا للاقتصاد بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، وأستاذًا للحضارة الإسلامية بكلية الاقتصاد والتجارة بالجامعة الليبية، وأستاذًا لإدارة الأعمال بكلية التجارة بجامعة عين شمس، وأستاذًا منتدبًا بالمعهد العالي لشئون القطن وبالمعهد العالي للدراسات الإسلامية، ومحاسبًا قانونيًّا.

**تبسيط القضايا:**

رأيت الرجل طويل القامة مبسوط الجسم يميل إلى البياض، وهيئته توحي بالجدية والصرامة، وتبدو أحاديثه دقيقة وسريعة، فلم يكن لديه وقت يضيعه في الثرثرة أو المجاملات، وكان واضحًا من ملامحه أنه يملك ذكاء متقدًا وبديهة حاضرة ووعيًا كاملا بالموضوعات التي يناقشها أو يتحدث فيها، مع قدرة على تبسيط القضايا المعقدة في إطار سهل وقريب إلى عامة المتلقين.

نشر الدكتور عيسى مجموعة كبيرة من الكتب التي تعالج موضوع الاقتصاد الإسلامي، وصدر بعضها عن دار الاعتصام، ومن بين كتبه: بنوك بلا فوائد .. وضع الربا في البناء الاقتصادي .. الفائدة على رأس المال: صورة من صور الربا .. الربا ودوره في استغلال موارد الشعوب .. مشروع قيام بنك إسلامي .. الاقتصاد الإسلامي: مدخل ومنهاج. البنوك الإسلامية: في مراحل الدراسة والإنشاء والإدارة .. بحوث في الربا .. بترول المسلمين .. الزكاة أداةٌ اقتصادية .. التأمين بين المؤيدين والمعارضين .. التأمين بين الأصيل والبديل .. نحو اقتصاد إسلامي سليم .. لماذا حرم الله الربا؟ .. القرآن والدراسات الاقتصادية .. النظم المالية في الإسلام، وغيرها.

**الكتب العامة:**

هناك كتاب آخرون عرفتهم في الاعتصام، كتبت عنهم في مناسبات أخرى، ولكن ما أريد الإشارة إليه هنا هو أنني نشرت في الاعتصام مجموعة كبيرة من كتبي، وخاصة ما يمكن تسميته بالكتب العامة التي تتناول قضايا الواقع الإسلامي ومشكلاته وأحداثه ..

أول كتاب نشرته هو: مسلمون لا نخجل، وكان صديقي جابر رزق ' هو من اختار هذا العنوان الذي حمله أحد موضوعات الكتاب، وجعلته مقدمته، وقد نشر مرات عديدة، وخاصة في شمال إفريقيا دون علمي، ومع ذلك كنت سعيدًا، فقد رأيت أن له تأثيرًا ما. ثم نشرت كتاب "حراس العقيدة"، واختار عنوانه الحاج حسن عاشور، وبعده كتاب "العودة إلى الينابيع"، وكتاب "الحرب الصليبية العاشرة" عن حرب لبنان الطائفية، ولعله أول كتاب صدر في الموضوع آنئذ، من منظور إسلامي، يكشف المؤامرة الاستعمارية والصهيونية التي نفذها المارون في لبنان، وكان المسلمون والمقاومة الفلسطينية أول ضحاياها.

هناك كتب أخرى، منها "الصلح الأسود والطريق إلى القدس"، وتناول معاهدة كامب ديفيد واتفاقية الإذعان التي عرفت باسم اتفاقية السلام بين الرئيس السادات والعدو الصهيوني، كما نشرت كتابًا عن احتلال صدام للكويت، حمل عنوانًا هجائيًّا، ندمت عليه "هتلر الشرق وبلطجي العراق ولص بغداد"، وبعده نشرت كتابًا آخر حول الموضوع ذاته بعنوان: "جاهلية صدام وزلزال الخليج" عن دار نشر أخرى.

وحول الانتفاضة الفلسطينية الأولى التي هزت الكيان الصهيوني نشرت في دار الاعتصام كتابي "ثورة المساجد: حجارة من سجيل"، وقد ظهر في شكل جميل وغلاف رائع، ولقي ترحيبًا جيدًا من القراء.

**النظام العسكري:**

وعندما قهر العسكر شعب الجزائر، وألغوا الديمقراطية، وصنعوا مجزرة راح ضحيتها ربع مليون جزائري مسلم، في عشرية التسعينيات من القرن الماضي، كنت أول من نشر بعد بداية الأحداث مباشرة كتابًا يقرب من ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير، واختار له

الحاج حسن عنوانًا صحفيًّا طويلا،هو: "النظام العسكري في الجزائر ما زال يخطط لاغتيال الإرادة الإسلامية، ولكن هيهات .. هيهات .. فلن يتوقف المدّ الإسلامي بعد الآن"، وكانت الكلمات تتدرج في حجمها من الكبر إلى الصغر .. الكلمات الأربع الأولى حجمها كبير، والكلمات الخمس بعدها أقل حجمًا، وبقية الكلمات أصغر كلمات العنوان. وعادة أكتفي بأن أشير إليه باختصار "النظام العسكري في الجزائر"، وقد لقي الكتاب إقبالا كبيرًا في مصر والعالم العربي، ولم يدخل الجزائر بالطبع.

وهناك كتاب ضم مقالاتي التي كتبتها ضد الطغيان القائم في عهد مبارك، ونشرته الاعتصام تحت عنوان "دفاعا عن الإسلام والحرية"، وكان آخر ما نشرته هناك، حيث بدأت الدار تواجه ظروفًا صعبة انتهت إلى ما يشبه التصفية، وكانت وفاة الحاج حسن عام 2008م، نهاية رحلتي مع مؤسسة دعوية إسلامية متميزة.

**كتاب مزعج:**

قبل ذلك كنت قد نشرت كتابًا أزعج جهات كثيرة، وهو كتابي عن لويس عوض. ففي أوائل التسعينيات كنت أعمل في الرياض، وألفت الكتاب عقب وفاة لويس عام 1989؛ لأواجه به حملة زائفة تقدم الرجل بصورة ملائكية، وترفعه إلى أعلى عليين، مع أنه أساء إلى الإسلام والمسلمين والأدب والفكر والثقافة، فضلا عن كونه متعصبًا، لا يعرف التسامح مع الإسلام، وكان ملحدًا بمنطق الكنيسة!

عكفت على تقديم الرجل من خلال كتاباته هو قبل كتابات المعارضين له. وجمعت الكتاب على ورق كلك (شفاف) في الرياض، وأرسلته إلى الحاج حسن في القاهرة لطبعه. وبعد الطبع أرسلت نسخًا منه كالعادة إلى الكتّاب والصحفيين، والمفارقة أن خبرًا من سطرين عن الكتاب لم يظهر في أية صحيفة! لقد تم تجاهل الكتاب تمامًا!

**ألفاظ المؤلف:**

تجرأ صديق أديب يتولى الإشراف على صفحة أدبية في إحدى الصحف اليومية بمؤسسة صحفية كبرى، وكتب عرضًا للكتاب نشر على صفحتين في مجلة أسبوعية تصدرها المؤسسة، وإذا برئيس تحرير المجلة يذيل العرض بعبارة تفيد أن المجلة تعرض

للكتاب بألفاظ المؤلف – الذي هو أنا – دون أن يعبر العرض عن رأي المجلة أو كتابها، وأنه يفتح الباب أمام القراء والكتّاب لمناقشة ما جاء في العرض!

في الأسبوع التالي لم تنشر المجلة أية كلمة حول الموضوع، لا تأييدًا ولا معارضة، وكانت المجلة - كما علمت - قد تلقت سيلا من التعليقات المتباينة، وعرفتُ أن هناك أوامر من بعض الجهات صدرت بإغلاق الكتابة في المسألة تمامًا.

**مظاهرة حكومية:**

لم يتوقف الأمر عند ذلك، بل سارع بعض أنصار لويس بالكتابة في الصحف العامة والمجلات الحكومية، واستحضار أحاديث قديمة له، وهجاء خصومه، ومن بينهم شخصي الضعيف دون أن يذكروا اسمي، وتبع ذلك تأليف كتب ضخمة تمجد الرجل وتشيد به وبشطحاته وأضاليله، وتعصبه المقيت ضد الإسلام والمسلمين، ثم تتولى مؤسسة النشر الرسمية عرض ذلك على الناس، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل أقامت وزارة الثقافة عام 2000 - فيما أتذكر - مهرجانًا كبيرًا، أحضرت له باحثين من الداخل والخارج، وللأسف فقد شاركت في هذا المهرجان، وعرضت وجهة نظري التي أيدتني فيها أصوات قليلة، ولكنها لم تنل استحسانًا من دراويشه وأحبابه الكثر، فتحولت المناقشات إلى صخب مزعج، وكأن منظّمي المؤتمر جاءوا بنا - ونحن قلة - وسط جموع الدراويش والأنصار ليقولوا للعالم نحن محايدون وموضوعيّون، وكانت عقوبتي في نهاية المطاف، عدم نشر بحثي في ضمن أعمال المؤتمر التي ضمت كل شيء حتى الكلمات الترحيبية القصيرة!

**الكتب الأدبية:**

من الكتب الأدبية التي نشرتها في دار الاعتصام "مدرسة البيان في النثر الحديث"، وكان عن رسالتي للماجستير، و"القصائد الإسلامية الطوال في الشعر الحديث"، وفيه نشرت بعض القصائد الطويلة المجهولة، مثل قصيدة علي أحمد باكثير، وقصيدة الشاعر والله والذرة لإبراهيم بديوي، وقصيدة البكرية لأحمد عبد الحليم المصري وغيرها، ثم طبعت كتابي "الرواية التاريخية في أدبنا الحديث"، ولعله أول كتاب نقدي تطبيقي يتناول أكثر من ثمانين رواية تاريخية في مصر، ونشرت كتابي "أهل الفن وتجارة الغرائز"، وحللت فيه

مجموعة كبيرة من الأفلام والمسرحيات والأغاني، وسلوكيات بعض أهل الفن، وحوادث ارتبطت بهم وبتاريخهم، وانتهيت إلى نتائج سلبية غالبًا، مع دعوة إلى الارتقاء بالإنتاج الفني والسلوك الإنساني، وقد أهديت الكتاب إلى الممثلة "شمس البارودي"، التي اعتزلت الفن بعد أن قامت بأدوار غير مقبولة في مجموعة من الأفلام السينمائية، ورأيت أن هذا الموقف يستحق الإشادة والتكريم، ولا أقل من إهداء الكتاب إليها!

**الجسد والفكر:**

وأظنني الآن قد تسرعت في هذا الإهداء الذي انطلق من عاطفة جياشة تنحاز إلى صون الجسد البشري من الابتذال، وإن كان صون الفكر من التردي أولى وأهم، ويأتي قبل صون الجسد. ومن المؤسف أن السيدة شمس مع زوجها الممثل حسن يوسف قد وقفا من ثورة الشعب المصري في 25 يناير 2011م - التي قامت ضد طاغية فاسد - موقفًا غير طيب. فقد سبّا الثوار، واتهماهم اتهامات باطلة، وغالى الزوج في حملته الظالمة على الرئيس محمد مرسي والحركة الإسلامية إلى درجة تكفيرها، ولم يكتف بذلك، بل انحاز انحيازًا سافرًا إلى الانقلاب العسكري الدموي الفاشي، ودافع عن الرئيس المخلوع مبارك، وزعم أنه لم يأمر بقتل المتظاهرين، وأنه لو أمر بذلك لاستحق هو ومن أمرهم أوسمة على قتلهم!

**هل تضمن؟**

من الواجب أن أعترف أن ناشر الطبعة العربية (خارج مصر) من الكتاب، وهو شاب طيب، وكان وقتها ما زال طالبًا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كان يعترض على الإهداء، وقال لي هل تضمن أن السيدة شمس ستحافظ على اعتزالها، قلت له: إن موقفها وإعلانها الاعتزال في هذا الظرف يستحق التشجيع، بغض النظر عن المستقبل، والضامن هو الله. لم أكن أتصور بحال أن يصل موقفها مع زوجها إلى تأييد إهراق الدماء، وهو أشد وأقسى من التعرّي في الشارع، وليس على شاشة السينما أو التلفزيون! فمن قتل نفسًا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعًا.

بالطبع لم يقتصر نشر الكتب على دار الاعتصام، وإنما امتد إلى دور نشر أخرى داخل الوطن وخارجه، وسأعود إلى تناول ذلك لاحقًا إن شاء الله.

**مجلات عربية:**

ما أريد أن أشير إليه أن بداية الكتابة في الاعتصام ترافقت مع الكتابة في بعض المجلات الإسلامية والأدبية في العالم العربي، فقد كتبت في مجلة رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، ومجلة دعوة الحق في المغرب، ومجلة البيان الكويتية، ومجلة الكتاب العراقية، ومجلة الموقف الأدبي السورية، بالإضافة إلى مجلتي الأديب والآداب اللبنانيتين.

وقد تعرفت إلى بعض المسئولين عن هذه المجلات شخصيًّا، ومنهم الأديب الراحل محمد سعيد العمودي، رئيس تحرير رابطة العالم الإسلامي. قابلته في القاهرة أكثر من مرة وهو يقضي إجازة الصيف وفقًا لعادته السنوية، كما زرته في بيته في مكة المكرمة عندما أديت فريضة الحج في أواخر السبعينيات، والرجل مهذب وهادئ ومحب لمصر والمصريين، ويتابع ما ينشر في مصر، وكتبت عن بعض مؤلفاته، وكانت بيننا مراسلات حتى رحيله، فرثيته في مقالة.

كما عرفت الدكتور يوسف عز الدين، رئيس تحرير الكتاب العراقية، والتقينا في القاهرة أكثر من مرة، وكانت بيننا مراسلات. ويبدو أن فترة حكم صدام شتت أدباء العراق، ودفعتهم للخروج في أرجاء الأرض، وقد تلقيت بعض رسائله قبل سنوات من لندن.

**السفر المجاني:**

قبيل الخروج من العسكرية، كنا نحصل في الإجازات على تصريح، يتضمن حق السفر المجاني بالقطار – درجة ثالثة – إلى المكان الذي يقضي فيه المجند إجازته الدورية. فكرت مع زميل لي في مكتب الأفراد بالكتيبة، أن نلبي دعوة زميل صعيدي لزيارته في بلدته "إدفو" بالصعيد، وهي تابعة لمحافظة أسوان. شجعنا على ذلك أن هناك رحلة قطار تغادر من الإسكندرية مباشرة إلى أسوان، والقطار يتوقف في المراكز والمحافظات، ويتجاوز المحطات الثانوية، وتستغرق الرحلة أربعًا وعشرين ساعة – أي يومًا وليلة – ما لم تحدث أعطال.

كان الوقت صيفًا، وهو ما ساعدنا على تحمل متاعب القطار وطول الرحلة زمنيًّا ومكانيًّا، فضلا عن الزحام الذي يزداد في بعض المحطات، ويخف في بعضها الآخر، وسوء العربات، بدءًا من افتقارها إلى دورات مياه تليق بالآدميين حتى زجاج النوافذ المكسور، مرورًا بالقذارة التي تملأ الطرقات .. كنا عند التوقف الطويل في بعض المحطات لتقابل قطارين - وهو ما يسمى التخزين - ننزل لشراء بعض المأكولات أو المشروبات، أو نقضي الحاجة، أو نحرك السيقان مشيًا بجوار القطار ..

**محاولة النوم:**

في الليل كنا نصعد على رف القطار الذي يمتد فوق الكراسي؛ لنحاول النوم بعض الوقت، وخاصة في الساعات المتأخرة من الليل.

مررنا على محافظات الصعيد كلها، باستثناء الفيوم التي تقع في غرب النيل، وعرفنا معظم مدنها، التي تقع غالبًا على طريق السكة الحديد، وكان الفضاء خارج القطار يبدو أخضر مشرقًا في معظم المسافات، يظلله الهدوء والسكينة والمباني المنخفضة. لا أدري هل ظل على حاله أو تغير كما تغيرت الدلتا الآن، وتحول كثير من أراضيها الخضراء إلى مبان خرسانية كالحة قبيحة الشكل والمنظر؟

**تكييف طبيعي:**

في ظهيرة اليوم التالي، وصلنا إلى إدفو .. دخلنا بيت الزميل الصعيدي .. حرارة الجو الخارجي تراجعت داخل البيت .. البيوت من الطوب اللبن والغرف واسعة وجدرانها عالية والسقف خشبي .. هناك مصاطب بطول الجدران تشبه الكنب وعليها حصير، وتُتخذ مكانًا للنوم بالنسبة للضيوف، بدت الغرفة مكيفة الهواء تكييفًا طبيعيًّا فلا تشعر بأثر الحرارة، أصرّ زميلنا الصعيدي أن نبيت في غرفة بها سرير كبير من الطراز النحاسي الكبير، ولكننا فضلنا المبيت في غرفة الضيافة، فهي واسعة ومنعزلة بصورة ما عن بقية البيت، والجو صيف لا نحتاج فيه إلى غطاء، فضلا عن ذلك فهو يوفر لنا نوعًا من الحرية والحركة.

**معبد إدفو:**

قضينا في إدفو يومين، يظللنا كرم أهل البيت الغامر، وقد تجولنا في أنحاء البلدة، ولعل أهم المعالم التي رسخت في ذهني كانت زيارة معبد إدفو، وهو من أقدم المعابد في مصر القديمة، وهو مقصد للسياح من دول العالم، وإن كان لا يحظى بالدعاية المناسبة، مثل معابد الكرنك وأبو سمبل وحتشبسوت ودندرة وكوم أمبو وفيلة. ومعبد إدفو يضم معبد حورس الفخم الذي بناه بطليموس الثالث (237 ق.م.) للإله حورس، وأتم بناءه بطليموس الرابع (212 ق.م.) دون زخرفة، و أكمل زخرفته بطليموس العاشر وبطليموس الحادي عشر، وهو من أجمل المعابد المصرية.

في صبيحة اليوم الثالث غادرنا إدفو التي كانت تعد آخر نقطة حراسة مصرية على الحدود النوبية في مصر القديمة، وعاصمة الإقليم الثاني من أقاليم الصعيد، متجهين نحن الثلاثة إلى أسوان.

ركبنا سيارة بيجو لنقطع حوالي مائة كيلو متر .. أذكر أننا مررنا على بعض المدن والبلدات، مثل كوم أمبو ودراو، وقرى التهجير التي نقل إليها بعض أهالي النوبة بعد إقامة السد العالي.

**خضرة الشاطئين:**

البحث عن مكان للإقامة أول ما فعلناه عند وصولنا إلى أسوان. حجزنا في فندق فيلة غرفة مشتركة لثلاثة أفراد، ومنها رأينا النيل، وخضرة شاطئيه وزوارقه التي تسبح في كل اتجاه.

تجولنا في المدينة الهادئة الوادعة .. أسوان في ذلك الحين أقرب إلى روح القرية، بعيدة عن الزحام والضجيج، والناس يعرفون بعضهم تقريبًا، والأسعار ليست سياحية، كما يفترض في مدن السواح، ولعلها تغيرت الآن، فقد حدثني بعض الزملاء من أهل أسوان

الذين تعرفت إليهم خارج مصر، أن حركة البناء هناك تمضي على قدم وساق، وأن أسعار الأراضي ارتفعت ارتفاعًا جنونيًّا، وأن الزحام يشتد ويمتد.

في أحد المقاهي شربنا شايا بقرش صاغ للطلب الواحد، لاحظت أن المقهى يكاد يقتصر علينا وحدنا نحن الثلاثة، وأخبرني الزميل الصعيدي أن الأهالي هنا يفضلون شرب الشاي في بيوتهم، ولا يجلسون على المقاهي إلا نادرًا، والرواد غالبًا من الغرباء أو السياح. بدت القهوة أو المقهى فسيحة، عالية الحوائط، ساكنة. أكواب الشاي كبيرة، وبجوارها أكواب الماء الأكبر؛ لعل ذلك يشير إلى كرم المنطقة وسماحة أهلها.

**الجمال الطبيعي:**

عبرنا النيل في أحد الزوارق إلى جزيرة النباتات، وهي قطعة من الجمال الطبيعي، منحه الله لأهل أسوان بل للإنسانية. وزرنا ضريح أغا خان، وهو مقبرة لزعيم الطائفة الإسماعيلية في شبه الجزيرة الهندية، الذي أوصى بدفنه في هذه البقعة المصرية الرائعة. وعرفنا أن أقارب الأغا خان وأتباعه يفدون في أوقات مختلفة لزيارة الضريح وأسوان وبعض المناطق المصرية.

وأذكر أنني حاولت زيارة بيت العقاد في أسوان، ولكن الوقت لم يسمح، ورأيت تمثالا نصفيًّا قبيحًا لا يليق به في إحدى الساحات، وقرأت اسمه عنوانًا لإحدى المدارس.

كانت هناك فكرة لزيارة السد العالي، ولست أذكر العائق الذي منعنا يومها من الذهاب إلى منطقة السد، فاكتفينا برؤية موقعه من بعيد!

**رحلة العودة:**

حملت معي في طريق العودة بعض منتجات أسوان مثل الكركديه والتمر وصور الأماكن الأثرية. ركبنا القطار المتجه مباشرة إلى الإسكندرية من بداية رحلته محطة أسوان في الثامنة مساء، فيما أذكر حيث كانت المقاعد خالية، وودعنا زميلنا عند إدفو ليكمل إجازته، وتابعنا الرحلة الليلية حتى وصلنا القاهرة عصر اليوم التالي، وهناك

ودعت زميلي الآخر الذي رافقني من إدفو؛ ليكمل هو الآخر إجازته، وبقيت وحدي حتى وصلت دمنهور، ومنها عدت إلى قريتي لأكمل إجازتي بين الأسرة.

كانت الرحلة طيبة مع مشقة السفر في الدرجة الثالثة بالقطار .. انفتحت أمامي آفاق جغرافية وتاريخية واجتماعية جديدة بلا ريب، وقد جاءت في ختام فترة التجنيد الطويلة لتكون ترويحًا عن مشقات ومتاعب كثيرة.

**تسليم العهدة:**

حين سلمت مهماتي وعهدتي تأثر كثير من الزملاء، ومن بينهم الضابط رفعت رئيس مكتب الأفراد، وهو رجل مكافح وطيب وابن ناس كما يقولون. بدأ حياته العسكرية متطوعًا وترقى حتى وصل إلى درجة الملازم أول، في الوقت الذي كنت أغادر فيه الحياة العسكرية. كان قد قضى نحو ربع قرن في العمل العسكري. وعرف بأخلاقه الطيبة وترفعه عما يشين، وقد زرته في بيته بالإسكندرية مرارًا، وتابعت مسيرة أبنائه في التعليم، وأحدهم الآن يحمل درجة الماجستير في تخصص طبي دقيق، وما زال الرجل يتفضل بالاتصال بي هاتفيًّا في المناسبات حتى الآن.

**نظرة حائرة:**

كنا في ذلك الوقت في أواخر شهر أبريل **1974**، وكانت شهادة تأدية الخدمة العسكرية أغلى ما أملكه، وطرت بها إلى كلية دار العلوم. حين تلقاني مسجل الكلية وقلب الشهادة بين يديه. نظر الرجل إليَّ نظرة حائرة. لابد أنه تذكر أنه حرمني بالقانون ست سنوات من الدراسة والامتحان، ولعله ظن أنني سأعدل عن الموضوع برمته وأنصرف إلى شئون الحياة في مسار آخر، وها هو يراني واقفًا أمامه وقد بقي على بدء الامتحانات ما يقرب من أسبوعين أو ثلاثة. قال لي:

- استعد للامتحان في العام القادم .. سأقدم موضوعك لمجلس الكلية لتقيد بدءًا من العام الجديد!

قلت له:

- إني أرغب في الامتحان مع الطلاب هذا العام.

ردّ عليَّ مشفقًا:

- ربما لا تستطيع النجاح، وتحسب عليك سنة رسوب، وهو ما يجعل فرص استمرارك في الكلية صعبة.

أبديت له تصميمي على دخول الامتحان، وثقتي في عون الله.

لم يجد الرجل – ربما بدافع من وخز الضمير – إلا الموافقة على رغبتي، ولعله أملاني شيئًا لأكتبه على هيئة طلب؛ من أجل موافقة مجلس الكلية بالتمرير، وطلب مني أن أعود إليه في الأسبوع التالي لاستكمال بعض الإجراءات، وانطلقت لأبحث عن طلاب السنة الأولى، وأتعرف على بعضهم؛ من أجل معرفة المقررات والكتب والمحاضرات والحصول عليها.

**الخجل والغربة:**

خجلي يدفعني إلى التراجع أمام الطلاب، فهم أصغر مني، فضلا عن سنوات العسكرية التي أورثتني نوعًا من الانكماش مع قاعدة المجتمع والبشر في الشوارع .. إنه شعور أقرب إلى الإحساس بالنبذ والغربة، مع أنني كنت أتعامل مع صفوة المجتمع من الكتاب والمثقفين بمنتهى الجرأة والجسارة والندية.

حضرت بعض المحاضرات، وانتهيت إلى معرفة طالب بدت عليه الملامح الريفية القريبة من طبيعتي. ذكر لي أن اسمه عبده جمعة من إحدى قرى تلا منوفية، ودعاني لزيارته في مسكنه بالقرب من ميدان الجيزة. وبدا اهتمامه كبيرًا لمساعدتي حين عرف أنني عائد من الجيش بعد سنوات طوال.

أعارني عبده ما لديه من محاضرات لأنسخها، ووعد بأن يوفر لي بعض المحاضرات من زملاء آخرين في لقاء تال، وأملاني أسماء الكتب والمذكرات وأماكن البيع، وكان أهمها مكتبة دار العلوم في شارع المبتديان، ووفّر لي الأستاذ أنور الجندي ' بعض الكتب من مكتبته الخاصة.

**مادة التدريبات:**

بدأتُ القراءة والجهد، وأتممت عملية القيد، وكانت هناك معضلة استمرت طوال سنوات الدراسة، وهي عدم قدرتي على مواجهة الأساتذة والمعيدين في الكلية من أجل مادة التدريبات، وكانت غالبًا في النحو والصرف وعلم اللغة على ما أذكر، ودرجتها تمثل جزءًا لا يستهان به في حساب التقدير العام. سيطر على دماغي هاجس الخجل؛ بسبب أنني أكتب في الصحف والمجلات، وسيكون موقفي بائسًا حين يعلم الأساتذة أنني الشخص الذي يطالعون اسمه تحت المقالات النقدية والموضوعات الأدبية ويظنونه كهلا أو عجوزًا، ويفترض أنه حاصل على شهادة جامعية منذ زمان، ثم يرونه طالبًا عندهم، مع أنهم كانوا من أطيب الناس كما عرفتهم فيما بعد.

كم ضيع الخجل مني فرصًا عديدة، وأوقعني في مشكلات كنت في غنى عنها لو تصرفت ببساطة وتلقائية دون أن أضع في حسباني أمورًا قد لا يلتفت إليها الآخرون أو لا يعيرونها اهتمامًا.

لقد أثرت درجات التدريبات التي لم أحصل عليها على تقديراتي في الأعوام الأربعة، وكان يمكن لو حصلت عليها أن أحصل على مراكز متقدمة.

**الشارع والحارة:**

كان شقيقي قد أوشك أن ينتهي من دراسة الهندسة في الأزهر، وكان يسكن مع بعض زملائه من القرية في حارة تقع آخر شارع أحمد بسيوني بحدائق القبة، وهو شارع طويل وواسع، وكانت به بيوت خاصة وعمارات تشير إلى أن سكانه يمثلون طبقة متوسطة. وكانت الحارة في آخرها عبارة عن أربع عمارات متواضعة؛ كل اثنتين في جانب، وتنتهي الحارة بظهر عمارة في الشارع المقابل من الناحية الأخرى، فتجعلها كما يقولون حارة سد.

ولكن الحارة وما بعدها من شوارع وحارات تضم طبقة شعبية من أخلاط ريفية وصعيدية، وتشير إلى تواضع السكان بصفة عامة، ويطلقون على المنطقة اسم عزبة منصور، ويمر عليها من مدخلها الشعبي الترام الذي يصل إلى السيدة زينب.

**فندق متواضع:**

لم أجد الغرفة ملائمة للإقامة فترة الامتحان؛ فالعدد الذي يسكنها نحو أربعة، ثم إنها تزيد في بعض الليالي بالضيوف أو بمن يسكن مؤقتًا، وسأكون الخامس، كما تصعب المذاكرة بجوار سكان الغرفتين الأخريين، ووجدتني بعد بدء الامتحان أهتدي - بمعرفة بعض الزملاء - إلى فندق متواضع ونظيف في شارع الأزهر، ولعل اسمه كان فندق بغداد، أقمت في إحدى غرفه مع زميلين آخرين، ولحسن الحظ فقد كان موعد لجنتي يبدأ من الثالثة عصرًا إلى السادسة مساء بينما لجنة الزميلين من التاسعة صباحًا إلى الثانية عشرة ظهرًا، وكان هذا يتيح لي فرصة الانفراد والمذاكرة بالغرفة حتى قبيل الظهر، فأركب الترام إلى السيدة زينب، وأصلي الظهر في مسجدها، وأبقى للمراجعة حتى الثانية والنصف تقريبًا، وأمشي في شارع المبتديان بعد عبور شارع الكومي حتى باب الكلية، فيكون موعد بداية الامتحان أو دخول اللجنة قد اقترب.

كنت أقابل بعض الطلاب ممن يمتحنون معي، وأحيانًا ألتقي بزميلي عبده جمعة الذي توطدت علاقتي به، وأراجع مع من ألتقي بهم المقرر، وأتأكد من مفرداته، أو أتعرف على ما جرى عليه من تعديل، وكنت أحيانًا أكتشف نقاطًا لم تكن ضمن ما قرأته من محاضرات، فأطل عليها سريعًا، وكان بعضها موضع سؤال أحيانا، فأتداركها بفضل الله.

**مرة واحدة:**

مضت أيام الامتحان، واستغرقت نحو شهر تقريبًا. لم يكن هناك نظام الفصلين الحالي. كانت كل مواد العام يجري امتحانها مرة واحدة، ويفصل يوم راحة بين كل مادة وأخرى، أي يمتحن الطالب ثلاثة مواد في كل أسبوع.

نظام الفصلين معمول به في أمريكا ودول الغرب، ولكن الدولة عندنا استوردته دون مسوغاته ومستلزماته؛ لتشغل الطلاب والأساتذة عن التفكير في أمور المجتمع وقضاياه، أي السياسة العامة وما يتعلق بها. وصار العام الدراسي في مصر أقل أيامًا عنه في أية دولة أخرى .. فهناك امتحان الفصل الأول في نصف المواد الدراسية (حوالي ست

مواد)، ويبدأ في أواخر ديسمبر حتى أواخر يناير. وتكون هناك مادة أو اثنتين كل أسبوع؛ بحجة عم وجود أماكن يمتحن فيها الطلاب، فيصير الفصل في المتوسط أربعين يومًا إذا وضعنا في الحسبان الإجازات الأسبوعية والقومية ونحوها، مع أنه من الممكن أن تمتحن فرقتان في وقت واحد بوضع طالب من السنة الثانية وراء طالب من السنة الأولى؛ مما يقلل من حالات الغش من ناحية، ويقصر من أمد الامتحانات من ناحية أخرى. ولكن الجامعة صارت فريسة لأجهزة القمع التي تسمى بأجهزة الأمن، تأمر فتطاع، فهي التي تعين القيادات الجامعية ممن ترضى عنهم، وتتحكم في حركة الجامعة ونظامها، وتفرض مراقبتها على الأساتذة والطلاب جميعًا، ولها عيون من الأساتذة والطلاب والموظفين والعمال.

### درجة الصفر:

وظلت الحال هكذا حتى ثورة يناير **2011** التي أطاحت بالحرس الجامعي، وأخرجته من حرم الكليات، وجعلت الانتخابات طريقًا لتولي القيادات، بدءًا من رئيس القسم حتى رئيس الجامعة؛ مما يجعل للتعليم الجامعي استقلاله، ويحافظ على كرامة الأساتذة والطلاب.

بيد أن انقلاب المجلس العسكري للقوات المسلحة في **3** يوليو **2013**، وخطف الرئيس المنتخب محمد مرسي – فك الله أسره – وإلغاء الدستور، وحل المجلس النيابي، واعتقال ما يقرب من خمسة وعشرين ألفًا من معارضي الانقلاب، وتعذيبهم في السجون، والحكم على المئات بالإعدام وسنوات سجن طويلة، وإغلاق وسائل التعبير الخاصة بالثورة، من قنوات تلفزيونية وصحف يومية وأسبوعية، والسيطرة على الصحف القومية وإدارتها، بمعرفة ضباط الشئون المعنوية في الجيش والمخابرات وأمن الدولة، وعدم السماح بالكتابة لرافضي الانقلاب، واستلاب أموال الجمعيات الخيرية، وقد زاد عددها عن الألف، واقتحام المدرعات وقوات الشرطة للحرم الجامعي، واستخدام الرصاص الحي والخرطوش والغازات المسيلة للدموع في مواجهة مظاهرات الطلاب، وقتل بعضهم،

وإصابة المئات، واعتقال أعداد لا تحصى، وحرمانهم من الامتحانات، وتحويل غيرهم إلى مجالس تأديب؛ بسبب رفضهم للانقلاب، واستصدار أحكام بعودة الحرس الجامعي .. كل هذا ألغى مكاسب الثورة، وأعاد الجامعة إلى درجة الصفر مرة أخرى، بلا حرية ولا استقلال ولا قيادة للمجتمع.

### المدرسة الابتدائية:

اتفقت مع عبده جمعة على أن نتواصل عبر البريد، وتبادل الزيارات عقب ظهور النتيجة، وعدت إلى القرية لأنشغل بعملي في المدرسة الابتدائية الذي تسلمته رسميًّا، بدءًا من اليوم التالي لتسريحي من القوات المسلحة، وتوافق التسريح مع نهاية العام الدراسي في المرحلة الابتدائية؛ مما أتاح لي فرصة التفرغ للامتحانات في الكلية.

في الإجازة الصيفية لا يوجد عمل ملموس للمدرسين في المدرسة. يحضرون في نحو العاشرة صباحًا، ويثرثرون ويتناولون الشاي أو الساندوتشات أو يطالعون الصحف، وفي الثانية عشرة أو نحوها يأخذون في الانصراف، ويكون الناظر أو الناظرة آخر من يغادر.

كنت مشغولا بالقراءة والكتابة، وأخذت أفكر في نشر مجموعتي القصصية الأولى "رائحة الحبيب"، فأعددتها على الآلة الكاتبة لدى بعض من تخصصوا في ذلك، أيضًا كنت أتابع نشر كتابي الغروب المستحيل الذي أعددته عن محمد عبد الحليم عبد الله، في المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .. وكنت أسافر إلى القاهرة بين حين وآخر؛ لنشر مقالاتي وقصصي، ونشطت مراسلاتي للأدباء والكتاب والصحف والمجلات في هذه الفترة، لدرجة أن القائمين على أمر البريد في ناحيتنا كانوا يردّدون باستمرار أن البريد يعمل لحسابي؛ تعبيرًا عن كثرة ما يرد إليَّ، وما أرسله من رسائل ومطبوعات.

### نقود كثيرة:

ومن طرائف البريد أن إحدى الجارات - وهي أمية لا تعرف معنى المطبوعات التي تحمل المجلات والكتب - كانت حين ترى موظف البريد أو والدي يحمل المطبوعات في المظاريف الصفراء تسارع إلى جاراتها الأخريات؛ لتخبرهن أن هذه المظاريف تحمل نقودًا

كثيرة لآل القاعود، وكنت أضحك حين أستمع إلى ذلك! فالناس في قريتنا لا يعرفون ماذا يعني الأدب أو الفكر أو الثقافة .. هم مشغولون بما يمسك الرمق أو الفلوس التي تحقق ذلك، وهم معذورون على كل حال.

**رسالة تهنئة:**

عدت إلى البيت ذات يوم، فوجدت رسالة من عبده جمعة مفعمة بمشاعر حارة، ويهنئني فيها بنجاحي بتقدير جيد مرتفع، أما هو فقد نجح بتقدير مقبول، ومع أنه منتظم في الدراسة، ويستمع إلى المحاضرات باستمرار، إلا إن صعوبة الدراسة في دار العلوم تجعل من النجاح بمقبول في ذلك الحين أمرًا معقولا، وخاصة أنه قادم من المدارس العامة وليس من الأزهر.

فرحت جدًّا، وأرسلت إليه مهنئًا، ومذكرًا بوعده ليزورني في القرية، ولكنه طلب مني أن أزوره لسبب لا أذكره، ولكنه كان مقنعًا. وقد زرته في قريته، وقابلت والده، وتعرفت على أسرته وقريته وطبيعة الحياة في محافظة المنوفية التي تضيق رقعتها الزراعية، وتتسع قاعدتها التعليمية، لدرجة أن كثيرًا من بناتها في ذلك الحين كنّ في التعليم الجامعي والمتوسط، وهو ما يجعل المنوفية تتفوق على سائر المحافظات في نسبة المتعلمين والمتعلمات.

لقد كان صيفًا جميلا ورائعًا أقضيه لأول مرة بعد سنوات خارج رداء العسكر!

***

## 8 - الصيف الجميل

### النادي الصيفي:

كان صيفًا جميلا حقًّا، أحسست فيه لأول مرة بالتحرر من الأوامر والنواهي العسكرية، والانطلاق إلى الحياة المدنية التي لا ترتبط بتصريح أو شرطة عسكرية.

كنا في الصيف نمارس نشاطًا رياضيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، فيما يسمى النادي الصيفي، وهو عبارة عن غرفة أو فصل في المدرسة الابتدائية بالقرية، بها طاولة تنس ودولاب للأدوات الرياضية، وآخر يحوي بعض الكتب والوسائل الفنية للرسم وأوراق صحف الحائط. وكانت ممارسة النشاط نظير اشتراك مقداره خمسة عشر مليمًا طوال مدة الصيف.

اختارني الشباب مديرًا للنادي، أشرف على نشاطاته، وخاصة كرة القدم، وإصدار مجلة الحائط، ولأن الإمكانات المادية كانت محدودة، فكنت أدخر الاشتراكات للإنفاق على بعض الأمور البسيطة ورحلات الفريق الرياضي أو المواصلات (عربة كارو) حين ينتقل الفريق من القرية إلى القرى المجاورة؛ للعب في الدورات التي تقام بينها. أما اللعب في النادي فكان لا يكلف شيئًا؛ لأن المدرسة التي تضمه بها ملعب مناسب تقام فيه مباريات كرة القدم، وفي جانب منه تنصب شبكة الكرة الطائرة في الوقت الذي لا تكون فيه مباريات كرة قدم.

مشاركتي الشخصية في النشاط الرياضي كانت محدودة، وكان أغلبها في لعبة التنس أو الكرة الطائرة، ولكني ذهبت بالفريق إلى أكثر من دورة رياضية في القرى المجاورة، وحققنا بعض النتائج الجيدة، حيث كنا نصل إلى الأدوار النهائية، ولا نحصد البطولة، فقد كان الفريق يعتمد على لاعب واحد رئيس، مشهور بأنه يستطيع أن يسجل الأهداف إذا أفلت من مراقبة الفريق المنافس، وغالبًا ما كان المنافسون يركزون عليه لشلّ حركته، أما باقي اللاعبين فكانوا غير متناغمين لأسباب شتى!

### الابتعاد عن البطولة:

أذكر أننا ذهبنا مرتين للعب في دورة بالكفر الجديد، وكانت النتائج فيهما جيدة جدًّا، وشاركنا في دورة بقرية لقانة، ولكنها أرهقت لاعبينا، ومع ذلك حققنا في المنافسات مستوى جيدًا ومعقولا في وجود عدد كبير من الفرق المشاركة، ولكننا في طريق العودة على ظهر الكارو لم نسلم من بعض المشاحنات بين اللاعبين، وإلقاء كل منهم بمسئولية الابتعاد عن البطولة على الآخر، فقد كانت أمنية الفريق أن يفوز بالدورة، ويحقق نصرًا كبيرًا، ولكن تأتي الرياح بما لا يشتهي السفن!

### وجبة شائقة:

أما صحيفة الحائط فقد توليت تحريرها من الألف إلى الياء، وكنت أحضر لها ورقًا مستعملا كان يستخدمه شقيقي في رسم مشروعاته الهندسية أو مسوداتها ولم يعد بحاجة إليه. جعلت الصحيفة على ظهر الورقة الأبيض، وأخرجتها بطريقة سهلة تعتمد على الأعمدة، وفيها الافتتاحية التي تتضمن نقدًا لجانب من نشاط النادي، أو عرضًا لفكرة بأمل تحقيقها، أو تعليقًا على حدث في دائرة النادي أو القرية، فأخذ الشباب ينجذبون إلي الصحيفة لمعرفة ماذا كتبت، وبالمرّة يمرون بأعينهم على الموضوعات الأخرى التي تتضمن أخبارًا وموضوعات مختارة.

كنت أصدر عددًا من الصحيفة كل أسبوعين، وأحيانًا كل أسبوع إذا كان هناك ما يستدعي ذلك من أحداث أو قضايا، وكانت علاقتي بالصحافة في القاهرة فضلا عن الأدب، قد مكنتني من تقديم وجبة شائقة في "النهضة" - اسم الصحيفة - جعلت المترددين على النادي من الكبار والأشبال يناقشون موضوعاتها، ويتحمسون لعرض آرائهم، وهو ما كنت أشجعهم على كتابتها وأتولى صياغتها ونشرها.

### توفيق الأوضاع:

تم تسريح بعض زملائي الذين جُنّدوا في وقت متزامن مع تجنيدي، وعادوا إلى القرية بعد أن وفقوا أوضاعهم بالنسبة للعمل، فقد حقق الجيش رغباتهم بالانتقال إلى مدرسة القرية أو مدارس في قرى قريبة، حيث استقروا وأقاموا في القرية بعد أن قضوا فترات

متفاوتة قبل التجنيد في محافظات أخرى أو أماكن بعيدة في المحافظة. وقد أتاح وجودهم بالقرية فرصة للتلاقي من جديد، وكان بعضهم قد أخذ يستثمر وقته في السعي للدراسة الجامعية بعد أن علموا بحصولي على الثانوية العامة من منازلهم. هناك من تابع الدراسة في إصرار، حتى التحق بالجامعة، وهناك من تعب بعد مرحلة قطعها، وآثر الركون لحياة زوجية أو أسرية، مكتفيًا بوضعه الذي يهيئ له مرتبًا معقولا كل شهر وحياة جيدة بالنسبة لما كان عليه من قبل، وأذكر في هذا السياق عبارة طريفة قالها والد زميل لنا، تعبر عن رضاه بالأمر الواقع، وإن لم يتطابق بالنسبة للعلم والمعرفة. كان يقول:

"اللقمة القريبة أفضل من اللقمة البعيدة!".

والعبارة كما نرى تعني أن الرزق في المكان القريب الذي يعيش فيه الإنسان، أفضل من الرزق الذي يفرض على صاحبه أن يتغرب ويبتعد عن أهله وعشيرته، ولو كان العائد رزقًا كثيرًا.

بالطبع لم يكن الرجل يقصد العلم أو المعرفة في هذا السياق الذي يتعلق بلقمة العيش، ولكنه نوع من الحرص على ترابط الأسرة في مكان واحد.

**أهل الكبر:**

لقد سمعت من هذا الرجل البسيط عبارات مهمة لم أفهمها في حينه، ولكني أدركت قيمتها في سن متأخرة، ومنها على سبيل المثال:

"الكبر على أهل الكبر صدقة!"

كنا ونحن شباب متدفق بالحيوية وقلة الخبرة والتجربة، نتندر على مثل هذه العبارات، ونظل نناقش الرجل ونسأله: كيف؟

كان هناك بعض الأشخاص في القرية يتميزون بالعجرفة والاستعلاء، وربما احتقار الآخرين، مع أنهم لا يملكون ما يتفوقون به على غيرهم، لا علمًا ولا مالا ولا أرضًا! كنت أسأل الرجل: لماذا لا تلقي السلام على فلان مع أنه جارك في الحقل؟

فيرد بعبارته هذه، ويشرح: إن فلانًا هذا يتكبر على الناس، ويعدّ نفسه فوقهم، بل إنه لا يرد السلام على من يلقيه عليه. فتجاهله وعدم الاهتمام به رادع له، وعدم إلقاء السلام يعد صدقة؛ لأنه يمنع من تقيلده، وقد يعيده إلى الصواب.

**التواضع والوضاعة:**

اكتشفت متأخرًا جدًّا أن الرجل البسيط الطيب كان على صواب، فهناك من تعامله بتواضع فيظنك وضيعًا، ويمعن في صلافته وعنجهيته مع أنه لا يساوي شيئًا بمقاييس الأخلاق الفاضلة والسلوك الكريم. وأظن أن مواجهة أمثال هؤلاء بمنطقهم ضرورة؛ لردعهم، وإرغامهم على السير وفق الطبيعة الإنسانية النقية. ولعل ما فعله الرجل البسيط الطيب مع الشخص الذي جعله يلقي علينا بعبارته الحكيمة أو المحكمة، كان سلوكًا طبيعيًّا جعل أهل القرية يتناقلون الحدث ويروونه للأجيال التالية، فقد كانت جيرة الحقل تفرض أصولا وقواعد للتعامل الأخوي، ولكن الآخر ضرب عرض الحائط بالأصول والقواعد، وتصور أن الرجل البسيط الطيب سيقبل العدوان ويستسلم له، وفوجئ به يلقنه درسًا قاسيًا، عبارة عن علقة ساخنة، استخدمت فيها الفأس! ومن يومها وصاحبنا يلتزم الأدب حتى قضى نحبه، وهكذا طبق والد الزميل مقولته: الكبر على أهل الكبر صدقة، تطبيقًا عمليًّا، أعاد الآخر إلى حجمه الطبيعي!

ولا شك أن هناك فرقًا بين التواضع والوضاعة، ولكن أهل الكبر والعجرفة يتصورون أن من يتعامل بالتواضع وضيع، يجعلهم يستبيحونه، وينالون منه كما يشاءون، وهذا بالتأكيد خطأ كبير، ويجب إقناعهم بعدم مقارفة هذا الخطأ.

اكتشفت أيضًا أن هناك من يتصور الجملة التي قالها الرجل حديثًا شريفًا، ولكني لم أعثر عليه، وأخبرني بعض المتخصصين أنه حديث ضعيف؛ لأن هناك نهيًا عن الكبر بصفة عامة، ولا أظن اللفظة الثانية تعني الكبر بمفهومه المنهي عنه، بل تعني التجاهل والمقاطعة!

**شهادة القبول:**

وبمناسبة الدراسة من منازلهم، أذكر أن زميلا لنا لم يوفق في دخول الأزهر لعدم حفظ القرآن جيدًا، فعاد إلى الزراعة والعمل مع أقاربه في الحقل، ولكنه بعد تجنيده وتكريم المجندين من الفلاحين والعمال الذين قضوا سنوات طويلة في التجنيد، بتعيينهم في وظائف عمالية وفنية، استطاع أن يحصل على وظيفة عامل في الري والصرف بالمحافظة، والوظيفة في قريتنا ولو كانت متواضعة مهمة لصاحبها وعائلته؛ لأنها تضمن دخلا ثابتًا، يضمن الوفاء بالالتزامات الأساسية المتواضعة.

كانت علاقتي بأسرة هذا الزميل ودية، وكان يحدثني عن عمله وعما يقابله فيه من مواقف وطرائف، وفي سياق ما - لا أذكره - اقترحت عليه أن يبدأ تعليمه من جديد، ويحصل على شهادة القبول في المرحلة الإعدادية، كان الأمر بالنسبة له محرجًا؛ فهو طويل الجسم، وسيدخل الامتحان من منازلهم مع أطفال قصار في سنّ أولاده، وقد شجّعته على تجاوز مثل هذه المسألة وأخذ الأمور ببساطة!

كان الأطفال الذين شاركهم الامتحان يتحدثون عنه باستمرار، يقولون الرجل الطويل جاء. الرجل الطويل ذهب. الرجل الطويل أجاب عن هذا السؤال. الرجل الطويل .. وصار صاحبنا فاكهة الامتحان والأطفال، وكان يحكي لي ما يجري وأنا أضحك وهو يضحك، فأزيد من تشجيعه، وقد استطاع أن ينجح، وراح يستعد لامتحان الصف الأول الإعدادي وعبره، كما عبر امتحان الصف الثاني، ووصل إلى الصف الثالث الإعدادي، وكان حدثًا مهمًّا في محيط أسرته ومن يعيشون بالقرب منه. وهناك عنصر مساعد جعل صاحبنا يزداد اجتهادًا مع قلة إمكاناته، فقد عرف رئيس المصلحة بما يبذله في مجال الحصول على شهادة، فأثنى عليه وساعده معنويًّا، ونقله إلى مكان يستطيع من خلاله أن يتفرغ أكثر للمذاكرة، المهم حصل صاحبنا على الإعدادية بعد تعثر بسيط، حيث دخل امتحان الدور الثاني، ونجح بمجموع متواضع، ولكن صارت معه شهادة على كل حال.

**شهادة الدبلوم:**

هذه الشهادة كانت عاملا مهمًّا في نقله من طبقة العمال إلى طبقة الكتبة والفنيين، وقد ساعده رئيس المصلحة في هذا السياق مساعدة ملحوظة، وزار القرية، وتعرف على أسرته.

كان صاحبنا يحلم أن يواصل الدراسة الجامعية بدخول المرحلة الثانوية، ولكن إمكاناته قصرت به، فكان التحاقه بالتجارة المتوسطة هو الممكن المتاح، وقد تابع الدراسة حتى استطاع الحصول على الدبلوم، وصار مسئولا في وظيفته عن مجموعة من العمال، وتنفيذ المشروعات، وصارت قصته تروى في القرية؛ تعبيرًا عن كفاحه واجتهاده، حتى اختاره الله إلى جواره.

الملاحظة هنا أنه حرص على تعليم أولاده، وبذل كل ما يستطيع لتمكينهم من مواصلة الدراسة والتحصيل، وقد رأى بعضهم في حياته، وهو يسوح في الخليج وأوربا من أجل العمل وتوفير لقمة العيش، وكان يفاخر بهم أمامي ‘.

**زيارة بورسعيد:**

في هذا الصيف الجميل الرائع تلقيت دعوة من صديقي الأديب البورسعيدي قاسم مسعد عليوة لزيارته في بورسعيد، ووعد أنه سيجهز عزومة فاخرة من البوري!

تحدثت مع زميلي وصديقي إسماعيل، وأخبرته بأمر الدعوة، واستطلعت رأيه في مرافقتي في الرحلة .. وافق على الفور؛ لأن الرحلة تغيير وتعرف على مكان نسمع عنه ولا نراه.

كان قاسم في عمرنا تقريبًا (توفي إلى رحمة الله ودفن في **2014/1/19**)، وكان يعمل بمحافظة بورسعيد، وتعارفنا عن طريق البريد، بعد أن قرأ كل منا للآخر في بعض المجلات والصحف، كما كانت إذاعة البرنامج الثاني (الثقافي الآن) تذيع بعض قصصنا القصيرة أو تعليقاتنا الأدبية والنقدية.

صحبت زميلي إسماعيل في رحلة طويلة ومجهدة، لا أذكر تفاصيل السفر تمامًا، هل كان بالقطار أو بالسيارة؟، ولكن الذي أذكره أننا قضينا معظم النهار في الطريق، واستقبلنا قاسم في بيته، وعرفنا على والده، وكان رجلا طيبًا بسيطًا، عرفت أن هناك حيّين أو قسمين رئيسين في بورسعيد. الأول الحي الشعبي الذي يسكن فيه قاسم، ويسمى حي العرب، والحي الآخر هو حي الإفرنج، الذي كان يسكنه الأجانب قبل الاستقلال عن إنجلترا، وحل محلهم مصريون، مستوياتهم متنوعة، وربما كانوا أفضل حالا ممن يسكنون حي العرب.

**الخطيبة والزفاف:**

أطلعني قاسم على ما سجله في أيام العبور وما تلاها. التقى بالعديد من الجنود الذين عبروا إلى الضفة الأخرى من قناة السويس، ودوّن ما فعلوه وهم يواجهون العدو النازي اليهودي. كانوا أبطالا بحق مع قلة الإمكانات، ولكن الإيمان والروح العالية، والرغبة في الثأر من الاحتلال وجرائمه، كانت مهيمنة على تحركهم ومواجهتهم للقتلة.

في المستشفى العام ببورسعيد كان هناك عدد من الجنود المصابين، ويتابعون العلاج منذ بداية المعارك في رمضان (أكتوبر)، قابلهم قاسم وتحدث معهم، وحاورهم وسجل ما قالوه، ولعله في هذه المناسبة التقى بخطيبته التي كانت تعمل بهذا المستشفى. كان مشدودًا إليها وينتظر يوم الزفاف. وأخبرني أنه اتفق معها على تسمية أول ولد ينجبانه باسم سميح؛ تيمنًا باسم الشاعر الفلسطيني سميح القاسم الذي يحبه قاسم، وأخبرني فيما بعد أن سميح يمضي على الأرض ويتكلم كلمات قليلة، وصار الآن عند كتابة هذه السطور رجلا يطلب الرحمة لأبيه كما قرأت في الصحف عقب وفاته!

ضمّن قاسم مدوناته عن الحرب والجنود في بعض أعماله الأدبية التي أصدرها لاحقا، أو نشرها في صحف ومجلات.

**بورفؤاد:**

من أبرز ما علق بذهني في زيارة بورسعيد ما شاهدته في بورفؤاد التي تقع في شرق بورسعيد على طرف سيناء الشمالي، وبعبرون إليها بعبارة آلية، تحمل الناس والسيارات،

وتنقلهم من وإلى الجانب الآخر من قناة السويس. بور فؤاد تشبه حيًّا راقيًا هادئًا في بورسعيد، يتكون في مجموعه من فيلات فخمة وأشجار خضراء، ولكن طائرات العدو دمرت كثيرًا منها، ودفعت عمليات القصف الجوي بكثير من الفيلات إلى أعماق الأرض، وتحولت أماكنها إلى ما يشبه الآبار العميقة، فوهتها بقدر مساحة الفيلا، وقاعها البعيد هو سطحها الذي غار إلى الأعماق بفعل القنابل الثقيلة!

**الحياة تدبّ:**

تجولنا في المساء على شاطئ بورسعيد، وصلينا العشاء في مسجد شهير هناك، لا أذكر اسمه الآن! وكانت المدينة عقب التهجير والحرب تبدو أطلالا هشّمها العدو، ولكن الحياة تدبّ في أعماقها، ويتحرك الناس في شوارعها، وإن كانوا قليلين، وتسبح الزوارق بالقرب من شواطئها، وخاصة أن هناك بعض السكان المهجرين قد عادوا إلى بيوتهم، وبعض المصطافين قد جاءوا لينعموا بشاطئ أكثر هدوءًا وأرخص أسعارًا!

قضينا يومين جميلين في بورسعيد، وتحدثنا مع قاسم في الأدب والفكر والسياسة وأحوال البلاد. حملني في طريق العودة رسالة إلى مذيع يساري من أصدقائه في البرنامج الثاني للإذاعة ما زال حيًّا يرزق، وهو من أبرز المثقفين الذين يتصدرون المشهد الثقافي الآن؛ بحكم اقترابه من السلطة. فهمت يومها أن قاسم ضمن بعض التنظيمات اليسارية، خاصة وأنه كان قد اعتقل قبل شهور من زيارتنا لمدة أسبوعين أو أقل منهما، ثم أفرج عنه، ولا أذكر السبب المباشر لذلك، وهو لم يشر إلى الموضوع في زيارتنا. وقد أوصلت الرسالة إلى صاحبها الذي شكرني على توصيلها.

ظلت بيننا المراسلات بضع سنوات، وكانت تتضمن تعليقات على ما ينشر لكلينا في المجلات الأدبية، أو ما يدور في الحقل الأدبي بصفة عامة، إلى أن سافرت خارج البلاد أواخر السبعينيات، فتوقف التواصل حتى التقينا في مؤتمر أدبي بمدينة العريش عام 2009 فيما أذكر، فتذاكرنا أيام الشباب، وأهداني بعض إصدارته.

ومن خلال متابعتي لما يدور في الحقل الأدبي، عرفت بمشاركاته في مؤتمرات أدبية محلية وإقليمية، حتى قرأت مؤخرًا عن رحيله.

### قلة التكاليف:

كان هناك خبران مهمان في هذه الأيام؛ أولهما يتعلق بشقيقي الذي تخرج في كلية الهندسة جامعة الأزهر من قسم الكهرباء، وهو حدث مهم في القرية وعلى مستوى الأسرة، فقد كان الخريجون الجامعيون آنئذ يمثلون ندرة محدودة؛ بحكم الظروف الاقتصادية التي تجعل من يتعلم يسعى إلى شهادة متوسطة يتوظف بها ويبني حياته الاجتماعية، وأغلب من واصلوا الدراسة الجامعية كانوا في كليات الأزهر الشريف؛ بحكم قلة التكاليف، بالمقارنة بتكاليف التعليم بالكليات الأخرى، ويمكن للطالب الأزهري أن يحصل على الكتب والمحاضرات ويذاكر في القرية حتى يأتي موعد الامتحان، فيذهب إلى القاهرة ويؤديه، ويعود بعده إلى قريته، وقد كان هذا ممكنًا في كليات الأزهر النظرية، أما الكليات العملية التي أنشئت بعد التطوير، فلابد للطالب من حضور المحاضرات ومناقشة المسائل والتجارب، ومشاهدة الدروس العملية، أي البقاء في القاهرة بجوار كليته طوال العام تقريبًا، وهذا ما حدث مع شقيقي، فقد ظل مقيمًا بالقاهرة، باستثناء فترات الإجازة.

### لوّحته الشمس:

وما كاد يتخرج حتى استدعي للتجنيد ضمن ضباط الاحتياط، وذهب إلى إسنا حيث معسكر التدريب الأولي، وعاد إلينا بعد نحو شهرين وقد لوحته الشمس وشققت وجهه وجلده، وعليه علامات الإعياء والجهد الجهيد! ولكنه تحسّن فيما بعد عندما استقر بوحدته القتالية.

وكان لحسن حظه أن القوى العاملة عينته في وظيفة تتناسب مع تخصصه في هيئة النقل العام بالقاهرة، تسلمها فور تسريحه، وظل بها يرقى وظيفيًّا حتى أحيل على التقاعد.

### دخول الكهرباء:

الأمر الآخر الذي حول حياتنا إلى شيء من البهجة، كان دخول الكهرباء إلى القرية وبيوتها. صرنا نضيء البيت والغرف في الليل بأكثر من مصباح كهربائي. لم يعد الأمر قاصرًا في الغالب على مصباح الغاز الواحد في الدار كلها. صارت الأضواء تعم القرية

والشوارع والبيوت. صحيح كانت الكهرباء في أول الأمر قطع أوقاتًا طويلة، وكانت مشكلات التوصيلات الخارجية وانفجار المحولات، تحدث من حين لآخر، ولكن الناس نعموا بالنور لأوقات طويلة، وتعودوا عليه.

نتيجة لدخول الكهرباء، عرف الناس في القرية استخدام الراديو والمسجل والتلفزيون والخلاط، ثم الثلاجة والغسالة، واستخدم الحرفيون الأدوات الكهربية في النجارة والسباكة والحياكة وغيرها، ولكن الأهم كان التلفزيون، وكان أيامها في أغلبه أسود وأبيض، ولكنه كان ينقل الصورة مع الكلام، ويقدم الأشخاص بذواتهم، ويعرض أحوال المسئولين والمشاهير وهم يخطبون ويتجولون في زياراتهم، وهم يتحاورون ويتناقشون مع غيرهم، ثم وهو الأكثر تشويقًا يعرض المسلسلات اليومية والمباريات الكروية والأفلام التي كانت تفرض السفر إلى المدينة لمن يريد مشاهدتها، وغير ذلك من برامج وموضوعات.

**نادرتان:**

ومثلت إعلانات التلفزيون جانبًا مهمًّا من اهتمامات المشاهدين، وكانت أكثر تأثيرًا من إعلانات الصحف؛ بحكم أن الأغلبية العظمى من الناس لا تقرأ الصحف أو تطالع المجلات، ويحضرني في هذا المجال نادرتان:

الأولى: كانت إعلانًا عن حوار أدبي أجريته مع الأديب الكبير الراحل يحيي حقي، ولعلي أشرت إليه فيما سبق، وكان هذا الحوار مثار اهتمام الحقل الأدبي في حينه أواسط السبعينيات، فقد صغت الحوار بطريقة تجمع بين انطباعاتي عن الرجل، والجو الذي جرى فيه اللقاء، وأذكر أنني كنت أقارن بين محل جروبي والفخامة التي يمثلها، ورواده من الميسورين، وبين قريتي والتواضع الذي تحياه وأهلها البسطاء، وأشرت إلى أن الناس في قريتي يؤمنون أن القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود، فإذا بمن وضع عناوين المجلة على الغلاف ونقلها التلفزيون ينسب إلى يحيي حقي كلامي: القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود، وكانت مفارقة طريفة جعلت كثيرًا من الأدباء والقراء يتوقفون عندها ويناقشون الحوار بصفة عامة.

**حامد الشيمي:**

النادرة الأخرى كانت الإعلان عن روايتي الأولى التي نشرتها دار الهلال بعنوان "الحب يأتي مصادفة"، وكان ذلك عام **1976**م. تكرر الإعلان عن الرواية على مدى يومين، وسمع الناس اسمي مقرونًا بالرواية، ولعلها المرة الأولى التي يعلم فيها عموم أهل القرية أن لي علاقة بالكتابة والتأليف، وكثيرًا ما توهموا أنني أكتب عن الحب بمعناه الجنسي، ولكن الرواية كانت تتناول حبًّا آخر، هو حب الوطن .. المهم أن التلفزيون وربما عنوان الرواية كانا من وراء توزيع الرواية بصورة غير مسبوقة ..

كنت في عام **1974** أصدرت مجموعتي "رائحة الحبيب"، وكان بطلها حامد الشيمي هو الذي يتحرك في قصصها، بوصفه مجندًا في القوات المسلحة، وينتظر لحظة المواجهة مع العدو، وحينما تأخرت هذه اللحظة يفاجأ زملاؤه بموته في مشهد مؤثر وحزين!

رأيت أن تسجيل حياة حامد الشيمي في المجموعة مجرد هوامش، وتحتاج إلى احتشاد يجلي حياة هذا الجندي المثقف، ويرصد الواقع الاجتماعي الذي يعيشه، ويضيف لحظة المواجهة والعبور. كتبت الرواية في وقت قياسي لم يتجاوز بضعة شهور، ورحبت بها دار الهلال، وكتبت عنها الصحف والمجلات مادحة ومقرظة، عدا مجلة الطليعة التي كانت تصدر عن الأهرام، وهي منبر للماركسيين المصريين والعرب، وضعت على صدرها عبارة فولتير الشهيرة: إني مستعد أن أدفع حياتي ثمنًا للتعبير عن رأيك، وهي عبارة تفيد أن المجلة مفتوحة لكل الآراء، ولكن الواقع أثبت أنها أكذوبة كبرى من أكاذيب الماركسيين الكثيرة، فلم تكن المجلة تسمح إلا للماركسيين وحدهم بنشر أفكارهم، واكتشفت بعد ذلك أن إشارتهم لتعدد الآراء يقصدون بها آراء الفصائل الماركسية المتنافسة أو المتناحرة، وما أكثرها في مصر!

**اسم مستعار:**

فوجئت بمقال يتصدر الملحق الأدبي للطليعة لكاتب يكتب باسم مستعار ينهال على الرواية هجومًا وتمزيقًا، ولا يرى فيها أية إيجابية أدبية واحدة، ولم أدرك في حينه السبب في هذا الهجوم التتري المباغت، ولكن عرفته بعد قليل، فقد كانت هناك في الرواية

شخصية ماركسية حائرة، وسلوكها يتسم بالتناقض والازدواجية، وهو ما أشعل النار في رأس الكاتب الشيوعي المجهول الذي هاجمني في الطليعة.

أرسلت ردًّا للمجلة، وانتظرت شهرًا وآخر وثالثًا، دون أن يظهر الرد، كما لم تنشره بعد هذه المدة أيضًا! ومع عديد من الحالات المشابهة أيقنت أن الماركسيين وأشباههم في بلادنا لا يؤمنون بحرية الرأي، ولا حق التعبير إلا فيما بينهم؛ ولذا أفسدوا حياتنا الأدبية والثقافية حين سيطروا على وسائط التعبير والنشر سيطرة شبه تامة منذ الستينيات حتى اليوم، باستثناء فترة قصيرة في عهدي السادات ومحمد مرسي. لقد حرموا القاعدة العريضة من الأدباء والمثقفين الذين لا يتبعونهم أو لا يسايرونهم من الظهور والمشاركة، بداية من الصحف والمجلات حتى الكتب والمؤتمرات، مرورًا بالوسائط الإعلامية، مثل الإذاعة والتلفزيون. وإذا كان من المقبول أن يمارس الماركسيون وأشباههم هذا القمع وتكميم الأفواه في الوسائط التي يملكونها وينفقون عليها من جيوبهم، فمن غير المقبول أن يفعلوا ذلك في وسائط يملكها الشعب المصري المسلم، وينفق عليها من ماله وعرقه، وهذا الشعب لا يؤمن بالماركسية ولا أشباهها، وليس من المعقول أن تتحكم أقلية شيوعية لا تتجاوز العشرات، في ثقافة تسعين مليون مصري مسلم، سواء أكان إسلامهم بالعقيدة أو الحضارة.

**إيجابيات وسلبيات:**

على أية حال؛ كان دخول الكهرباء إلى قريتنا وإلى معظم قرى مصر عاملا مهمًّا، له آثاره الإيجابية والسلبية، وللأسف فقد كان اقتناء أجهزة التلفزيون لدى معظم الأسر في القرية له تأثيره السيئ على الفلاحين خاصة، وبعد أن كانوا يستيقظون مع الفجر ويجرّون مواشيهم إلى الحقول والمزارع، ويواجهون فترة الصباح بهمة ونشاط، صاروا يسهرون إلى وقت متأخر من الليل، ويستيقظون في الضحى أو قرب الظهر في خمول واضح، وكانت هذه علامة من علامات التدهور الاجتماعي الزراعي، الذي ما زال يتجه إلى الأسوأ حتى اليوم، بعد أن تناقصت الرقعة الزراعية؛ بسبب المباني الخرسانية الكالحة، وسفر كثير من شباب

الفلاحين إلى الدول العربية للعمل الشاق في الإنشاءات والمباني والأعمال الخدمية المتدنية.

### التحول الاشتراكي:

الفلاحون في قريتنا، وفي قرى مصر تقريبًا مساكين، فهم مهضومون ومظلومون، وخاصة من السلطة على مدى التاريخ،ولكنهم يتغلبون على ذلك بالصبر والحكمة والرضا والقناعة، وإن كانت أعماقهم تخفي كثيرًا من الغضب والسخط والحزن .. وفي هوجة التحول الاشتراكي، والحديث عن المؤسسات التعاونية، أقام نظام الزعيم الملهم ما يعرف بالجمعيات التعاونية الزراعية، لتكون بديلا لليهودي المرابي، أو الخواجة اللئيم الذي يستنزف الفلاح بالقروض، ويحصل على ما ينتجه من محصول بثمن بخس، مستغلا ظروف الفلاح الصعبة، وديونه المتراكمة، وحاجته إلى التقاوي والسماد والمبيدات (لم تكن المبيدات عرفت بكثرة مثلما هي عليه الآن، فسمّمت حياتنا وأجسادنا، وأصابت المصريين بالسرطانات القاتلة والفشل الكبدي والكلوي، وجعلت من مصر أكبر دولة في العالم تزداد فيها نسبة المصابين بالأمراض الفتاكة!).

لم تكن لي علاقة بالجمعية الزراعية ولم أتعامل معها، فكل ما تملكه أسرتي أكثر من نصف فدان، يزرعه أحد الأشخاص نظير إيجار تافه، وجعلته القوانين الثورية شبه مالك له، ويتولى هو التعامل مع الجمعية؛ بحكم أنه الذي يزرع، وقد تحولت المساحة بعد التوريث إلى مجرد قيراط أو أقل لكل وريث!

### معرفة قدرية:

بدأت بمعرفة عالم الجمعية الزراعية وما يجري فيه قدرًا. كنا في نادي الشباب الصيفي بالقرية - كنت مديرًا له - قد فكرنا – نحن الشباب - في إنشاء مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم بالجهود الذاتية. وقد دعوت الجهات الرسمية في القرية وأعيانها للتفاهم حول الطريقة الممكنة لجمع التبرعات وتنفيذ البناء، والاتصال بعد ذلك بمشيخة الأزهر لضم المدرسة (المعهد فيما بعد) إلى الأزهر؛ لتكون له ميزانية سنوية وهيئة تدريس وعمال وكتب وأثاث.

كانت القرية لما تزل رحبة الأرجاء، تتنفس فيها براحتك وترى النهر دون سدود أو قيود من الخرسانة الكالحة القبيحة، وكانت هناك مساحات فضاء معقولة من أملاك الدولة، اخترنا فيها مكانًا مناسبًا لبناء مدرسة القرآن.

**ممثلو الجمعية:**

في الاجتماع الذي دعوت إليه، حضر كثيرون، من بينهم ممثلو الجمعية الزراعية، وبدا واضحًا أن الأمور تمضي في الطريق الصحيح، فقد تشكلت لجنة لجمع التبرعات، وأخرى للاتصال بمصانع الطوب ومستودعات الحديد والأسمنت؛ كي يتبرعوا ببعض الكميات للمدرسة. وقد أبدى بعض المدرسين من أهل القرية الذين يعملون في مدارس تحفيظ القرآن بالقرى المجاورة، اهتمامًا كبيرًا بالأمر؛ ليكون لهم حق الانتقال إلى المدرسة بعد ضمها للأزهر. أيضًا كان هناك بعض الأشخاص الذين يريدون التعيين عمالا في المدرسة بعد ضمها للأزهر نظير تبرعات كبيرة نسبيًّا، وكان هؤلاء وأولئك يقومون بالدعاية للمدرسة، ويشجعون على التبرع، وقد نجحوا نجاحًا جيدًا.

**الشيخ عبد الحليم:**

شجعنا في مشروعنا ما كان يعلنه شيخ الأزهر آنئذ الشيخ عبد الحليم محمود ‘، فقد كان يذهب إلى كل مدرسة تبنى بالجهود الذاتية، ويضمها للأزهر، وكان الرجل يعلن بلا مواربة أنه سيزرع أرض مصر بمدارس تحفيظ القرآن، ووصل به الأمر إلى أن يشجع الناس على بناء المدارس أن يعدهم بضم مدارسهم، بمجرد أن يكون لها حوائط أربعة وسقف من البوص، كان معاديًا للشيوعية، وكان لا يكف عن مهاجمتها ومهاجمة العلمانية والإلحاد والفكر المنحرف عن جادة الإسلام؛ ولذا حظي الشيخ عبد الحليم بهجوم ضار من الشيوعيين وأشباههم، الذين كانوا في عصر السادات ما زالوا يهيمنون على كثير من وسائل الإعلام والصحف. ومع أن الاجتماع كان مثمرًا وطيبًا، إلا أن ممثلي الجمعية الزراعية انفردوا عن بقية المجتمعين بموقف مخالف. كنا عرفنا أن هناك بندًا في أرباح الجمعية السنوية يخصص للنواحي الاجتماعية، فيوزع على الفقراء والمحتاجين والمشروعات الخيرية. بالطبع كان هذا البند مجالا للتلاعب، وإيثار من يحبهم الأعضاء

بالنصيب الأكبر، وأثبت هذا البند أن الجمعية الزراعية تربح أرباحًا كبيرة، لدرجة أن قال بعضهم إن الجمعية حلت محل المرابي اليهودي، بما تفرضه من فوائد على الفلاحين وتحكمها في حياتهم، فضلا عن كلام كثير حول تسرب المقررات الخاصة للفلاحين من تقاوي وأسمدة ومبيدات، لتباع في السوق السوداء، ويفيد من ذلك أناس آخرون، ليسوا من الفلاحين الفقراء بالتأكيد!

**اتهامات متبادلة:**

وكأن المريب يكاد يقول خذوني، فوجئنا في الاجتماع بأحدهم ينفعل ويقول: هذه هي الكشوف التي وزعنا بها البند الاجتماعي، وليس لدينا مال نسهم به في التبرعات المطلوبة!

أسقط في يد الحاضرين، وتحولت المناقشات إلى اتهامات متبادلة، وانفض الاجتماع والجمعية الزراعية وحدها هي التي وقفت موقفًا سلبيًّا، وهو ما فتح الباب بعدئذ إلى تداول أمر الجمعية، ووصول معلومات عنها تفيد بوجود فساد كبير!

**مذكرة للاتحاد:**

استجابة لحماسة الشباب، وبناء على المعلومات التي وصلت إليهم عن إيثار مجلس إدارة الجمعية الزراعية بعض الأقارب والمحاسيب بالبند الاجتماعي، والكلام عن تخصيص مبالغ لبعض الأعضاء دون وجه حق وأشياء أخرى - فقد تم الاتفاق على كتابة مذكرة للاتحاد التعاوني، موضحًا بها التفاصيل، ووقع على المذكرة عدد كبير من أعضاء النادي، تجاوزوا العشرين في مقدمتهم اسمي. وبعد أسبوعين تقريبًا حضرت لجنة تحقيق، وحضرتُ مع بعض الشباب للإجابة عن أسئلة المحققين.

كان يومًا مشهودًا، أشبه بزلزال في القرية؛ لأن أعضاء مجلس الجمعية اكتسبوا حصانة لدى الفلاحين؛ بحكم أنهم يملكون مقدراتهم، ويستطيعون التأثير على مصالحهم، والفلاح بطبعه يتجه إلى من يملك مقدّراته ويمثل القوة، بدءًا من معاون الزراعة إلى العمدة، مرورًا بالجمعية وشيخ الخفراء وشيخ البلد. لا يعنيه وزير الزراعة، ولا مديرها، ولا أي جهة رسمية، أو علمية مهما تعاظمت. الذي يعنيه هو من يتصل بمصالحه وزراعته مباشرة؛ ولذا كان الفلاحون ينتفضون قيامًا إذا مر عليهم عضو الجمعية وهم قعود!؛ تعبيرًا

عن احترامهم له وتقديرهم، فهو الذي يملك مصالحهم، مع أنه من المفترض أنهم هم الذين انتخبوه، وفاضلوا بينه وبين غيره. إنها الطبيعة المصرية في حرصها على المصالح الخاصة قبل أي شيء آخر!

**الحرب المضادة:**

بعد التحقيق بدأت الحرب المضادة، اتصل الأعضاء بالمحققين في أماكن سكناهم، ووسطوا من يملكون النفوذ والسلطة لحفظ الأوراق وتسوية الأمور، وفي الوقت نفسه بدأ استغلال منطق القرابة والمواقف العائلية والمصالح الزراعية والاجتماعية، في إبعاد كثير من الشباب عن الموضوع؛ لدرجة أن من بقي في ميدان المواجهة انخفض إلى خمسة ثم اثنين ثم واحد، وهو شخصي الضعيف!

من طبيعتي أن أقاوم طالما كنت على صواب مهما كانت النتائج. صرت وحيدًا في مواجهة القوم، ولكني عرفت أشياء كثيرة عن الأرض والزراعة ولجان التصالح الزراعية والاتحاد التعاوني ومديريات الزراعة والجهاز المركزي للمحاسبات، وغير ذلك، فقد تعددت التحقيقات وتعدد المحققون، وكان لكل منهم رأي وقرار، يفرض على أعضاء الجمعية سد الثقوب والثغرات التي يتم اكتشافها، وإن كانوا يتصورون أنهم فوق التحقيقات بحكم الانتماء الطبقي أو العائلي، وأن من يواجههم ليس من مستواهم، وكأنهم يقولون له: من أنت؟ أو من هو الذي يجعلنا في موقع الدفاع عن النفس؟

**الخبث الريفي:**

في الوقت ذاته اكتشفت مناطق مجهولة في النفس البشرية، وخاصة حين تجد فرصة المواجهة. رأيت عددًا من الفلاحين ينتظرون ذلك اليوم الذي يصفّون فيه حساباتهم مع أعضاء الجمعية المزمنين، الذين حولوها إلى إمبراطورية خاصة بهم، تتيح لهم الأبهة والنفوذ والكسب الحرام. وعرفت أن هناك من الفلاحين من يخشى المواجهة المباشرة، ولكنه يواجه من وراء ستار فيما يدخل تحت ما يسمى الخبث الريفي .. وهناك من يشجع من بعيد دون أن يتورط .. وهناك من يلعب على الحبلين .. ولكن التحقيقات كسرت

الأبهة أو الهالة التي كانت تحيط الأعضاء، وتجرأ عليهم كثير من الناس؛ ليتكلموا أو يتحدثوا عما يخصهم دون خوف أو وجل!

**صحف التعاون:**

كنت بحكم احتكاكي بالصحافة قد عرفت طريقي إلى صحف دار التعاون، وهي صحف خاصة بالزراعة، ومنها جريدة التعاون التي تصدر أسبوعيًّا، وتصل عن طريق الاشتراك الإجباري إلى الجمعيات الزراعية في كل بقاع مصر. قبل الصدام مع الجمعية كتبت في التعاون الزراعي سلسلة مقالات عن الشباب والتربية والمستقبل، وحين بدا أن مقاومة مجلس إدارة الجمعية للتحقيقات صارت قوية، اتجهت إلى النشر الصحفي عن الموضوع في التعاون الزراعي وغيرها، وكان رد الفعل صاعقًا للقوم، فقد طالعت القرى المجاورة لأول مرة ما يجري في جمعيتنا، وتناقله الناس، وكان صدمة لم يتوقعها مجلس الجمعية! وأذكر أن النشر كان يتضمن صورتي الشخصية، وهو ما شجع بعض الفلاحين في القرى المجاورة على الحضور إلى بيتي، ومطالبتي بعرض مشكلاتهم مع جمعياتهم!

**جلسة ودية:**

وكالعادة في مثل هذه الأمور، تم تحويل قصة فساد الجمعية إلى صراع شخصي، وتم استغلال مشكلة زراعية لبعض أقاربي وحشرها في الموضوع، مع أني لم أكن معنيًّا بها، ووجدت من يدعوني إلى جلسة ودية مع القوم في بيت محايد لحل المشكلة الخاصة ببعض أقاربي. ترددت في البداية، ولكني قلّبت الأمر في ذهني، ورأيت أنه من المناسب أن تكون الجلسة لبيان حقيقة موضوع الجمعية بتفاصيله، ولتكون الصورة واضحة، وخاصة في أذهان رءوس العائلات ممن تصوّروا أنها موضوع شخصي، وليس موضوعًا عامًّا، يخص الناس جميعًا بما فيهم الدولة.

تجمعت أطراف عديدة في اللقاء، وكان فرصة مهمة لهزيمة القوم أمام الحاضرين، وخاصة أنني ركزت على عدم وجود مشكلات شخصية بيني وبين أعضاء الجمعية، وأن مشكلة أقاربي صنعها بعضهم لأغراض غير طيبة، وأن حلها مرتبط بالقضاء.

أسفر اللقاء عن إتاحة الفرصة للفلاحين كي يذهبوا إلى الجمعية، ويناقشوا أمورها بوضوح، وتتم تسوية الأمور بما يحفظ حقوق الناس والدولة، وهو ما ينهي تقديم الشكاوى والمذكرات.

### فساد في الاتحاد:

وترافق مع ذلك أن نشرت الصحف اليومية عن قضايا فساد في الاتحاد التعاوني، وتحويل بعض المسئولين الكبار إلى القضاء، وتقليص صلاحيات الجمعيات الزراعية، وسحب كثير من اختصاصاتها إلى بنك القرية الذي يسمى الآن بنك الائتمان الزراعي؛ ولذا تراجع الإقبال على الترشح لمجلس إدارة الجمعيات في القرى، لدرجة أنهم كانوا لا يجدون مرشحين، فيضطر المشرف الزراعي إلى استعطاف بعضهم كي يقبل العضوية في كيان صوري، لم يعد له من عمل غير تسجيل الحيازات الزراعية تقريبًا. صار البنك يقوم بكل الأدوار إلى جانب دور المرابي اليهودي، بتقديم قروض ذات فائدة عالية للفلاحين، الذين ينتهي ببعضهم الأمر غالبًا إلى السجون؛ لعدم تسديد القروض وفوائدها المركبة!

انتهت قصة الجمعية، وانتهى الأعضاء إلى رحاب الله، ونشأت أجيال جديدة لا تهتم بالزراعة بقدر اهتمامها بالكسب والسفر إلى بلاد النفط، وعبور المتوسط إلى أوربا؛ من أجل اليورو، وهناك من يهاجر إلى أمريكا، في الوقت الذي تتآكل فيه الأرض الزراعية، وتتحول إلى رهينة للمباني الخرسانية القبيحة.

### قضايا السياسة:

كان سفري إلى القاهرة شبه أسبوعي .. أذهب إلى الكلية لشراء الكتب والمذكرات، وأقابل الزملاء وخاصة عبده جمعة، وأطوف بدور الصحف والمجلات لأنشر موضوعاتي أو ألتقي بالأدباء والصحفيين ممن أحب.

كان الأديب ثروت أباظة قد عين رئيسًا لتحرير مجلة الإذاعة والتلفزيون، واستقطب عددًا من الأدباء الذين عينهم فيها، ولأن طبيعة المجلة أقرب لتناول الأمور الفنية وما يجري في الجهاز الإعلامي؛ إلا إنه ذهب بها إلى قضايا السياسة والفكر والأدب، وركز على انتقاد عهد عبد الناصر بقوة، بالإضافة إلى كشف مساوئ هذا العهد وجرائمه، وفي

مقدمتها التعذيب داخل المعتقلات. ولم تكن الإذاعة والتلفزيون بدعًا في هذا الأمر، فقد قاد الحملة على عصر عبد الناصر مجموعة من الصحفيين، في مقدمتهم مصطفى أمين وجلال الحمامصي وأنيس منصور، فضلا عن كبار الكتّاب الذين عبروا عن ذلك مباشرة، مثل توفيق الحكيم في كتابه "عودة الوعي"، أو بطريقة فنية مثل نجيب محفوظ في روايته "الكرنك".

وشهدت مجلة الإذاعة تحقيقات وحوارات ومقالات، أبرزها – كما أشرت من قبل – ما كتبه صديقي الراحل جابر رزق، الذي وثق ما جرى في معتقلات عبد الناصر من تعذيب بشع وانتهاكات وحشية للمعتقلين من الإخوان المسلمين وغيرهم.

**مقال وإقالة:**

بيد أن مقالا كتبه ثروت أباظة في افتتاحية المجلة على شكل قصصي رمزي بعنوان "الحصان الذي نفق"، عجل بإقالة ثروت من رئاسة مجلس الإدراة والتحرير في مجلة الإذاعة والتلفزيون، والمقال يشير إلى عبد الناصر وعهده في رمزية لا تخفى، وكان قد كتب قبل هذا المقال بعض المقالات الأخرى، منها مقال بعنوان "في أي شيء صدق".

انتقل ثروت إلى الأهرام رئيسًا للقسم الأدبي، ولحقه عدد من الأدباء الذين عينهم في مجلة الإذاعة والتلفزيون، الذين صاروا معه في القسم ذاته.

وفي فترة وجود ثروت بالمجلة استطعت أن أنشر مجموعة من المقالات والموضوعات، وكان الرجل – وقد عرفته في الستينيات بنادي القصة عندما كان سكرتيره العام – يرحب بكل ما أكتب وينشره مباشرة.

كما تمكن صديقي الدكتور عبده بدوي في عهده أن يعيد إصدار مجلة "الشعر" الفصلية من ميزانية مجلة الإذاعة، وكان ذلك بدعم يوسف السباعي، الذي صار وزيرًا للإعلام والثقافة معًا.

**الأدب الإسلامي:**

وقد بدأت أكتب مقالات نقدية قصيرة في الصفحة الأدبية للأهرام، التي كان يشرف عليها ثروت أباظة، وأظنني كنت أول من أثار قضية الأدب الإسلامي من خلال هذه

الصفحة، فقد كتبت مقالا بعنوان: "سؤال بلا إجابة"، أشرت فيه إلى الأدب الذي يحمل تصورًا إسلاميًّا، وهل له وجود؟ وفوجئت في الأسبوع التالي برد الأستاذ "عباس خضر" في مقال بعنوان "نعم سؤال وله إجابة"، تطرق فيه إلى ما يعرف بالروايات التاريخية التي تتناول تاريخ الإسلام وأحداثه. لم أكن أقصد هذا النوع من الكتابة. كنت ببساطة شديدة أسال عن الأدب الذي يكتبه صاحبه برؤية إسلامية، وهي بالضرورة تختلف عن الرؤية الماركسية والرؤية الوجودية والرؤية المادية عمومًا.

**الطبيعة الريفية:**

في الوقت ذاته كتبت في الصفحة الأدبية بجريدة "الأخبار"، التي كانت تشرف عليها الصحفية الراحلة حُسْن شاة، وكانت تخصص مكافأة لما أكتب، تبلغ ستة جنيهات للمقال. "الأهرام" لم تكن تكافئ، وعلمت أنها تدفع لمن يطلب ويلح، ولكن طبيعتي الريفية كانت أبعد عن الطلب والإلحاح. الأخبار كانت تصرف المكافآت تلقائيًّا، ونبهني إليها بعض من أعرف!

تولى صفحة الأدب بالأخبار شخص آخر بعد حُسن شاه. نشر لي مقالا أو اثنين، ثم توقف عن نشر ما أكتب. لم ألتق بهذا الشخص ولم أتعرف إليه، وكنت أرسل إليه المقالات بالبريد مثلما أفعل مع بقية الصحف والمجلات داخل مصر وخارجها، ويبدو أنه وجد أن من طقوس النشر وتجلياته أن يذهب إليه الأدباء والكتاب، ويجلسون بين يديه، ويقدمون له قرابين الطاعة والولاء، ثم يضيفون إلى ذلك الكتابة عن قصصه وأعماله المتواضعة بمفاهيم النقد الجاد، والرفيعة بلغة النفاق الرخيص!

**أدباء الدعاية:**

ذات يوم كان يزورني في مكتبي بالجامعة أحد الأدباء، وأشار في ثنايا حديثه إلى مقال كنت قد نشرته في الأهرام بعنوان "أدباء الدعاية"، وأخبرني أنه كان في الأخبار لدى المشرف على الصفحة الأدبية الذي أبدى غضبه من المقال وصاحبه، وظن أنه المقصود بمضمونه، وصرح للحاضرين أنه كان ينشر ما أكتبه فور تلقيه، في إشارة إلى أنه قرر عدم نشر شيء لي مستقبلا، وهو ما حدث بعد ذلك، لدرجة أنه كان يحذف أي خبر يتعلق بالرسائل الجامعية أو القضايا الأدبية ويتضمن اسمي في الصفحة التي يشرف عليها، أو الجريدة التي منحها له نظام مبارك – فيما بعد - مكافأة على ولائه وإخلاصه!

لم يكن المذكور على بالي إطلاقًا وأنا أكتب مقال "أدباء الدعاية"، كان في ذهني أدباء مزيفون آخرون، أعرفهم جيدًا، وأتابع تصرفاتهم وسلوكهم؛ ليقنعوا الناس أنهم أدباء حقيقيون، وجديرون بحمل القلم، ولكني تذكرت على الفور بداية المذكور، وروايته الأولى التي طالعتها في الستينيات، وسجلت في كل صفحة من صفحاتها القليلة أكثر من عشرة أخطاء إملائية ونحوية وصرفية وتركيبية، ثم تابعت كتاباته التالية، فوجدته لا يملك أدوات الكتابة، ولا رؤية الكاتب الموهوب .. للأسف كانت أدواته وموهبته هي الدعاية والتعلق بأذيال كبار المسئولين والأدباء؛ مما أوصله لتصدر المشهد الثقافي مع أمثاله ممن احتضنهم النظام البوليسي الفاشي في عهد مبارك، ومنحهم جوائزه وعطاياه؛ تقديرًا لدورهم في تسويغ جرائمه، وتأييد ديكتاتوريته واستبداده!

**القطط الأليفة:**

لم يكن المذكور بدعًا في هذا المجال؛ فأغلب رفاقه من اليساريين الذين جندتهم أجهزة الأمن في تنظيماتها السرية والتنظيم الطليعي من أيام عبد الناصر، أو سيطرت عليهم بطريقة غير مباشرة، كانوا يرفعون حناجرهم على المقاهي وفي الندوات بالكلام عن النضال ضد الرجعية والإقطاع والرأسمالية، ولكنهم حين يجلسون في حضرة المسئولين أو الأدباء الكبار، وخاصة من ينسبون إلى هذه الصفات التي يناضلون ضدها، يبلعون ألسنتهم، ويتحولون إلى قطط أليفة، تتمسح في أصحابها – أعني هؤلاء المسئولين والأدباء.

أذكر أنني رأيت بعضهم يدخل على الأستاذ ثروت أباظة في مكتبه بالأهرام، وهو المصنف ضمن الرجعيين والإقطاعيين الكبار، فيقدم قرابين الولاء والطاعة والتفخيم والتعظيم، وينادية بلقب "الباشا"، الذي كان من النادر استخدامه آنئذ، فأتعجب لذلك التناقض بين ما يقوله حضرة المناضل في الخارج وما يقوله هنا، ولكنها أحوال العباد ومفارقاتهم!

**التعتيم الكامل:**

وبالمناسبة أيضًا فقد فرض الشيوعيون أو المناضلون الاشتراكيون - ممن يعملون في الحقل الثقافي - تعتيمًا شبه كامل على أدب ثروت أباظة، ومن يخالفون الفكر الشيوعي أو اليساري، من أمثال أحمد حسن الزيات وعبد العزيز البشري ومحمود تيمور ومحمد عبد

الحليم عبد الله ومحمود البدوي ومحمد فريد أبو حديد ومحمد عوض محمد ومحمد سعيد العريان وعلي الجارم ومحمود حسن إسماعيل وعبده بدوي وأمين يوسف غراب وعلي أحمد باكثير ويوسف السباعي وصالح جودت، وغيرهم.

ومع رسوخ حكم مبارك وسيطرة اليساريين وأشباههم على وسائط الثقافة والإعلام والتعليم، تم استبعاد كل من لا يسايرهم ويصفق لهم، وقد أفادوا من البطالة التي برزت بقوة في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، وتجمّع أعداد كبيرة من الشباب الذي يحمل أغلبه شهادات متوسطة أو عالية، في المقاهي التي يجلسون عليها في وسط البلد، فصنعوا منهم أدباء ومثقفين، وهم لا يملكون أبجديات الأدب والثقافة – أقصد الإملاء والنحو والصرف والعروض - وامتلأت الصفحات الثقافية بكلام غث ركيك، يتعجرف أصحابه، ويزعمون أنهم أدباء كبار ومثقفون عظام، وهم في حقيقة الأمر يمثلون خواء موحشًا وسلوكًا فجًّا، وكل إنجازهم هو الانضمام لما أطلق عليه وزير ثقافة مبارك المزمن اسم "الحظيرة الثقافية"!

## محاولة تفكيك:

شهدت أواسط السبعينيات محاولة السادات لتفكيك تجمعات اليساريين الثقافية، بعد أن غادر كبارهم إلى الخليج وأوربا للعمل الصحفي أو الثقافي أو في مجال التعليم. كان هناك فريق يلتف حول مجلة الطليعة التي يرأس تحريرها لطفي الخولي، وفريق آخر يعمل في مجلة الكاتب، أو يتعاون معها، ويؤمن بفكرها. بدأ الأمر بالطليعة، وتم تحويلها بقرار من مؤسسة الأهرام – وكان رئيسها في ذلك الوقت يوسف السباعي - إلى مجلة علمية تخاطب الشباب، وسميت في البداية باسم الشباب والعلوم، ثم استقرت على اسم الشباب، ورأس تحريرها في البداية الصحفي "صلاح جلال"، ثم الصحفي عبد الوهاب مطاوع، الذي استمر في رئاستها قرابة ثلاثين عام حتى رحيله.

ناح الشيوعيون وأثاروا كثيرًا من الغبار والتراب عن حرية الفكر وحق التعبير .. ومن المفارقات أن الطليعة – كما أشرت من قبل - كانت ترفع شعار فولتير الشهير: "أنا على استعداد أن أدفع حياتي ثمنًا للتعبير عن رأيك". وللأسف الشديد فلم يكن المقصود عامة المثقفين والمفكرين والقراء، ولكن الأمر كان مقصودًا به حرية الفصائل الماركسية

المتصارعة أيامئذ؛ كي تعبر عن آرائها، فلم تنشر المجلة على امتداد سنواتها موضوعًا أو مقالا لغير الماركسيين أو المسايرين لهم! وكانت في كل الأحوال تبشر وتدعو إلى الفكر الاشتراكي الماركسي، وترفع راية الديمقراطية، وتقصد بها الاستبداد الشيوعي، وبالطبع تأخذ موقفًا عدوانيًّا حادًّا من الإسلام وقضايا المسلمين.

### شخصية طيبة:

أما مجلة الكاتب فقد عيّن لرئاسة تحريرها الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور، وبحكم صلته السابقة باليسار وتشكيلاته، فقد كانت الحملة عليه محدودة، وصارت المجلة ضمن مجلات الوزارة تنشر أدبًا في معظم صفحاتها (قصة وشعر ونقد وحوارات وعروض كتب)، وكان يساعد صلاح عبد الصبور في التحرير الناقد الراحل علي شلش، وهو محرر بمجلة الإذاعة والتلفزيون، ويتمتع بشخصية طيبة دمثة الخلق، ويحظى باحترام من كل معارفه، وقد عرفته في منتصف الستينيات تقريبًا، وتوطدت الصداقة بيننا حين عرفت أنه ينتمي إلى محافظة البحيرة التي أنتمي إليها، وكان والده قاضيًا شرعيًّا، عمل في شبراخيت التي كانت قريتي تنتمي إليها إداريًّا قبل إنشاء مركز الرحمانية. وقد اعتقل مع آخرين في أثناء ندوة أدبية برابطة الأدب الحديث، وقضى شهورًا في معتقلات عبد الناصر عام 1968 دون تهمة محددة.

وكان يساعده على العمل في "الكاتب" وجود مقر مجلة "الإذاعة" مقابل مقر "الكاتب" في دور واحد بمبنى واحد على كورنيش النيل بالقرب من مبنى التلفزيون المصري. وقد طلب مني المشاركة في الكاتب، ونشر لي مجموعة من المقالات النقدية، قدمت في بعضها من صاروا مشهورين فيما بعد!

ظلت "الكاتب"على قيد الحياة وقتًا قصيرًا ثم أغلقت، ولم يبق من المجلات غير مجلة "الثقافة" الشهرية ومجلة "الهلال" التي ألغت ملحقها مجلة "الزهور"، بعد أن تولى رئاسة تحريرها الدكتور حسين مؤنس، ومجلة "الشعر" الفصلية.

ويبدو أن الوضع الاقتصادي المتدهور في ذلك الحين فرض تقليص النفقات، وهو ما أثّر على استمرار بعض المجلات.

**ازدهار غير مسبوق:**

في الوقت ذاته كانت بعض المجلات والصحف الإسلامية تحقق ازدهارًا صحفيًّا غير مسبوق. كانت الاعتصام تتطور في الشكل والمستوى، وتدخل المعترك السياسي والاجتماعي بقوة ملحوظة، لدرجة أنها مثلت منبر المعارضة الحقيقية الأول للنظام، وانتقلت إلى الطبع بالألوان وجمع المادة باللونتيب، وهو نظام متقدم عن نظام الجمع اليدوي، وكان طبعها في مطابع الأهرام التجارية، نقلة كبيرة، أسهمت في زيادة التوزيع بطريقة غير مسبوقة، خاصة أن شركتي التوزيع الصحفي الكبريين (الأهرام والأخبار) كانتا تتنافسان على توزيع المجلة.

أيضًا، فإن مجلة الدعوة الصادرة عن الإخوان المسلمين، ولها جهاز تحريري أفضل من الاعتصام، لقيت رواجًا كبيرًا؛ فالإخوان يشترونها، والجمهور العادي كان يبحث عما يقوله الإخوان، وعن أدبياتهم؛ ليتعرف عليهم وعلى أفكارهم.

وكانت مؤسسة أخبار اليوم قد أصدرت جريدة أسبوعية بحجم التابلويد باسم "اللواء الإسلامي"، معتمدة على نشر تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي على مساحة ست صفحات، بالإضافة إلى مناقشة القضايا الإسلامية المطروحة للنقاش، وغالبًا ما كانت ترد على ما تطرحه الاعتصام والدعوة بمنطق حكومي، يهدف إلى تخفيف حدة المشكلات أو يحولها إلى اتجاه آخر.

في السياق ذاته بدأت المجلات التابعة لبعض الجمعيات الإسلامية، مثل التوحيد والهدي الإسلامي تنشط في الصدور، وطرح ما تعتقده من موضوعات خاصة بها وبأعضائها، ولكن ظل توزيعها محدودًا، ولكن متابعة إصداراتها كان دليلا على نشاط الحركة الإسلامية بصورة عامة.

***

## 9 - الجائزة الكبرى

**أرض النفاق:**

كتب يوسف السباعي رواية متميزة اسمها "أرض النفاق"، أعدّها من أفضل ما كتب في الفن القصصي، وقد انتقد فيها بطريقة ضاحكة ساخرة ما يجري في أرض مصر، وخاصة آفة النفاق. وقد تبارى المنافقون في عهد انقلاب 1952 في مدح جمال عبد الناصر إلى درجة تأليهه حتى كانت القارعة في عام 1967، التي أودت بكرامة الوطن، وهبطت به إلى الحضيض، وما زلنا ندفع ثمنها حتى الآن!

في عهد السادات أخذ النفاق صورة أخرى، حيث أضيف إلى نفاق الرئيس نفاق السيدة زوجته، وإذا كان العهد الملكي يضم ملكًا وملكة، فالعهد الجمهوري صار يضم رئيسًا وسيدة أولى! وإذا كانت الملكة في العهد الملكي لا تتجاوز مهمتها وأنشطتها حدود البروتوكول الملكي المحدود في الاستقبالات واللقاءات الملكية الرسمية، ولا تطلق تصريحات سياسية أو غيرها، فإن السيدة الأولى أضحت رئيسًا آخر، ولكن بوجه أنثوي!

**سي السيد:**

كانت البداية في حرب رمضان والهلال الأحمر حيث ظهرت السيدة الأولى في مشهد إنساني لمواساة ضحايا الحرب، والاهتمام بالجنود المصابين وأسرهم، وحل مشكلاتهم، وأفسحت الصحف وبرامج التلفزيون والإذاعة مساحات ورقية وزمنية كبيرة لأنشطة السيدة الأولى وإنجازاتها (الكبرى) في تضميد الجراح، ومواساة أهالي الشهداء ومساعدتهم!

وانتقل النشاط إلى مجال المرأة المصرية؛ بحكم أنها - من وجهة نظر السيدة الأولى - مظلومة ومضطهدة وضحية للرجل الظالم الملقب بـ"سي السيد" وفقًا لما روجت له أفلام حسن الإمام، المأخوذة عن ثلاثية نجيب محفوظ.

وصدر قانون للأحوال الشخصية، يمنح المطلقة شقة الزوجية، وحضانة الأطفال. ثارت ثائرة الشعب المصري، ونتج عن تطبيق القانون حوادث دامية: انتحار بعض الأزواج، أو قتل الزوجات والأولاد. فقد كان قانون المساكن المؤجرة السائد حينئذ يمنح المستأجر شبه ملكية دائمة للشقة المستأجرة، لا يخرج منها، لا هو ولا ورثته إلا إذا قصّر في دفع الإيجار البسيط، الذي تضاءلت قيمته بسبب التضخم، أو غيّر طبيعة السكن تغييرًا يضرّ به، ويهدّد حياة السكان الآخرين، وفي كل الأحوال كان طرد المستأجر من السكن لإخلاله بالعقد لا يتم إلا بعد سلسلة طويلة من إجراءات التقاضي تستغرق سنوات.

**قانون جيهان:**

في ظل هذا القانون جاء قانون الأحوال الشخصية، الذي عرف شعبيًّا في حينه باسم قانون جيهان أو "الشقة من حق الزوجة" - صنع منتجو الأفلام فيلمًا بهذا الاسم – ليصبّ في قهر المصريين وتمزيق العلاقات الأسرية، فالزوجة المتمردة وجدت في القانون ضالتها للتنكيل بزوجها وطرده إلى الشارع ليكون بلا مأوى، كما أن الزوج الذي يعاني من زوجته التي لا يطيق العيش معها أمامه حلان: أن يقبل حياة الذل والقهر والإحساس بعدم الرجولة، أو يقدم على جريمة من اثنتين: الانتحار أو قتل الزوجة، وهو ما ظهرت نتائجه في الحال، حيث نشرت الصحف كثيرًا من الحوادث المؤلمة والفاجعة بسبب القانون!

كانت "الاعتصام" أول من تصدى لهذا القانون، وكتبتُ المقالة الرئيسة التي كانت عنوانًا للغلاف، وركزت على ما فعله المشايخ الكبار الثلاثة الذين تحملوا وزر هذا القانون، وفي صدارتهم شيخ الأزهر آنئذ، وكان عنوان الغلاف يحمل جملة طريفة "الطبخة الشهية في قانون الأحوال الشخصية"، بالإضافة إلى مقالات أخرى، مع نشر صور للحوادث التي وقعت نتيجة للقانون كما ظهرت في الصحف اليومية!

**السيدة الأولى:**

ولا ريب أن حملة الاعتصام على القانون شجعت صحفًا ومجلات أخرى على تناول الموضوع، وإن لم يكن بطريقة الاعتصام وجرأتها، وصارت مواجهة القانون قضائيًّا

وشعبيًّا، تأخذ حيزًا كبيرًا في اهتمامات الناس، ولوحظ عزوف كثير من الشباب عن الزواج بسبب هذا القانون، وهو ما أدى إلى النظر فيه وتعديله.

دور السيدة الأولى في قانون الأحوال الشخصية تم تفسيره في إطار عملية تغريب المجتمع، وتجاوز التشريع الإسلامي، وخاصة حين بدا أن زوجة الرئيس منحازة إلى الثقافة الغربية بحكم الوراثة، فوالدتها إنجليزية بروتستانتية، تزوجت والدها المصري المسلم دون أن تغير عقيدتها. ويبدو أنها كانت موزعة بين ثقافتين .. ثم إنها التحقت بالجامعة المصرية وهي تحمل شهادة التوجيهية الإنجليزية، التي عودلت بالثانوية العامة المصرية، وقد تبنتها الدكتورة سهير القلماوي طوال مرحلة الليسانس، وأيضًا في الدراسات العليا، حيث كانت رسالتيها للماجستير والدكتوراه في الأدب المقارن من خلال الأدباء الإنجليز. وفي ظل احتشاد كبير من أساتذة وصحفيين وأجهزة إعلام، تم تقديمها زوجة مجتهدة، تبذل جهدها في مجال العلم وخدمة المجتمع، ولكن في صورة غربية صادمة للمجتمع أحيانًا.

### أحاديث النميمة:

انطلقت السيدة الأولى لتتحرك في المجتمع على أكثر من مستوى، وكان واضحًا أنها تركز على فكرة تأنيث المجتمع بما يتفق مع الثقافة الغربية في صورتها السلبية وتجلياتها المخاصمة للمجتمع المسلم. لقد لمعت في مؤسسات اجتماعية وشاركت في قضايا سياسية، والتف حولها عدد من السيدات والفتيات اللاتي برزن في أدوار اجتماعية وسياسية، ولم تخل يومًا صحيفة أو برنامج تلفزيوني أو إذاعي من أخبار السيدة الأولى وصورها، وبدأت أحاديث النميمة تتناول تدخلاتها في الشئون العامة، بتعيين هذا وتهميش ذاك وإبعاد ذلك، وكان رد الفعل الشعبي حادًّا عندما عانقها الرئيس الأمريكي جيمي كارتر - راعي اتفاقيات الصلح مع العدو الصهيوني - في احتفال رسمي بالبيت الأبيض، وقد استغل هذا الحدث العقيد معمر القذافي الرئيس الليبي، الذي أطاحت به الثورة الليبية عام 2011 استغلالا سيئًا وفاحشًا، حيث علق صورة العناق في مطار طرابلس الدولي وفي ميادين أخرى. قيل بعدها إن الرئيس السادات انتقل للإقامة بدون الأسرة في استراحة القناطر الخيرية مع التردد على بيته ميت أبو الكوم منوفية!

**تأنيث السلطة:**

أذكر تعليقا لنجيب محفوظ في مجال تفسير مصرع السادات عام **1981**، بأن الاغتيال كان رد فعل المجتمع على تأنيث السلطة، في إشارة إلى تدخل زوجته في شئون الحكم، وقد يكون في هذا التفسير بعض الصواب، ولكنه ليس السبب المباشر، وإن كان يصب فيه ويدفع به إلى دائرة الفعل، ويعبر في كل الأحوال عن رؤية المجتمع لدور المرأة حين تطيح بالرجل عمليًّا.

بعد رحيل السادات، فإن السيدة الأولى التي أضيف إليها لقب السابقة، ظلت إلى حد ما في بؤرة الأحداث، وخاصة في تنقلاتها بين مصر وأمريكا، وأحاديثها عما يسمى السلام بين مصر والعدو اليهودي في فلسطين المحتلة، ولكنها ورّثت السيدة الأولى التي جاءت بعدها منهج العمل السياسي، والتدخل في شئون الحكم، وتغريب المجتمع، وهو ما تجلى في بعض المشاركات الدولية والقوانين الخاصة بالمرأة المسلمة!

وفي كل الأحوال فإن "الاعتصام" حين تصدت لعملية تمزيق العلاقات الأسرية وتغريب المجتمع بالقوانين الظالمة، فتحت الباب أمام الأقلام الوطنية، وشجعت كثيرًا من الصحف - في جو الحرية النسبي - على التصدي للمؤامرات التي تستهدف الإسلام والمجتمع في مصر.

**معظمهم تزوجوا:**

عندما انتظمت في عملي بالتدريس عقب إنهاء الخدمة العسكرية، كانت أمي تلح عليَّ من أجل الزواج. قاربت الثلاثين دون بناء أسرة. معظم زملائي تزوجوا، وأصبح لديهم أبناء. كنت أرى الأمور بعين أخرى، تضع في الذهن حسابًا للإمكانات والمكان والمستقبل.

بحكم الإلحاح، اقترح عليَّ زميل في المدرسة التقدم لزميلة تعمل معنا، وكانت خطبة، وكان استعداد للدخول، وبعد عام تقريبا، تغيرت الأحوال، وأصرت الخطيبة فجأة على السكنى في المدينة ومخالفة الاتفاق بالسكن في القرية، وأصر كل طرف على رأيه، فتم الانفصال!

**تغيرات المجتمع:**

في هذه المرحلة كانت تغيرات المجتمع قد أخذت أبعادًا غريبة، وصار الشكل والمظهر والقيمة المادية، تسبق أشياء كثيرة، كان المجتمع يحرص عليها من قبل: الأخلاق، الدين، الجوهر، المضمون، الأصل، الوفاء، الرضا، الإخلاص .. بدأت هذه القيم تتلاشى أو تتراجع أمام السعار المجنون للكسب السريع، ومن يملك القرش يساوي قرشًا، وراحت بعض الفئات تتصدر المجتمع؛ لأنها تملك مالا أكثر، مثل الحرفيين (السباك، الميكانيكي، الكهربائي، النجار، السائق، البناء، المبلط، عامل المحارة)، والتجار الذين صاروا يسمون أنفسهم رجال أعمال، ويخجلون بل يرفضون صفة تاجر.

ورأينا ما يشبه الانقلاب الاجتماعي بعد السماح للمصريين أن يستخرجوا جوازات سفر، وينطلقوا للعمل بالعراق والخليج وليبيا، وأوربا فيما بعد، رأيت منظرًا لا أنساه؛ لأنه أثار في نفسي كثيرًا من الدهشة والتقزّز. كنت في أحد الموانى، سمعت صوتًا عاليا لسيدة عائدة من الخليج وقد دهنت وجهها بأصباغ فاقعة، وشعرها المكشوف متعدد الألوان، وكانت تتحدث - قبل ظهور المحمول - في كابينة الهاتف العمومي إلى من يسمعها على الجانب الآخر، وتعدّد له الأصناف التي تريدها على الغداء عندما تصل إليه. كان من حولي يستمعون إلى السيدة وهي تعدد أصناف الحمام والفراخ والبط التي تشتهيها، والفواكه والحلويات التي تتمنى التهامها، وظننت أنها تملك عشرات المعدات التي تستعد لهضم الكميات الكبيرة والأنواع المختلفة والأصناف الكثيرة التي تنتظر التهامها!

تعجبت لهذه الشهية أو الشهوة المفتوحة للطعام، وتساءلت فيما بيني وبين نفسي عن الشهوات الأخرى، وكيف يمكن الاستجابة لها؟ لا ريب أنها ثقافة زمن انقلابي، صارت فيه الأنا تسبق النحن، ولم تعد القيم الإنسانية في صف الاعتدال والسلوك الطبيعي!

**العنصر المادي:**

لقد أضحى الزواج مثلا مرتبطًا بالسكن والمال، وهو أمر ضروري لا شك فيه، ويفترض أن يتوفر حد أدنى لمواصلة الحياة. ولكن حين يتحول الأمر إلى ما يفوق الطاقة ويصبح معضلة المعضلات، فهذا خلل قيمي واجتماعي.

لم يعد يهم القوم طبيعة الزوج أو الزوجة من الناحية الخلقية والإنسانية والسلوكية. المهم هو توفر العنصر أو العناصر المادية. لم يعد التكافؤ الروحي أو الثقافي له قيمة أو حضور. انقلبت المعايير، وصارت احتفالات الخطوبة والشبكة في سرادقات ضخمة، ويتم الإنفاق عليها بإسراف وبذخ واضحين، ثم ما تلبث الأمور بعد وقت قصير أو طويل تنتهي إلى انفصام أو خصام، دون أن يتأثر أحد الطرفين أو يشعر بحرج من عيون المجتمع كما كان يحدث في الزمن السابق. أضحت الأمور رهينة بمقدار العائد المادي من الطرف الآخر.

كانت هذه سمة المرحلة التي أعقبت الانفتاح، وكنت أعجب لها، ولكن الأمور بعد عقدين أو ثلاثة يبدو أنها عادت بصورة ما إلى بعض التوازن، وربما تعود إلى التوازن الكامل حين يسود العدل أركان المجتمع، ويقدر الناس حسب كفاءتهم.

**المستقبل أفضل:**

بعد فسخ الخطوبة لم أشغل نفسي بموضوع الزواج ثانية. بدا الارتياح على وجه أبي لعدم إتمام الزيجة، مع أنه كان يجتهد في التجهيز للعرس .. كانت مشاعره المكتومة تشير إلى رفضه للأمر من بدايته، ولكنه لم يشأ أن يضايقني، ويبدو أنه تصور أن الأيام كفيلة بتحسين الأمر الواقع الذي يرفضه. أما أمي فكانت في حيرة وغضب وحزن، ولكنها كانت تشعر أن المستقبل سيكون أفضل. وكان رد الفعل عند من حولنا من أهل القرية: لماذا يذهب بعيدًا، والقرية فيها بنات كثيرات؟ وكانت معظم التعليقات تدور حول ضرورة البحث عن الطرف الذي يفهمك ويستجيب لك ويريحك. وتعددت التعليقات والآراء، ولكني تجاهلتها جميعًا، وحاولت نسيان الأمر برمته.

**نداء على المنصة:**

انصب اهتمامي على الانتهاء من الدراسة الجامعية، ومتابعة كتاباتي في الصحف والمجلات، وإصدار بعض الكتب، والمشاركة في بعض البرامج الإذاعية الثقافية.

تابعت الذهاب إلى الكلية؛ لأتابع بعض المحاضرات، وذات مرة استمعت إلى الدكتور شفيع مدرس البلاغة والأدب المقارن والنقد الأدبي آنئذ يخرج كشفًا وهو على المنصة،

وينادي على اسمي وسط حشد من مئات الطلاب الذين يغص بهم المدرج، ويعلن: الطالب فلان الفلاني – الذي هو أنا – له مكافأة خمسة جنيهات؛ لتفوقه في مادة النقد الأدبي التي امتحنها في الفرقة الثانية العام الماضي. كان مبلغ الجنيهات الخمسة كبيرًا بمقاييس هذه الفترة، الجائزة بعثت في نفسي حالة من الانتعاش والحيوية والأمل. إنها جائزة كبرى. لم أستطع الرد على الدكتور .. لزمت الصمت وكان خجلي أن يراني وأنا من أكبر الطلاب سنًّا، ثم وهو الأهم خجلي أن يعرف أنني الشخص الذي يكتب في الصحف والمجلات الأدبية. كان هذا الخجل من وراء تضييع درجات التدريب الشفهي في بعض المواد اللغوية، فقد كنت أستحي أن أذهب إلى المعيدين والمدرسين المساعدين لأعرفهم بنفسي .. كانت تلك سلبية من سلبيات تربيتي الريفية التي يلازمني شيء منها حتى الآن.

**نداء متكرر:**

تكرر النداء من الدكتور شفيع في أكثر من محاضرة وأنا ألتزم الصمت، وهو يطلب من الطلاب الذين يعرفونني أن يبلغوني بأمر الجائزة، ولحسن الحظ لم يكن عبده جمعة موجودًا في هذه المحاضرات. وتشجعت بعد محاضرة من محاضرات الدكتور شفيع، وذهبت إليه وهو يجلس أمام أحد المدرجات يستقبل أشعة الشمس الدافئة، وكنا في فصل الشتاء. ألقيت عليه التحية، وأخبرته أنني الطالب الذي يبحث عنه .. اندهش وفرح وصاح:

- إنت فين؟

وتبادلنا حوارًا عرف من خلاله أنني الشخص الذي يكتب في الصحف والمجلات. ازداد فرحًا، وعانقني، وقال لي بمودة كبيرة:

- أنت زميل، ولست مجرد طالب!

وكأنه كان يبشر بالمستقبل، ونادى على العامل وطلب لي شايًا، ثم عرفني على بعض الأساتذة في القسم، ومنهم الدكتور على عشري زايد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي أشرف على رسالتي للماجستير فيما بعد، وقد أخبرته أنني أعرفه منذ سنوات بعيدة، أيام كان يعد للدكتوراه،

ويجلس للاطلاع في معهد الدراسات العربية بجاردن سيتي. كنت أرافق الأستاذ أنور الجندي إلى هناك، ورأيت الدكتور علي أكثر من مرة، فتذكّر وضحك.

**القراءة الخارجية:**

صرت أتردد على الأساتذة في أحيان قليلة، ولم يفارقني الشعور بالخجل الريفي، ولكني كنت أجتهد في متابعة الدراسة والقراءة، وإن كان جهدي الأكبر في القراءة الخارجية، أي خارج المقررات الدراسية، فضلا عن متابعة الصحف والمجلات.

نجحت في السنة الثالثة بالكلية، وكان تقديري كما هو في السنتين السابقتين "جيد مرتفع"؛ لعدم حصولي على درجات التدريبات الشفوية، وبدأت أستعد للسنة الرابعة، ولكن شيئًا ما أزعجني، وهو تناقص قدرتي على الحفظ. كنت في الماضي أستطيع بعد قراءة الصحيفة اليومية أن أعيد موضوعاتها بالنص، وأن أشير إلى أماكن الأخبار في الصحيفة، وكنت أحفظ القصائد الطويلة، بل أحفظ بعض القصص القصيرة، وأكتب الموضوع النقدي وأستشهد فيه ببعض النصوص دون الرجوع إلى الكتاب موضوع النقد. أزعجني أكثر أنني أصبحت أتردد في قراءة الآيات القرآنية والتلاوة المباشرة المستمرة. أتوقف أحيانًا؛ حيث لا تسعفني الآيات التالية لما أقرأ، وإن ظللت حتى اليوم أصحح لمن يخطئ في القراءة تلقائيًّا، وأرد الإمام الذي يقرأ قراءة غير دقيقة.

**دوامة الأوراق:**

لا أعرف سببًا لهذه الظاهرة، لعلها أيام التجنيد التي بذلت فيها جهدًا غير عادي، خاصة في مكتب الأفراد، حيث كنت أعيش في دوامة الأوراق والكتابة الرسمية منذ الاستيقاظ حتى النوم في وقت متأخر من الليل.

ربما كانت كثرة قراءاتي، ومحاولة الذاكرة استيعاب أكبر قدر من المعلومات من وراء ذلك. ولعل قلة خروجي إلى الفسح والمتنزهات واللقاءات الاجتماعية لم تتح لي مجالا لتجديد الذاكرة وتغيير المناظر والصور اليومية التي أعايشها.

وربما كانت آلام القولون وارتباطها بالأحداث العامة المؤلمة سببًا مهمًّا من الأسباب التي تجعلني أنسى ما أريد تذكره.

لم أهتد إلى سبب محدد وراء ذلك، وكان أستاذي محمد رجب البيومي يحتفظ بذاكرة قوية للغاية، فقد كان في الستين، ويذكر نصوصًا من كتب ومقالات بالحرف الواحد، ويشير إلى موضوعات في مجلات الرسالة والثقافة والأزهر ونور الإسلام، وغيرها بالعدد والصفحة والتاريخ، ولكني صرت لا أملك شيئًا من هذا، وهو ما أحزنني كثيرًا، فصرت أسجل كل شيء، وأرجع إلى المصدر حتى لو كنت أحفظ النص، بعد أن أصبحت أتشكك في ذاكرتي، وأحمد الله على كل حال.

**حدثان مهمان:**

في تلك المرحلة كان هناك حدثان مهمان؛ الأول: إعلان السادات عن رغبته في إعادة التعددية السياسية من خلال المنابر، ثم الأحزاب، والآخر: هو اندلاع مظاهرات يناير 1977؛ بسبب رفع الأسعار، وكان للحدثين تأثيرهما في الواقع السياسي والاجتماعي المصري بل العربي والإقليمي.

بالنسبة للحدث الأول كان السادات يسعى - فيما أتصور - إلى بث نوع من التهدئة السياسية داخليًّا عقب حرب رمضان، وتأسيس نظام سياسي يتناسب مع رغبته في الانفتاح الاقتصادي، واستعادة المبادرة الفردية في المجال الإنتاجي، وقد جاءت هذه الاستعادة وتلك الرغبة بعد طول انغلاق وفساد مستتر، لتطرح نوعًا من الفوضى الاقتصادية إن صح التعبير، وهو ما سماه أحد كتاب النظام "أحمد بهاء الدين" بانفتاح السداح مداح، وهي تسمية أغضبت السادات فيما يقال، ولكن المؤكد أن الفاسدين من أعوان نظام 1952 أو أتباع عبد الناصر تحديدًا، وجدوا فرصة ملائمة؛ كي يخرجوا ما نهبوه وسلبوه على مدى أعوام الهزيمة التي حكم فيها الزعيم الملهم، وراحوا يسيطرون على المرافق الاقتصادية بصورة ما، ويحصلون على التوكيلات للشركات الأجنبية الكبرى، ويقيمون الشركات المتنوعة، وإن كان أغلبها يصب في المجال الاستهلاكي، وليس الإنتاجي، وصارت هناك مفارقات متعددة، وخلل كبير في البنيان الاجتماعي، وشاعت مقولة مؤلمة،

تعبر عن تفاوت الحظوظ بين من يخدمون الوطن، ومن ينهبونه، فقد قيل في المفارقة بين من بذلوا دماءهم وأعمارهم دفاعًا عن الوطن ومواجهة العدو، وبين من تسلوا وحصلوا على المال والمناصب والنفوذ: "هناك من عبر وهناك من هبر!".

**من عبر ومن هبر:**

والعبور يشير إلى حرب رمضان، والهبر يعني النهب والحصول على غير المستحق. وقد ركز الشيوعيون واليساريون كثيرًا على الانفتاح الاقتصادي، ووجهوا له كثيرًا من الاتهامات، وعدوه سببًا رئيسًا في أزمة البلاد، وإن كان العيب الحقيقي يكمن في إدارة البلاد وعدم مواجهة الفساد بالحسم اللازم.

ولعل السادات كان في طموحه إلى إنشاء نظام تعددي سياسي يريد أن يكون هناك نوع من التوازن الاجتماعي، يواجه الانفتاح الاقتصادي المنفلت، وفي الوقت نفسه يعفي السلطة من كثير من التزاماتها الاقتصادية تجاه المواطنين الفقراء، ويحرك الحافز الفردي للعمل والإنتاج.

**المنابر الثلاثة:**

لقد قرر الرئيس محمد أنور السادات إنشاء ما يسمى بالمنابر السياسية، بدلا من التنظيم الحكومي الواحد الذي تغيرت أسماؤه منذ انقلاب 1952 وحل الأحزاب التي كانت قائمة، فسمّي التنظيم بهيئة التحرير، ثم الاتحاد القومي، ثم الاتحاد الاشتراكي.

وفي يناير 1976 قام السادات بتعيين لجنة مستقبل العمل السياسي؛ لدراسة موضوع المنابر، ودورها في دعم الديمقراطية، وقد ضمّت اللجنة 168 عضوًا، عقدت 16 اجتماعًا فيما بين 2 فبراير و9 مارس 1976، واستقرت على ضرورة تطوير الاتحاد الاشتراكي العربي مع إعطائه الفاعلية، من خلال ثلاثة منابر؛ منبر اليسار، ويمثله خالد محي الدين، وهو ضابط من ضباط انقلاب يوليو 1952، وكان في الحزب الشيوعي المصري الذي أسسه اليهودي هنري كورييل.

منبر اليمين، ويمثله مصطفى كامل مراد، وهو أيضًا ضابط من ضباط انقلاب 1952 (الصف الثاني)، وكان يرتبط بصلة قرابة مع السادات، ولم تتجاوز نشاطاته مجلس الأمة (مجلس الشعب فيما بعد).

منبر الوسط وهو حزب السلطة، ويضم أغلبية عددية، كلهم من الموالين للنظام، وقد رأسه ممدوح سالم الذي عينه السادات رئيسًا للوزراء، بعد أن كان وزيرًا للداخلية.

**منابر وأحزاب:**

كان مفهومًا أن هذه المنابر تمهيد لإنشاء أحزاب سياسية بضوابط حكومية ومحاذير لا تقترب منها هذه الأحزاب. أي إنها أحزاب صورية أو ديكورية تسبغ على النظام لونًا من ألوان التسامح الشكلي، وتقدمه للعالم في صورة نظام ديمقراطي، وإن كانت غير حقيقية!

تحولت المنابر إلى أحزاب، مع أول اجتماع لمجلس الشعب في 11 نوفمبر 1976، عندما أعلن الرئيس السادات تحويل المنابر السياسية الثلاثة إلى أحزاب. فمنبر اليسار تحول إلى ما يعرف باسم حزب التجمع الوطني الديمقراطي الوحدوي، وكان بعض الكتاب يسخر منه، ويسميه حزب توتو اختصارًا لاسمه الطويل.

وتحول منبر اليمين إلى حزب الأحرار، ومنبر الوسط إلى حزب مصر، وهو تابع عمليًّا لرئيس الدولة. وقد حوله السادات فيما بعد إلى الحزب الوطني الديمقراطي برئاسته؛ تأسيًا بالحزب الوطني الذي قاده الزعيم مصطفى كامل. وقد انتقلت إلى هذا الحزب الأغلبية الساحقة من أعضاء حزب مصر، وأطلق عليهم الكاتب الصحفي مصطفى أمين صفة المهرولين؛ مما أوقعه في أزمة مع السادات، حيث أوقف نشر عموده اليومي بالأخبار، ولكنه صالحه فيما بعد، وعاد إلى كتابة العمود!

**أحزاب جديدة:**

إلى جوار هذه الأحزاب، نشط الوفديون القدامى أو بقاياهم بمعنى أدق، وأنشأوا حزب الوفد الجديد، برئاسة فؤاد سراج الدين، وكان وزيرًا للداخلية في العهد الملكي، كما كان مقربًا من مصطفى النحاس، وشهد حل حزب الوفد القديم على يد الانقلاب عام 1952.

وأراد السادات أن يزين الحياة السياسية بمزيد من الأحزاب، فساعد على إنشاء حزب العمل الاشتراكي بقيادة المهندس إبراهيم شكري، وهو سياسي من الذين تربوا على فكر مصر الفتاة، وزعيمها أحمد حسين، ووقع السادات على طلب إنشاء الحزب إلى جوار توقيعات المؤسسين، ليتجاوز تعقيدات لجنة شئون الأحزاب.

في 7 يوليو 1977 صدر قانون تنظيم الأحزاب السياسية رقم 40، الخاص بتنظيم نشأة الأحزاب السياسية، وفي عام 1980 تم تعديل المادة الخامسة من دستور 1971، التي كانت تنص على أن الاتحاد الاشتراكي هو التنظيم السياسي الوحيد في البلاد؛ لكي تتواكب مع التحول إلى التعددية السياسية، ليصبح النص: "يقوم النظام السياسي في جمهورية مصر العربية على أساس تعدد الأحزاب، وذلك في إطار المقومات والمبادئ الأساسية للمجتمع المصري، المنصوص عليها في الدستور، وينظم القانون الأحزاب السياسية".

### متاعب كثيرة:

بالطبع كانت حركة الأحزاب محدودة، وكانت محكومة بإرادة النظام، وباستثناء حزب السلطة، فقد شهدت الأحزاب الأخرى متاعب كثيرة، وخاصة من جانب العناصر التي دسها النظام لتخترق هذه الأحزاب، وتكشف أسرارها للجهات الأمنية، فكثرت الانشقاقات، والاستقالات، والصراعات، والتنازع على الرئاسة؛ مما كان يصل بها إلى لجنة شئون الأحزاب التي تجمد بعضها، أو يجعلها تلجأ إلى القضاء، الذي كان يستغرق وقتًا طويلا للفصل بين المتنازعين؛ مما جعل العديد من الأحزاب تنصرف إلى أمور شخصية، وتتناسى القضايا الكبرى للوطن، وتتحول إلى مجرد أماكن لقراءة الصحف واحتساء الشاي.

بيد أن أهم حسنة لنشوء الأحزاب، كانت قدرتها على إصدار الصحف اليومية والأسبوعية، والمجلات الدورية، دون تعقيدات كثيرة، وإن لم ينتظم معظمها في الصدور.

### صحف حزبية:

وقد صدرت فور تحويل المنابر إلى أحزاب جريدة "مصر" أول صحيفة حزبية تعبر عن حزب مصر الاشتراكي الذي هو حزب الحكومة، وكان يرأس تحريرها الصحفي سامي محمد،

وكان في الوقت نفسه نائبًا ليوسف السباعي رئيس مجلس إدارة مجلة الإذاعة والتلفزيون، وتولى الإشراف على إصدار مجلة الشعر في غياب رئيس التحرير الدكتور عبده بدوي بالكويت، وكانت جريدة مصر هادئة في موضوعاتها، وشاركتُ في تحريرها بكتابة عمود أسبوعي وبعض الموضوعات، التي كنت أوقع كثيرًا منها باسم مستعار.

كما صدرت أول جريدة معارضة (رسميًّا) عن حزب الأحرار الاشتراكيين، باسم الأحرار، وكانت جريدة خفيفة، تعتمد منهج صحف أخبار اليوم، وتتخذ الكاريكاتير وسيلة للسخرية من موظفي الحكومة ووزرائها، ولكنها لا تقترب من الرئيس، وكان يتردد في الأوساط الصحفية أن الصحفي مصطفى أمين يقف من وراء سياستها التحريرية، وأنه هو الذي اخترع شخصية مخلص الوسطاني الكاريكاتيرية التي تعبر عن شخصية انتهازية منافقة في حزب الوسط الذي يساند الحكومة.

وأصدر حزب التجمع أو توتو جريدة اسمها الأهالي؛ بعثًا لجريدة قديمة كانت تصدر في النصف الأول من القرن العشرين قبل انقلاب يوليو 1952، وكان يسيطر عليها الشيوعيون الذي يشكلون فصيلا من فصائل الحزب ويقودونه. كان هناك الناصريون والقوميون وبعض المنسوبين إلى الإسلام من الصوفيين، ومن يسمون أنفسهم باليسار الإسلامي!، يتجمعون تحت راية الشيوعيين، ويشاركون بمقالاتهم وآرائهم، ويركزون على المسائل الاقتصادية.

وقد أصدر الحزب - فيما بعد - مجلة شهرية باسم أدب ونقد، تنشر في معظم صفحاتها ما يكتبه الشيوعيون واليساريون، وتسمح بنشر صفحات قليلة لمن لا ينتمون إلى فكر معين.

### جريدة النور:

ومع بداية التضييق على الصحف الإسلامية الخاصة، أصدر حزب الأحرار الاشتراكيين جريدة إسلامية أسبوعية باسم "النور"، تناوب على رئاستها عدد غير قليل من رؤساء التحرير، ولكن المسئول الأول عنها كان رجلا طيبًا اسمه "الحمزة دعبس"، وكان يكتب في العدد الواحد أكثر من مقال ببنط كبير وحروف بارزة، وكانت الجريدة تتبنى

قضية تطبيق الشريعة، وقد كتبت فيها مقالات كثيرة، كان معظمها تعليقًا على بعض الأحداث من منظور إسلامي، أو ردًّا على بعض ما يوجه إلى الإسلام من انتقادات أو تشويه، وتعرضت الجريدة بعد وفاة "الحمزة دعبس" لعثرات عديدة؛ مما أدى إلى توقفها مرارًا، ثم توقفت بعد ثورة يناير تمامًا حيث لم تنجح محاولات إصدارها باستمرار.

**اللواء الإسلامي:**

وكان الحزب الوطني قد أصدر جريدة إسلامية أسبوعية باسم اللواء الإسلامي في حجم التابلويد، معتمدًا على نشر التفسير القرآني الذي كان الشيخ محمد متولي الشعراوي يقدمه في برنامجه التلفزيوني الشهير، إلى جانب مقالات إنشائية وأخبار متنوعة تخص حركة الدعوة الإسلامية. وقد استمرت اللواء الإسلامي في الصدور بحكم صدورها عن مؤسسة صحفية كبرى هي مؤسسة أخبار اليوم، وكون رؤساء تحريرها من أبناء المؤسسة، وكان أول رؤساء تحريرها الصحفي الراحل أحمد زين، الذي كان في أول الأمر مديرًا لتحرير الأخبار، ثم رئيسًا لتحريرها. وعمليًّا أصبحت الجريدة تابعة للمؤسسة تمامًا وواحدة من إصداراتها، وخاصة بعد أن انتهى الحزب الوطني، ودالت دولته بفعل ثورة يناير 2011.

**رفع الأسعار:**

والحدث الثاني الذي كان له تأثيره الكبير على الدولة سياسيًّا واجتماعيًّا وإقليميًّا، كان مظاهرات 17 و 18 يناير 1977. وجرت المظاهرات نتيجة رفع أسعار بعض السلع الأساسية.

كانت هناك اجتماعات ثلاثة في مجلس الوزراء برئاسة ممدوح سالم، تم فيها الاتفاق على رفع أسعار الخبز والأرز والبنزين وسلع أخرى، وقد حذرت أجهزة الأمن القومي ومباحث أمن الدولة في اجتماع يوم 13 يناير 1977، من أن «أي إجراء تتخذه السلطة تخاطب فيه بطون الشعب، فإن هذا الإجراء سيؤدي إلى ثورة شعبية عارمة».

ويروى عن الدكتور «عبد المنعم القيسوني» نائب رئيس الوزراء للشئون الاقتصادية، أن ممدوح سالم - رئيس الوزراء وقتها - لم يعلق بكلمة على القرارات في الاجتماعات الثلاثة التي تم عقدها في مجلس الوزراء بحضوره، وقد وافق عليها المجلس، ثم وافق

عليها البرلمان (مجلس الشعب) لاحقًا. وعمد ممدوح سالم إلى إبلاغ قيادات حزب مصر بالقرارات يوم 16 يناير في اجتماع ليلي، وهؤلاء بدورهم سربوا الخبر إلى سائقي التاكسي، بأن البنزين سيرتفع؛ مما جعلهم يهددون بثورة لولا أن وزير الداخلية سيد فهمي عالج الأمر برفع البنديرة لهم مسبقًا.

**انتفاضة الخبز:**

ولعبت أجهزة الإعلام دورًا في إشعال الأحداث؛ حيث أعلنت الصحافة خبر رفع الأسعار بالطريقة ذاتها التي أعلنت بها موت «عبدالناصر»، فزادت الأمر اشتعالا، وقد جرت الأحداث التي سميت بانتفاضة الخبز في عدة مدن مصرية يومي 17، 18 يناير 1977 احتجاجًا على رفع الأسعار.

وكانت قطاعات عمالية كثيرة قد قامت قبل عام 77 بإضرابات وانتفاضات في 75 و 76. كان الشعب يحلم بالرخاء الاقتصادي الذي وعد به الرئيس السادات بعد حرب 73، وتحوله من الاشتراكية إلى الرأسمالية وتقربه من الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنه في يوم 17 يناير 1977 أعلن نائب رئيس الوزراء للشئون المالية والاقتصادية الدكتور عبد المنعم القيسوني، في بيان له أمام مجلس الشعب مجموعة من القرارات الاقتصادية، منها رفع الدعم عن مجموعة من السلع الأساسية، وبذلك رفع أسعار الخبز والسكر والشاي والأرز والزيت والبنزين و25 سلعة أخرى من السلع المهمة في حياة المواطن البسيط. وبدأت الانتفاضة بعدد من التجمعات العمالية الكبيرة بمنطقة حلوان جنوب القاهرة في شركة مصر حلوان للغزل والنسيج والمصانع الحربية، ومصانع الغزل والنسيج في شبرا الخيمة شمال القاهرة، وعمال شركة الترسانة البحرية في منطقة المكس بالإسكندرية، وبدأ العمال يتجمعون ويعلنون رفضهم للقرارات الاقتصادية، وخرجوا إلى الشوارع في مظاهرات حاشدة، تهتف ضد الجوع والفقر، وبسقوط الحكومة والنظام رافعة شعارات منها:

«يا ساكنين القصور الفقرا عايشين في قبور

يا حاكمنا في عابدين فين الحق وفين الدين

سيد مرعى يا سيد بيه كيلو اللحمة بقى بجنيه

عبد الناصر ياما قال خللوا بالكم م العمال

هو بيلبس آخر موضة واحنا بنسكن عشرة ف أوضة

بالطول بالعرض حنجيب ممدوح الأرض

لا إله إلا الله السادات عدو الله».

**الطلاب والعمال:**

وفي الوقت نفسه انطلقت المظاهرات في الجامعات، وانضم الطلاب إلى العمال، ومعهم فئات كثيرة من الشعب المصري، ونزلوا إلى الشوارع والميادين في القاهرة والمحافظات يهتفون ضد النظام والقرارات الاقتصادية، وحدثت مظاهر عنف، منها حرق أقسام الشرطة والمباني العامة (احترقت أقسام الأزبكية والسيدة زينب والدرب الأحمر وإمبابة والساحل ومديرية أمن القاهرة)، واستراحات الرئاسة، ووصل الهجوم إلى بيت المحافظ بالمنصورة، وتم نهب أثاثه وحرقه.

واستغل الشيوعيون واليسار الأحداث، فنفخوا فيها لينتقموا من السادات، الذي حاول أن يعترض نفوذهم وسطوتهم وقوتهم، ونزلوا إلى الشارع رافعين شعارات الحركة الطلابية، وقاموا بالمشاركة في التخريب والحرق والنهب، وأدانهم القضاء فيما بعد، ولكنهم أصبحوا في صدارة المشهد السياسي والثقافي عندما جاء مبارك والانقلاب الثاني!

**إلغاء القرارات:**

استمرت المظاهرات حتى وقت متأخر من الليل مع عنف شديد من قوات الأمن، وتم القبض على مئات المتظاهرين، وبقيت المظاهرات صاخبة حتى منتصف يوم 19 يناير، فأعلنت الحكومة من خلال نشرة أخبار الثانية والنصف عن إلغاء القرارات الاقتصادية، ونزل الجيش المصري ليحسم الأمر، وأعلنت حالة الطوارئ مع حظر التجول من السادسة مساء حتى السادسة صباحًا. وتم القبض على عدد كبير من الشيوعيين واليساريين الذين أشعلوا المظاهرات وأسهموا في التخريب.

**مدرسة المشاغبين:**

لجأت السلطة إلى حيلة معروفة، وهي إشغال الناس عما يجري، وذلك ببث مسرحية مدرسة المشاغبين تلفزيونيًّا، وكان بطلها عادل إمام وسعيد صالح وأحمد زكي وسهير البابلي وآخرين، وهي مستوحاة من فيلم أجنبي ومصّرها الكاتب الشيوعي – التطبيعي فيما بعد – علي سالم، وتقوم على المفارقات الضاحكة من خلال الاستهزاء بالمدرس والناظر والتعليم، وتمجيد الشغب، وإهمال الدراسة وتزيين الفوضى.

وقد لقيت المسرحية رواجًا كبيرًا، وخاصة بين الطلبة والشباب، وكان عرض المسرحية في أول الأمر يكاد يفرغ الشوارع من المارّة، ويجعل الناس تلزم البيوت، وقد نجحت الحيلة في إفراغ الشوارع وجلوس الناس في البيوت، وتنفيذ حظر التجول.

**انتفاضة الحرامية:**

وصف الرئيس السادات المظاهرات بـ "انتفاضة الحرامية"؛ لما جرى فيها من سلب ونهب، فضلا عن التخريب والحرق، وقد حمل على الشيوعيين واليساريين لدورهم البارز في قيادة المتظاهرين، والإسهام القوي في عمليات الحرق والتخريب.

ولا شك أن الحكومة فشلت فشلا ذريعًا في معالجة قضية رفع الأسعار، وأخفقت في مخاطبة الرأي العام قبل إعلان القرارات، وكان من المفترض طرح القضية على الناس وتقديم البدائل الممكنة وشرح الأوضاع المختلفة التي تمر بها البلاد، وخاصة تقاعس الدول العربية عن نجدة مصر ودعمها اقتصاديًّا، مع تهيئتهم لرفع الأسعار تدريجيًّا، ولكن عدم تناغم أعضاء الحكومة فيما يبدو، وابتعاد السادات في حينه عن القاهرة (كان في أسوان وقت مناقشة القرارات وإعلانها) وضع البلاد كلها على حافة الانهيار.

**ازدهرت المفاسد:**

بعد حرب رمضان ارتفع سعر برميل البترول خمسة عشر ضعفًا، وغرقت الدول العربية البترولية في بحار من الذهب أو الدولارات، فانتعش استهلاكها، وازدهرت فيها المفاسد والإسراف، وكانت تبرعاتها لمؤسسات غربية بمبالغ كبيرة يمثل مفارقة عجيبة للغاية، لدرجة أن بعض حدائق الحيوان في بعض العواصم الأوربية حظيت بمبالغ كبيرة تبرعًا سفيهًا من بعض المسئولين في بلاد البترول.

للأسف لم يلتفت القوم إلى مصر التي ضحت بالدم ليتضاعف سعر البترول، ولم يأبهوا لحاجتها الماسة بعد الحرب إلى الدعم الاقتصادي وتعويض السلاح، ومواجهة الديون التي تراكمت فوائدها الباهظة. كان هناك اقتصادي بريطاني كبير يقول للدكتور القيسوني، ما ملخصه: إن بلادكم خاضت أربعة حروب 48، 56، 67،73، ومع ذلك لم تتعرض لمجاعة. إن شعبكم صبور ويتحمل قسوة الحياة. وكان الرجل يبدي تعجبه من أحوال هذا الشعب العريق.

ومع ذلك فإن بعض العرب البتروليين أخذوا في معايرة الشعب المصري؛ لأنه يأكل الفول والطعمية، وضيقوا على مصر الدولة، وحالوا دون إقراضها قرضًا حسنًا أو غير حسن. كانت فوائضهم تملأ بنوك اليهود والغرب، ولكن فتاتها لا يعرف طريقه إلى خزانة مصر الخاوية المدينة. ولم يبال أحد بما تسعى إليه مصر، للحد من عجز الموازنة وعدم الاستجابة لمطالب "البنك الدولي" المذلة!

**مأزق قاتل:**

في المقابل كان اليهود والغرب يدعمون الكيان الصهيوني الغاصب بالسيولة التي توفرها هذه الفوائض البترولية العربية، فيدفعون له المعونات العينية والعسكرية والمنح والقروض الميسرة، ويزداد قوة، ويستعيد زمام المبادرة التي فقدها في حرب رمضان!

هكذا وجد السادات نفسه بعد المظاهرات في مأزق قاتل .. إنه يبحث عن توفير لقمة العيش اليومية لشعب يتزايد عدده باستمرار، وموارد يستنزفها تسديد القروض وفوائدها، والعرب يصمون آذانهم عن سماع صوت الاستغاثة.

**نوع من الإذلال:**

ركب السادات طائرته وطاف بالعواصم النفطية، ولكنه لم يجد استجابة تذكر، بل وجد نوعًا من الإذلال حين قيل له في بعض العواصم إننا نريد الإشراف على ما تأخذونه. وحين سلطوا عليه بعض الصحفيين المرتزقة ليقول له: إن حقيبتك امتلأت بشيكات المعونة – يقصد أن العواصم التي زارها منحته مساعدات كبيرة – فما كان من السادات إلا أن فتح الحقيبة وقلبها في الهواء، وقال للصحفي المرتزق في انفعال: إني لا أتسول، ولم أحصل على مليم واحد من أحد!

كان اليأس واضحًا بعد جولة السادات، وصار يعيش وضعًا يشبه الحصار. ولم يعد هناك مسئول يشبه الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد قتله المجرم اليهودي هنري كسنجر حين أفهمه الملك أنه يريد الصلاة في القدس قبل أن يموت، فدبر لقتله عام 1975؛ لأنه كان يعلم أن الرجل يعني ما يقول. ولو ظل حيًّا لما ألجأ السادات إلى الدوران على العواصم النفطية ليسألها المساعدة. ولما استطاع بعضهم أن يزعم أن التاريخ يبدأ من عنده لأنه صار غنيًّا!

### الشتاء البارد:

الملك فيصل وقف برجولة مع السادات في حرب رمضان. أوقف تصدير النفط إلى دول الغرب، وتبعته العواصم النفطية العربية باستثناء القذافي حاكم ليبيا الأوحد. بدأت عواصم الغرب تدرك أن الشتاء القادم سيكون باردًا جدًّا ما لم يتدفق النفط ثانية إلى العواصم الاستعمارية، فجاء هنري كسنجر اليهودي المتعصب ضد العرب والمسلمين ليمارس مواهبه في خداع السادات والحكام العرب، ويستعيد تدفق النفط إلى بلاده وعواصم الغرب الاستعماري مرة أخرى، ويدشن دخول السادات إلى النادي الأمريكي!

### التفكير في الاستسلام:

يبدو أن الحصار فرض على السادات التفكير في الاستسلام للعدو اليهودي النازي؛ ليخرج من المأزق الاقتصادي القاتل كما توهم، وتدل الأحداث التي سبقت زيارته إلى القدس على أن هذا المأزق كان من وراء مشاوراته مع شاوشيسكو حاكم رومانيا، الذي أقنعه أن الإرهابي مناحيم بيجن يمكن الاعتماد عليه، والوصول معه إلى اتفاق صلح بين مصر واليهود الغزاة، وتبع هذه المشاورات لقاءات سرية بين حسن التهامي - ممثلا للسادات - مع موشي ديان وزير الدفاع اليهودي في المغرب؛ تمهيدًا لزيارة السادات إلى القدس!

### تحولات كبيرة:

كان المجتمع المصري في هذه الفترة يمور بتحولات كبيرة، وكانت الحركة الإسلامية تمتد في شتى الاتجاهات، وخاصة في الجامعة والمدن والقرى والصعيد، وبدأ التدين يأخذ شكلا عمليًّا، ويعبر عن نفسه من خلال وسائل عديدة. وكانت فكرة تطبيق الشريعة

تتبلور بصورة ما في كتابات متنوعة، وتنتقل من الشكل إلى المضمون، وبدت هناك محاولة وضع دستور إسلامي ونظام اقتصادي إسلامي، وقوانين لا تتصادم مع الإسلام، ولكن العلمانيين بقيادة اليسار والناصريين كانوا غير راضين عن هذا التوجه، وحملوا على السلطة؛ بوصفها مشجعًا للحركة الإسلامية لضرب اليسار وحلفائه، وكأن الحركة الإسلامية نبت هجين، وكأن الشعب المصري لا يعرف الإسلام من قبل!

### كتلة متماسكة:

كان الشيوعيون والناصريون يشعرون أن قيادة المجتمع حق لهم وحدهم، ويجب ألا يشاركهم في هذا الحق المزعوم أحد. كان انتظامهم في التنظيمات السرية التي صنعها النظام الناصري تجعلهم كتلة متماسكة، لا تسمح لأحد من خارجها بالمشاركة، وحين خفف النظام قبضته على الإسلام عبر الشعب عن فطرته الميالة إلى التدين، وأخذ المتدينون يشاركون في قضايا المجتمع، ويسهمون في حل المشكلات بقدر الطاقة، في المجال الطلابي والصحي والاجتماعي والإنساني بصفة عامة، وبدأت تنمو تنظيمات إسلامية متنوعة إلى جانب الإخوان المسلمين والجماعات السلفية، فكان هناك تنظيمات الجماعة الإسلامية والجهاد والتبليغ وجماعة المسلمين وغيرها، إلى جانب الجمعيات التي تشكلت منذ عقود، مثل الجمعية الشرعية وأنصار السنة المحمدية.

### نقيق الضفادع:

روج الشيوعيون والناصريون لفرية أن الحركة الإسلامية من صناعة السادات لمواجهة الشيوعيين وحلفائهم، وتناسوا أن مواجهة السلطة لهم أيسر من ذلك بكثير، وأنها قادرة على تجميعهم في أوتوبيس واحد كما كان يسخر مصطفى أمين من قلة أعدادهم، ولكن قدرتهم على الصياح عالية وكبيرة بلا شك. إن نقيق الضفدعة لا يجعل حجمها مثل الفيل، ولكن صوتها مزعج في كل الأحوال، وما كانت لهم هذه القدرة على الصياح إلا لأن جمال عبد الناصر مكنهم من الإعلام والثقافة، وصنع لهم التنظيمات السرية، وخاصة التنظيم الطليعي الذي يجعلهم أقدر على الحركة والتواصل.

للأسف أخذت بعض الجماعات الإسلامية تتصور أن تغيير المجتمع لا يتحقق بالتربية والقدوة والسلوك النموذجي، وتصورت أن التغيير لا تصنعه غير القوة، وهو ما دفعني إلى

انتقاد هذا التوجه في "الاعتصام"، والتحذير من الغرق في العنف؛ لأن عائده كارثي في كل الأحوال، وخاصة أن المتربصين بالإسلام والمسلمين لا يكلون ولا يفترون في حربهم الضروس ضد كل ما يشير إلى الإسلام، ولو كان مجرد مظاهر شكلية.

**التدين الشكلي:**

ثم كان انتشار ما يعرف بالتدين الشكلي، الذي يعتمد على المظهر دون المخبر، والشكل دون الجوهر؛ بسبب نقص التربية الإسلامية أو البناء الإسلامي - علامة من علامات الخلل في الحركة الإسلامية، عالجته في بعض المناسبات. واستغل العلمانيون هذا التدين الشكلي لتوجيه سهامهم المسمومة إلى الإسلام قبل الحركة الإسلامية.

وحين رأيت أن هناك من يطلب رأس الإسلام، وليس انتقاد بعض عيوب الحركة الإسلامية، توقفت عن الكتابة في هذا الأمر، وقد ثبت صحة ذلك عندما استغل العلمانيون في عهد مبارك حوادث عنف السلطة والعنف المضاد، في تشويه الإسلام كله، ووصمه بالإرهاب والدموية! وهو ما استمر حتى كتابة هذه السطور، ويظهر الآن بصورة أبشع وأشنع.

**اليسار الإسلامي:**

وقد ظهرت في تلك الفترة بعض الكتابات التي ينتمي أصحابها في الواقع إلى فكر مغاير للفكر الإسلامي، وبعضهم أطلق على نفسه اليسار الإسلامي ليرددوا مقولات المستشرقين، ويفسروا الإسلام تفسيرًا ماديًّا بعيدًا عن العقل والمنطق، وهناك من تناول القضايا الإسلامية من منظور ماركسي صرف، ومنح نفسه لقب مفكر إسلامي!

كانت هناك ظاهرة مهمة في السبعينيات، وهي مراجعة بعض الناشطين الماركسيين والعلمانيين لأفكارهم، وانحيازهم بعد هذه المراجعات للإسلام انحيازًا كاملا، وصاروا أعلامًا في الكتابة الإسلامية. ولكن الماديين يفسرون هذا التحول بالانتهازية، وأنه جاء وفقًا لاتجاه الريح، وتناسوا أن الانتماء إلى الإسلام يكلف صاحبه كثيرًا، ويضعه باستمرار في خانة الدفع وليس القبض، والملاحقة وليس الترحيب، ثم إن الحكومات المصرية منذ الانقلاب الأول عام 1952 حتى اليوم، لا ترحب بالإسلام ولا تتعاطف معه، بل تسعى إلى استئصاله، أو تحويله إلى حالة سكونية، لا تتجاوز جدران المسجد المحكوم

بأجهزتها الأمنية، باستثناء الفترة القصيرة التي حكم فيها الرئيس محمد مرسي – فك الله أسره - واستغرقت نحو عام واحد تقريبًا.

**احتقان كبير:**

لقد كان قمع جمال عبد الناصر للإسلام، وفتح المجال أمام الشيوعيين والماديين بداية احتقان كبير في المجتمع المصري، انتهى بهزيمة 1967 المصمية، وعندما جاء السادات وبدأت قبضة القمع تخف قليلا .. انطلقت روح الإسلام تملأ الآفاق، وخاصة في حصون الثقافة والصحافة التي كانت تحتضن الفكر العلماني المتشدد والمعادي بضراوة لجوهر الإسلام ومعطياته الإنسانية. كانت الصلوات الخمس تقام في صالات الصحف وردهاتها، يسبقها رفع الأذان من العمال أو المحررين، وأخذ الحجاب يعرف طريقه إلى المحرّرات والموظفات، وبعد أن كانت الكافتيريات في نهار رمضان تكتظ بالمفطرين الذين يرون الصوم موضة قديمة، صارت موائد الإفطار تقام عند أذان المغرب في قلب المؤسسات التي لم تعترف من قبل بشهر رمضان. لقد امتدت الموائد الرمضانية للإفطار إلى الشوارع والميادين، ولم تقتصر على القاهرة، بل تجاوزتها إلى المدن الأخرى، وأصبح التقرب إلى الله - بإتاحة الإفطار للفقراء والمساكين وعابري السبيل - عادة رمضانية.

**عودة الشعب إلى دينه:**

ورأى الماديون أن الشعب المصري يعود إلى دينه الذي صادره الانقلابيون الأوائل وحاربوه، وذرًّا للرماد في العيون كانوا يحضرون المناسبات الدينية، وأنشأوا إذاعة القرآن الكريم والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، فتاجروا بصلاتهم الموسمية، وباعوا للناس الوهم وأقنعوهم أنهم يدافعون عن الإسلام بإذاعة القرآن، واستخدموا المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - الذي كان يقوده أحد ضباط الانقلاب من الصف الثالث - ستارًا لدفع مبالغ طائلة من أجل تجنيد الهتيفة والعملاء في دول إفريقيا التي يزورها الزعيم القائد!

الظاهرة التي سميت بالصحوة الإسلامية أو اليقظة الإسلامية أزعجت السادات في سنوات حكمه الأخيرة، وجعلته ينقلب على الإسلاميين، حين صورت له الأجهزة الأمنية المعادية للإسلام بطبيعتها أن نظامه معرض للخطر إذا استمر المدّ الإسلامي، وجاءت

كامب ديفيد وتدخلت المخابرات اليهودية (الموساد) والمخابرات الأمريكية بخطط تجفيف المنابع - كما أطلقوا عليها - وكان التضييق والعنف ضد الحركة الإسلامية، ثم الاعتقال، ثم الاغتيال الذي طاله هو شخصيًّا!

**لأول مرة:**

في منتصف سنة **1977**، أديت امتحان الليسانس، ولأول مرة أواجه امتحانًا شفهيًّا مع أحد الأساتذة، وكان أن جلست أمام الدكتور عبد الصبور شاهين الذي قال لي:

- أتحفظ شعرًا حديثًا ؟

قلت له:

- نعم .. أحفظ.

قال:

- اقرأ ..

قرأت قصيدة سفر أيوب للسياب. كان يقرأ معي ويسبقني ببعض الأبيات، وكان سعيدًا بالاستماع للقصيدة وكأنه يغنيها، وسألني عن المواقع الإعرابية لبعض الكلمات والجمل، وودعني مسرورًا.

كنت أظنه - وقد تخصص في علم اللغة، وظهر في بعض برامج التلفزيون يتناول الشريعة الإسلامية وقضاياها - لا يهتم بالشعر، وخاصة الشعر الحديث، ولكني اكتشفت أنه قارئ ممتاز، وأنه متابع جيد لما ينشر، وصرت فيما بعد صديقًا له.

**تجربة قاسية:**

وسمعت منه حديثًا عن تجربة قاسية تعرض لها على يد العلامة الراحل محمود محمد شاكر المحقق والشاعر المعروف، فقد ترجم عبد الصبور - وهو معيد بالكلية كتاب "الظاهرة القرآنية" للمفكر الجزائري مالك بن نبي - وذهب يعرض الترجمة على شاكر الذي كان يجيد الفرنسية.

قال لي عبد الصبور: جلست مع شاكر من التاسعة صباحًا إلى ما بعد العشاء ونحن نراجع الترجمة جملة جملة وفقرة فقرة، وخرجت من عنده لا أرى الطريق، والدموع تتساكب من عيني طوال المسافة التي قطعتها ماشيًا من العباسية إلى البساتين.

قلت له بسذاجة: هل قاطعت الرجل؟

ضحك وقال لي:

كيف أقاطعه، وقد علمني درسًا لا أنساه وهو الإتقان والتجويد؟ لقد رجعت إلى البيت، وبدأت في مراجعة أخرى متقنة وصياغة أخرى مجودة، وبعد أن أتممتها طرت بالترجمة إليه، فرأيته يبتسم لأول مرة، ويطلب أن أتركها له على أن أمر عليه بعد حين. وذهبت فوجدته قد كتب مقدمة طويلة تقرب من خمسين صفحة .. إنه لم يكتب مقدمة لأحد قبلي أو بعدي، ومقدمته وسام على صدري أعتز به، وأتذكر الدرس الذي سبقها، وهو ما جعلني آخذ نفسي بالشدة في كل عمل أبدأ فيه.

**مركز إسلامي:**

كان عبد الصبور مجاهدًا في سبيل اللغة والأدب والفكرة الإسلامية، ودفع الثمن في شبابه اعتقالا وحصارًا ثقافيًّا، ثم تألب عليه الشيوعيون وأشباههم حين تصدى لواحد منهم في أثناء ترقيته إلى درجة أستاذ، حيث كشف عن قصوره الفكري والعلمي. لم يأبه لبذاءاتهم وتحريضاتهم، وظل شامخًا وهو يكتب ويؤلف ويخطب ويفحص الأعمال العلمية، حتى اختاره الله إلى جواره، بعد أن بنى مركزًا إسلاميًّا، يضم مسجدًا ومكتبة في آخر شارع الهرم، حدثني عنه قبل رحيله رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

***

## 10 - عام حافل

### نقلة كبيرة:

كان هذا العام **1977** حافلا بالأحداث على المستويين الشخصي والعام. حصلت على الليسانس من دار العلوم في العلوم الإسلامية واللغة العربية بتقدير "جيد مرتفع" كالعادة، وجاءت أواخر العام لتشهد إعلان السادات عن زيارة القدس المحتلة من أجل الصلح مع العدو النازي اليهودي.

لا أنكر أن حصولي على الليسانس كان نقلة نفسية كبيرة، حققت لي كثيرًا من التعويض عن الإحباط الذي أحسسته يوم رجعت من القاهرة تاركًا الدراسة في المعهد الثانوي النموذجي، ودخلت دار المعلمين لتوفير الوظيفة المضمونة، أو لقمة العيش التي يبحث عنها الناس جميعًا. كنت أشعر أنني طوال عمري لم أجعل المادة أو المال أو الجاه أو السلطة هدفًا لي. كنت أبحث عن التفوق العلمي والقراءة والكتابة والتأليف. تمنيت أن أكون مثل الكتاب الكبار والأدباء العظماء، وإن كان مفهوم الكبر والعظمة مفهومًا هلاميًّا غامضًا، ولكنه - في كل الأحوال - لا يعني أن أكون في خانة الاستعلاء والكبر والغرور، فشعوري الدائم - وكما تعلمته من التربية الإسلامية - أن أكون متواضعًا قريبًا من الناس، وخاصة من أهل القرية، الذين ما زلت أعيش بينهم وأتعامل معهم ببساطة شديدة، وأشاركهم مناسباتهم المختلفة. لم أكن في يوم من الأيام محبًّا لأولئك المغرورين المتغطرسين، الذين أقابلهم في المجالات الثقافية أو العلمية أو السياسية. أحب المتواضع وأكره الوضيع، وكم وضيع يعتلي كرسيًّا مهمًّا، ولكن وضاعته تجعله يبدو بائسًا ذليلا، ويكاد داخله البائس الذليل ينضح على وجهه.

### التواضع الكريم:

في الجامعة رأيت كثيرًا من الأساتذة العلماء العظماء يحكمهم التواضع الكريم والأدب الرفيع والخلق المهذب، وللأسف كنت - أرى إلى جانبهم - شبابًا من المعيدين أو المدرسين يشمخون بغطرسة، ويحاولون أن يكونوا فوق الآخرين، مع أنهم يشبهون "الرجال الجوف"

الذين تحدث عنهم ت.س. إليوت في مطولته "الأرض اليباب" كأنهم محشوون بالقش والهباء! وأظن هؤلاء لا يمثلون قيمة علمية، وهم بصفة عامة لم يحققوا إنجازًا علميًّا، ولم يقفوا موقفًا عامًّا يذكر لهم في حياتهم، اللّٰهُمَّ إلّا في فنون الوصولية والمكايدات، والبحث عن الغنائم بوسائل رخيصة!

**التمهيد لأمرين:**

كان الحصول على الليسانس يمهد لأمرين؛ الأول الانتقال من التعليم الابتدائي إلى التعليم الإعدادي والثانوي والفني، والآخر – وهو الأهم – الدخول إلى مجال الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه).

اقتضى نقلي من المرحلة الابتدائية وتثبيتي على المؤهل العالي، أن أذهب إلى الوزارة في القاهرة ومديرية التعليم في كفر الشيخ؛ لتقديم أوراق وشهادات وصدور قرارات ونشرات، وإعادة تعيين وأشياء أخرى لا أذكرها، ولكنها في النهاية نقلتني إلى مدرس لغة عربية بمدرسة الشهيد الصيحي الإعدادية، وتسلمت العمل مع بداية الدراسة. في الوقت نفسه قدمت طلبًا إلى الكلية لألتحق بالدراسات العليا، وأبدأ الدراسة في السنة التمهيدية للماجستير.

**اختيار القسم:**

كانت مشكلة اختيار القسم الذي سأواصل فيه الدراسات العليا محيرة، فالتقديرات العالية تتيح لي الدراسة في أقسام: الشريعة الإسلامية، والتاريخ الإسلامي، وعلم اللغة، والبلاغة والأدب المقارن والنقد الأدبي. كنت ميالا للقسم الأخير مع صعوبته ووجود بعض الأساتذة الذين لا يتعاطفون مع توجهي الإسلامي، وهو ما يمثل مشكلة على المدى البعيد.

في لقاء مع أحد الزملاء الذين سبقوني في الدراسات العليا بأحد الأقسام الأخرى، حذرني أنني قد ألاقي عنتًا في القسم الذي أريده، ونصحني أن أدخل قسمًا من الأقسام التي تيسّر لطلابها العمل والدراسة.

وقد شكرته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على نصيحته، ثم قلت له: إذا كان أصحاب التوجه الإسلامي يهربون من الأقسام الصعبة، ويذهبون إلى الأقسام السهلة، فكيف نبكي بعدئذ ممن لهم توجه غير إسلامي؟! لماذا لا نبذل جهدًا أكبر ونقتحم كل المجالات، ونقاوم عوامل الإبعاد عن تخصصات بعينها؟

أخبرت زميلي أنني توكلت على الله واخترت القسم الصعب، وسأكافح بقدر طاقتي والله المستعان، فبدا آسفًا على موقفي الذي لم يأت منسجمًا مع رغبته.

### لفتة جميلة:

في المدرسة تسلمت جدولا دراسيًّا، مع تكليفي بالنشاط الثقافي في الإذاعة والصحافة، وكنت سعيدًا بحركتي مع الطلاب داخل الفصل وخارجه، وشجعت كثيرًا منهم على الخطابة، وقراءة نشرة الأخبار من الصحف، والحوار مع الأساتذة، و غير ذلك من نشاطات في الندوات واللقاءات الطلابية.

وكان من الطرائف أنني بعد قرابة خمسة وثلاثين عامًا أفاجأ بأحد طلابي الذين درّست لهم وشجعتهم في هذه المدرسة يتصل بي لأشارك معه في أحد البرامج التلفزيونية، وأقضي معه على الهواء مباشرة نحو ساعتين، نتحدث في قضايا عامة تهم الوطن وحريته وكرامته، ووضع على الشاشة صورة له وهو طالب صغير في المدرسة، يلقي خطبة في إحدى المناسبات التربوية بالمدرسة، وأنا في شبابي أقف بجواره أساعده وأشجعه.

نور الدين عبد الحافظ

### كان أبوه فاضلا:

كان هذا اللقاء لفتة جميلة، أشعرتني بالفخر والتقدير. حين تتجاهلك مؤسسات الدولة، وتغمض عينيها عنك، وتلتفت إلى من هم أقل منك؛ لأنهم يصفقون لها ويهتفون باسمها ويتملقونها، وفي الوقت نفسه تتنكر لجهودك ونشاطك وتاريخك، يكون هذا الحب الخالص من هذا

الطالب النبيل، الذي صار رجلا كبيرًا وإعلاميًّا ناضجًا، يساوي كنوز الأرض جميعًا بل يفوقها.

كان اسم هذا الطالب نور الدين عبد الحافظ. وكان أبوه رجلا فاضلا يعمل قاضيًا في محكمة دسوق، وربى ابنه تربية حسنة، جعلته ينحاز إلى أمته وقضاياها. وللأسف سمعت أن نور الدين لا يعرف مصيره أحد عقب مجزرة رابعة العدوية البشعة، التي صنعها الانقلاب العسكري الدموي في الرابع عشر من أغسطس 2013، وأسأل الله أن يكون بخير.

**نوم قلق:**

ظهرت مشكلة في التوفيق بين واجب الحضور في الدراسات العليا بصورة شبه يومية، وبين العمل اليومي في المدرسة، الذي يستنزف جهدًا كبيرًا. المسافة بين المدينة التي أعمل بها والعاصمة التي تضم الكلية بين أحضانها، حوالي مائة وثمانين كيلو مترًا، وتستغرق المسافة نحو ثلاث ساعات بالسيارة. حاولت أن يكون هناك يومان في القاهرة والباقي في المدرسة. طلبت من منسق الجدول المدرسي أن يكون هناك يوم خال من الحصص، أو فيه حصة واحدة يسبقه يوم فيه ثلاث حصص متتابعة في الصباح تنتهي في الفسحة الأولي، أخرج بعدها لأستقل السيارة إلى القاهرة، فأصل في نحو الرابعة بداية المحاضرة الأولى، وأتابع بقية المحاضرات حتى المساء، وأبيت في العاصمة لأتابع محاضرات اليوم التالي، وتبدأ في وقت الظهر، وبعضها الآخر في وقت متأخر، ثم أنصرف لأصل إلى باب الحديد، وأركب قطار الحادية عشرة ليلا، وكان يسمى القشاش، وعرفته منذ أيام التجنيد، وكنت أنام على رف من رفوفه الخالية نومًا قلقًا. أغمض عيني لأحظى بنوع من الراحة، وأنبه من يجلس على المقعد أن يوقظني إذا اقتربت محطة دمنهور.

القطار يصل دمنهور عادة فيما بين الخامسة والسادسة صباحًا، وبعدها أركب قطار دسوق الذي يصل في نحو الثامنة إلا دقائق، فأهرول إلى المدرسة لألحق بالحصة الأولى.

### السلوك الإنجليزي:

كانت محاضرات الدراسات العليا في المساء غالبًا، وكان أحد الأساتذة يصر على الحضور وتطبيق النسبة، فكان يسجل الغياب أولا بأول، وهو ما أدى إلى حرمان زميل من امتحان آخر العام، الزميل كان معيدًا بالكلية وكان يؤدي الخدمة العسكرية في وقت السنة التمهيدية، ولم يشفع له أنه لا يملك من أمره شيئًا في الجيش، ولكن الأستاذ كان متمسكًا بصرامة السلوك الإنجليزي القاطع الذي لا يعرف "معلهش"، أو يراعي الظروف والأعذار، ومع ذلك فقد صار الزميل والأستاذ صديقين حميمين فيما بعد، وأشرف الأستاذ على رسالة الزميل للدكتوراه.

لم يكن عدد طلاب التمهيدي في قسمنا كبيرًا، كنا سبعة، ويتراوح عدد الحاضرين في المحاضرة بين ثلاثة وخمسة، معظمهم كان يعمل وغير متفرغ للدراسة، وبعضهم كان مشغولا بالناحية المادية، ولا يعنيه كثيرًا أن يواصل دراساته العليا، فالواقع الجديد للحياة الاجتماعية كان يضع المسألة المادية في الصدارة، وسبق أن أشرت إلى الانقلاب الاجتماعي الذي صنعته سياسة الانفتاح الاقتصادي، وجعلت "القرش" له الأولوية المطلقة.

### جنيه كامل:

أحد الزملاء كان يعمل مدرسًا في مدرسة خاصة فيما أظن، ولكنه كان يدرس دروسًا خصوصية في البيوت، وكان أجره بالساعة، ويحصل يومها على جنيه كامل في الحصة الواحدة. الجنيه حينئذ كانت قيمته كبيرة، وكان الدولار يساوي ما بين 75 – 80 قرشًا، والأسعار السائدة بالقياس إلى زمننا وسعر الدولار تعد منخفضة للغاية. كان بعضهم يحسد الزميل المذكور، ويتمنى لو يستطيع أن يكون مثله، فالمدرس المحظوظ في وزارة التربية والتعليم وفي مثل سنه يتقاضى ثمانية عشر جنيهًا في الشهر كله.

انضمت إلينا زميلة جزائرية نسيت اسمها. حضرت قادمة من مدينة بجوار العاصمة، وجاءت بمفردها لتعيش في أحد بيوت الطالبات، وأبدت اجتهادًا ملحوظًا، وإن كانت

بعض المشكلات المعيشية قد اعترضتها، وقد تطوع أحد زملائنا وكان متزوجًا وله أبناء باستضافتها في بيته وتعريفها بزوجته التي أسهمت في مساعدتها في حل بعض مشكلاتها، وظلت تواصل دراستها في الكلية حتى حصلت على الماجستير فيما أذكر. وكانت على تواصل مع أسرة الزميل بعد أن استقرت في مدينتها.

**بدا متشددًا:**

ناظر المدرسة التي أعمل بها كان نشيطًا ومتحركًا .. لا يكف عن متابعة الفصول والمدرسين وحركة الطلاب، ولكنه فيما يخصني بدا متشددا للغاية. بمجرد أن أصل إلى المدرسة قادمًا من القاهرة بعد ليلة صعبة، يطلب مني تقديم اعتذار عن الغياب بحسبانه إجازة عارضة، مع أن يعلم أن هذا اليوم لم تكن فيه دروس للطلاب، وأنني ذاهب للعلم وليس التجارة أو كسب النقود، حتى جاء يوم، وكنا قد اقتربنا من آخر العام، فأرسل إليَّ استجوابًا يتضمن أن أيام الإجازات العارضة قد انتهت، وأن اليوم الذي مضى صار غيابًا لا عذر له.

أذكر أني حولت الاستجواب الشخصي إلى استجواب للمدرسة ذاتها، وقيل لي إن الناظر ضحك لأول مرة حين رأى ما كتبته، ثم قابلني وأخبرني أنه يتمنى لي الخير، والحصول على الدكتوراه، وأنه يعاملني مثل أخيه الأصغر.

**الطابور والتابور:**

بيد أنني أحسست لديه شيئًا من الغيرة، عبّر عن نفسه في بعض المناسبات التي أراد من خلالها الانتقاص مني بصورة ما، وأذكر أنه كان يراجع دفتر التحضير الخاص بي، فكتبت كلمة الطابور كما هو شائع، ولكنه أكد لي أنها تكتب بالتاء، فقلت لا بأس أن تكتب بالطاء؛ لأنها كلمة معربة وشائعة، فأصر على أنها لابد أن تكتب بالتاء. قلت له: إن العقاد ذكر أن الذين يستخدمون كلمة الشيوعية يستخدمون خطأ شائعًا، والصواب هو المشاعية، ولكن استخدام الخطأ الشائع أفضل من استخدام الصواب الذي يوقع القراء في حيرة.

وجاءت نهاية العام لينقص تقدير الكفاءة السنوي الخاص بي، وكنت أحصل فيه دائما على "ممتاز" طوال السنوات الماضية، ليجعله "جيد جدًّا" بفارق درجة واحدة، أي 89 من 100، وهو انتقام غريب لا أجد تفسيرًا له إلا الغيرة. فلا هو انخفض بالتقدير إلى 80 درجة مثلا، ولا هو ارتفع به درجة واحدة ليكون "ممتازًا"، ووقف على الحافة، إنها النفس البشرية في مدّها وجزرها!

الطريف أن اسمي ظهر في أسماء المعارين نهاية العام للتدريس في الخارج، فأبدى سخريته أمام بعض زملائي، وقال: مدرس يعمل ستة أشهر، ويحصل على إعارة؟ ونسي أن الإعارة جاءت وفق التقارير السابقة التي حصلت عليها قبل أن أنتقل إلى مدرسته من عدد كبير من النظار والموجهين أو المفتشين كما كانوا يسمونهم، وكانوا جميعًا يشهدون بتفوقي في العمل والتدريس، ولكن صاحبنا كان له رأي آخر .. سامحه الله! سمعت بعدئذ أن من يحصلون على امتياز كانوا يقدمون له خدمات خاصة، ولا أريد أن أخوض في الأمر، لأنه لم يعد يعنيني على أية حال، وأنا بطبيعتي متسامح، وأفوض الأمر لله دائمًا!

**ادخار الأفضل:**

وللإعارة قصة طريفة لم تخطر لي على بال، فقد كنت في كل عام مضى أتقدم بطلبي من أجل الإعارة، وكانت النتيجة دائمًا سلبية؛ إما لأسباب تتعلق بأن الدول التي تطلب التعاقد، لديها اكتفاء هذا العام أو ذاك، أو أن الوزارة عندنا ليس لديها فائض من المعلمين، وصار لدي إحساس بأن هذا الأمر لن يتحقق، أقنعت نفسي أن الدراسات العليا أهم من أية إعارة. صحيح أن العمل في الخارج يحقق لصاحبه شيئًا من الراحة المادية والاكتفاء الذاتي، وتوفير احتياجاته المعيشية والإنسانية، ولكن ماذا يفعل المرء حين لا تكون الريح مواتية؟ عليه أن يصبر ويرضى بما قسم الله، وعندما تنظر إلى نفسك وتقارنها بآخرين، ليسوا في مثل ظروفك بل أقل، عليك أن تحمد الله وتشكره، وتقتع بما أنت فيك؛ فقد يدخر الله لك شيئًا أفضل.

**أوراق وطوابع:**

كنت في الفصل أشرح لطلابي الدرس، ومر عليَّ مدرس التربية الزراعية، وقال لي إن المدرسة تجهز استمارات الإعارة للعام الجديد، فأرسل طالبًا بسرعة إلى مكتب البريد ليأتي بأوراق وطوابع تمغة.

قلت له: لا داعي؛ فالمسالة لا أمل فيها.

قال لي: قيمة الأوراق والطوابع بسيطة، ولا عليك إذا تحققت أو لم تتحقق. المهم ألا تندم وتقول ذات يوم: ليتني فعلت.

قلت له: حسنًا، سأفعل.

عبأت الاستمارة، وألصقت الطوابع، وأرسلتها إلى الناظر، ونسيت الأمر تمامًا، حتى جاء الصيف، وكنت أؤدي امتحان التمهيدي للماجستير، فوجدت رسالة من أحد الزملاء يخبرني أن اسمي ظهر بين المرشحين للإعارة، وترتيبي الثالث على المحافظة، وأنه يحتفظ لي بالجريدة التي نشرت الأسماء.

**مشاعر متضاربة:**

كانت مفاجأة جيدة بلا شك، وغمرتني بمشاعر متضاربة. أريد أن أسافر، ولا أريد أن أغادر مصر في الوقت نفسه. إلى أين سأذهب في البلد الذي رشحت له وهو السعودية. إني أتخيلها مكة والمدينة ولا شيء غيرهما. طويت المفاجأة والمشاعر، وتفرغت لاستكمال أداء الامتحان، وكان أوشك على الانتهاء، عدت إلى القرية لأتابع إجراءات السفر.

**تقاليد عريقة:**

في فترة الدراسة للتمهيدي أتيح لي أن أدخل مكاتب الأساتذة، وكانت على صف واحد، يمثل ضلعًا من أضلاع الكلية في مبناها القديم بحي المنيرة. كان من النادر أن يتجه طالب إلى هذه المكاتب احترامًا وهيبة لمن يجلسون فيها، وكان مكتب العميد في أولها على اليمين. دار العلوم ذات تقاليد عريقة، وكان مبناها في المنيرة يمثل طرازًا أثريًّا متميزًا، ويوم هدموا المبنى لتحل مكانه حديقة عامة تمزق قلبي، ولم أجد سببًا مقنعًا لهدمه، حتى لو تم بناء

مبنى آخر ليستوعب أعدادًا غفيرة من الطلاب. كان من الممكن استخدام مبنى المنيرة في أي نشاط علمي يتبع الكلية، أما الحديقة، فلا أدري هل ستبقى طويلا أم يعاجلها سعار المباني الخرسانية الحالكة حين تباع لتاجر من تجار الأراضي الحكومية؟ لقد كتبت في حينه أنعي هذا المبنى العريق، ولعل الحديقة تبقى وتفلت من قبضة التجار الذين لا يعرفون معنى المبنى الأثري الذي يمسك بتلابيب التاريخ!

**تعامل راق:**

أول مرة دخلت هذه المكاتب كان في امتحان الشفهي في الليسانس، حيث امتحنني الدكتور عبد الصبور شاهين، مع بدء الدراسة للتمهيدي، كانت إحدى الغرف مقرًّا للمحاضرات، ولم تكن المحاضرات بالمعنى التلقيني الذي كان سائدًا في مرحلة الليسانس، ولكنه كان أقرب إلى المناقشات، ومطالعة كتب يشير بها بعض الأساتذة، مع تلخيصها ومناقشتها في المحاضرات أو اللقاءات.

من الأساتذة الذين كانوا يدرسون لنا النقد العربي القديم الدكتور طاهر درويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان رجلا فاضلا متواضعًا، ويتعامل مع طلابه تعاملا راقيًا، وأذكر أنه كان يستقبلنا كأننا ضيوف في بيته ويطلب لنا التحية من العامل سواء أكانت شرابًا باردًا أو ساخنًا، وكان يهدينا كتابه كرمًا منه ونبلا. وقد دعانا مرارًا لزيارته في بيته بمدينة نصر - على ما أذكر ـ ولكنني لم أكن أستطيع تلبية الزيارة؛ بسبب سفري وعملي. كان بعض الزملاء من المقيمين في القاهرة يزورونه ويذهبون إليه ويفيدون من علمه.

كان للدكتور طاهر شقيق يحمل رتبة لواء شرطة، وكان مشهورًا في مجال الرياضة، ولعله كان رئيسا لاتحاد كرة القدم، وكانت الصفحات الرياضية تنشر أخباره وأخبار الاتحاد الذي يرأسه باستمرار، وكانت زوجته أيضا مشهورة في المجال السياسي، وتكتب في الأهرام، ويستضيفها التلفزيون، واسمها ليلى تكلا. لم أسمع الدكتور طاهر يتكلم عن شقيقه، وحين سألته عنه أكد لي قرابته.

**الخلق المهذب:**

أما الدكتور عبد الحكيم حسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكان يدرس لنا مادة الأدب المقارن، وكان الرجل مثالا للخلق المهذب، ويستمع إلينا جيدًا في أثناء المناقشات، وأذكر أن محاضرته كانت مسائية حيث كنا آخر من يغادر الكلية، وكان يعلم أني أركب القطار من محطة رمسيس، فكان يصر على أن أركب سيارته ليحملني مع زميل من بنها إلى محطة القطار. كنت أعلم أنه يسكن في المعادي، وأرجوه أن يعود إلى بيته وأنني مع زميلي من الشباب نستطيع أن نركب الأتوبيس، بل نستطيع أن نقطع المسافة إلى هناك سيرًا على الأقدام، فكان يبتسم ويقول لي: إنه سيملأ السيارة بالوقود من محطة البنزين المجاورة لمحطة القطار.

أشرف الدكتور عبد الحكيم على رسالتي للماجستير في أول الأمر، وقابلته في فندق الفتح بمكة المكرمة أكثر من مرة (أزيل هذا الفندق مع التوسعات والتجديدات في الحرم)، وكان يقابلني بحفاوة كبيرة. وللأسف تعثرت في متابعة موضوع الماجستير، فغيرت الموضوع، وحمل طلب التغيير عندما سافر إلى مصر وأنا في السعودية، وأخبرني أن الإشراف تحول إلى الدكتور على عشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

**التلميذ القديم:**

ظللت أزوره وأنا في السعودية كلما ذهبت إلى العمرة أو الحج، وبعد سنوات طوال وكنت رئيسًا لقسم اللغة العربية في آداب طنطا، ودعيت لمناقشة رسالة دكتوراه في دار العلوم بالفيوم، فاجأني مفاجأة طيبة، حين وجدته يجلس في السيارة التي تحمل المناقشين إلى الفيوم. لقد جاء ليشاهد تلميذه القديم وهو على منصة المناقشة، يتحدث عن الرسالة وما فيها من قضايا.

قضينا معا يومًا جميلا، وكان آخر لقاء بيننا قبل أن ينقل إليَّ أحد الزملاء نبأ رحيله منذ سنوات. رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

**عدد من الزملاء:**

عرفت في فترة التمهيدي عددًا من الزملاء الذين درسوا معي، أو كانت لهم علاقة بمن يدرسون معي. كان زميلي محمد الحفناوي معيدًا بالكلية، وتأخر في دراساته العليا بسبب عمله في الجزائر مدرسًا، وعندما عاد بدأ من جديد ودرس التمهيدي معي. وكان يحضر معه زميلنا حسن طبل، وهو من قرية الحفناوي التي تبعد بضعة كيلو مترات من طنطا، واسمها فيشا سليم على ما أذكر. وحصل على الماجستير وبات على وشك الحصول على الدكتوراه.

ظلت علاقتي مستمرة بالزميلين الكريمين حتى اختار الله محمد الحفناوي عقب حادث مأساوي أودى بأحد أبنائه، أما حسن طبل فما زال على صلة بي حتى الآن، وقد عرفت من خلالهما عددًا من الزملاء الفضلاء في قسم البلاغة والأدب المقارن والنقد الأدبي وغيره من الأقسام الأخرى في الكلية.

ومن بينهم الزميل عبد المطلب زيد الذي عرفت والده أيضًا، وكان يسكن في مدينة دسوق، وهو الآن أستاذ متفرغ بالقسم ذاته في دار العلوم، وعمل سنوات طويلة في الكويت، ولم أره منذ زمان.

**أردت إنصافه:**

في الصيف وبعد إعلان نتيجة التمهيدي ونجاحي، اخترت موضوع الماجستير عن الشاعر أحمد مخيمر. كنت أعرفه شخصيًّا، فقد قابلته أكثر من مرة في دار الأدباء ومقر مجلة الثقافة في إصدارها الثاني. كانت له بعض القصائد المغناة الجميلة التي ربطتني به، ولأني كنت أحسه مهضومًا في الحياة الأدبية، فقد أردت إنصافه بدراستي عنه.

وهنا لابد أن أشير إلى خطأ كبير وقعت فيه، ويقع فيه كثير من شباب الباحثين حين يختارون موضوعًا لا تتوفر مصادره ومراجعه الأساسية . كان لدي ديوان واحد للرجل، فضلا عن مجموعة قصائده المنشورة في بعض الدوريات الثقافية، واعتقدت بسذاجة أنه

يمكن الحصول على بقية الدواوين من أماكن مختلفة ومن أسرته، وظننت أن أسرته ستتعاون معي إلى أقصى مدى ممكن.

**المصادر والمراجع:**

كانت إعارتي للعمل في الخارج وانشغالي بإنهاء إجراءات السفر وأمور أخرى، من عوامل تساهلي في توفير المصادر والمراجع لموضوع البحث، لدرجة أنني تصورت أن بإمكاني خارج البلاد أن أجد ما أريد في المكتبات العامة هناك.

خاب ظني حين لم أجد في المكان المقفر الذي وجدت نفسي فيه ما يساعدني على البحث، وخاب ظني أيضًا حين ذهب شقيقي إلى أسرة الشاعر الراحل ليطلب منهم المساعدة وتقديم دواوينه وكتبه، فلم يجد منهم أية استجابة، لم يكن ابن الشاعر أو أبناؤه على علاقة بالأدب أو الشعر أو الفكر، وأبدوا كثيرا من عدم المبالاة بالأمر، لدرجة أنه أحس بالحرج نتيجة زيارته لهم.

**آباء وأبناء:**

هناك من أبناء الأدباء من يحرص على تراث أبيه، والتعريف به وتقديمه للناس، ويحضرني في هذا المجال الدكتور أحمد علي الجارم الأستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة، وحرصه على متابعة ما يخص والده الشاعر العظيم والأديب الكبير والمربي الفاضل علي الجارم من كتابات ومؤتمرات وبحوث ورسائل جامعية، وجمع ما يستطيع مما يكتب عنه وطبعه في مجلدات، فضلا عن حضوره للندوات الأدبية، والتعريف بوالده في شتى المناسبات. وأيضًا أذكر صديقي الأستاذ زغلول محمود عبد الحليم عبد الله الذي يعيش حتى الآن محتفيًا بعمه الروائي الكبير محمد عبد الحليم عبد الله – الذي يعدّ والده الروحي – فنشر قصصه المخطوطة وجمع مقالاته المجهولة، وتابع المؤتمرات والندوات التي تحتفي بالكاتب العظيم، واهتم بمساعدة الباحثين، وتوجيههم إلى ما كتب عنه وما يتعلق به.

**سكين حادة:**

هناك من الأبناء من لا يعنيهم الوالد الأديب أو المفكر أو العالم، ويرون أن وفاته كانت نهاية حياته الأدبية والثقافية والعلمية، فيتخلصون من مكتبته وكتبه، ويقطعون ما بينهم وبينه بسكين حادة. ولصديقي الأديب الكبير وديع فلسطين كتابات مؤثرة في هذا السياق تكشف عقوق أبناء كثيرين لآبائهم، في مقابل وفاء أبناء كثيرين لآبائهم وأقاربهم.

**موضوع جديد:**

حاولت الاستنجاد بأصدقائي الأدباء في مصر؛ ليرسلوا إليَّ ما لديهم حول أحمد مخيمر، ولكن النتيجة كانت غير مشجعة، وهو ما انتهى بي إلى اختيار موضوع آخر؛ مصادره ومراجعه متاحة، وبالفعل اخترت موضوعًا جديدًا عن مدرسة البيان في النثر العربي الحديث، وكتبت الخطة وعرضتها كما أشرت من قبل على المشرف الدكتور عبد الحكيم حسان، وكان يعمل في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وقد ساعدني الرجل في تسجيل الموضوع الجديد، وإن كان القسم قد اختار مشرفًا آخر، هو الدكتور علي عشري؛ لوجود المشرف السابق الدكتور عبد الحكيم في الخارج كما تقضي اللوائح.

لقد ضاعت سنة كاملة هدرًا؛ بسبب اختيار موضوع لا تتوفر مصادره ومراجعه، ولو كنت تريثت قليلا، واخترت موضوعًا تتوفر مصادره ومراجعه لوفرت وقتًا وجهدًا.

**شرط صعب:**

حين عرف والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخبر الإعارة، بدا غير موافق وإن لم يصرح، ولكنه وضع شرطًا صعبًا، وهو ضرورة أن أتزوج وأحمل زوجتي معي إلى البلد الغريب! من الواضح أننا لا نتكالب على المال أو الدنيا كما يفعل الآخرون .. نرضى ونقنع بما قسم الله. والحمد لله على كل حال هي الفلسفة الدائمة .. عاطفة الأبوة شق عليها أن أرحل وأغادر البلاد، فوضع شرطه الصعب؛ لعله يعطل الإعارة والسفر، ولكن قدر الله وما شاء فعل.

كنت قد نسيت أمر الزواج وتركت المسألة للمستقبل، ولكن أبي أعادني إليها مرة أخرى وبإصرار شديد، مع أنه يعلم أن الظروف المادية غير مؤاتية، وقد استنفدت إجراءات الإعارة ما تبقى لدي من مدخرات، بل إن البحث عن عروس في مثل هذا الوقت الضيق يبدو ضربًا من المستحيل.

**لا تحمل همًّا:**

كنت أتردد على صديقي جابر رزق رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجلة الدعوة بسوق التوفيقية، وعرف بالأمر تفصيلا، فقال لي: لا تحمل همًّا، وليتك تمرّ عليَّ الأسبوع القادم؛ ولعل الله يجعل لنا مخرجًا.

في الأسبوع التالي، وجدت صديقي جابر يعرض عليّ اسم العروس ويطلب زيارة أسرتها، واصطحبت شقيقي، ورأيناها، وتم التوافق، وعقدنا القران في ليلة العاشر من رمضان، وكان الزفاف ثاني أيام العيد، وجاء الأمر بسيطًا وسهلا وكأنني في حلم لا يمت إلى الواقع بصلة، ولكن الله على كل شيء قدير.

فرحة أبي بالزواج فاقت كل حد، ولكنها كانت فرحة منضبطة، وامتلأ البيت بحركة جديدة، وانشغلت بإتمام الإجراءات للإعارة.

**قيمة المصري:**

للأسف اكتشفت أن الإنسان المصري لا قيمة له في بلاده وعلى أرضه. وبسبب الإعارة والرغبة في السفر إلى الخارج؛ من أجل تحسين الدخل، كانت سفارات الدول العربية التي يريد المصريون العمل فيها تبدو سوقًا مزدحمًا صاخبًا لا يعرف فيها أحد أحدًا. كان الصراخ والزحام وحرارة الجو ورائحة العرق سمات الحشد المتكرر يوميًّا طوال الصيف، وربما على مدى العام أمام كل سفارة عربية، وينتظر المصريون التعاقد مع من فيها للسفر إلى الخارج. الجالسون على الأرض أكثر من الواقفين في الطوابير الطويلة المتداخلة. لا تعرف هذا الطابور تابعًا لهذا الشباك أو ذاك. الأبواب مغلقة بالجنازير، وتفتح كل فترة

ليدخل أحدهم أو يخرج. الشرطة تأتي حين يعجز الحراس المصريون الخصوصيون أو الموظفون المصريون بالسفارات عن ردع الناس وإبعادهم.

كنت أردد دائمًا: ويل للمصريين من المصريين!

حين يتحكم المصري غير الأصيل في أخيه المصري ابن الناس، فيا ويله، وسواد ليله. الفرعنة البشعة، والإذلال الشنيع، والقهر الفاجر، ومساعدة الغريب، والتقرب إليه!

الجنسيات الأخرى تتضامن مهما كان بين أفرادها من خلافات أو تفاوت .. يقفون صفًّا واحدًا أمام المشكلات .. ييسرون لبعضهم الصعوبات، ويذللون العقبات، ويتعاونون في السراء والضراء، أما المصريون – كثير منهم – فهم في وادي الأنانية والنفاق يمرحون!

**حفظ الدور:**

يأتي المرشحون أمام السفارة للإعارة مع الفجر، أما الإخوة الصعايدة فيبيتون أمام السفارات؛ بسبب بعدهم عن القاهرة، ويتطوع بعض الناس ليكتب كشوفًا مرتبة لحفظ الدور والدخول إلى الجنة المنتظرة. ويبدأ العمل في الثامنة وينتهي في العاشرة. وترجع جموع غفيرة دون الوصول إلى اللجان المختصة أو التصديق على الأوراق.

كان المشهد مؤذيًا ومؤلمًا، إهانات بلا حصر، وقهر لا حدود له، وكل ذلك في الغالب بأيدي مصريين لحمًا ودمًا .. سألت نفسي: ماذا لو خصصت لجان التعاقد يومًا لكل محافظة، وذهبت إليها، وقابلت المرشحين، وأنهت إجراءاتهم، وخاصة أنهم قادمون من جهات حكومية، وليسوا من أصحاب الأعمال الحرة؟!

**تصوير الحشود:**

قسوة ما رأيته جعلتني أثير المسألة في الصحف الكبرى، وأخذ الصحفيون يلتفتون إلى مهانة المصريين ويذهبون أمام السفارات، يصورون الحشود المنتظرة أمام الأبواب والجالسين على الأرض والنائمين في الطرقات، ويكتبون عن معاناتهم ومتاعبهم. تكوّن رأي عام لأول مرة يرفض الهوان والمهانة، وجاء رد الفعل متمثلا في محاولات محدودة للتنظيم وتحسين الشكل القبيح للحشود الهمجية. بيد أن الصورة العامة مازالت كما هي؛

لأن السلطة المصرية لا تفهم معنى كرامة المصري وقيمته، بل إنها لا تتذكره إلا حين تفرض عليه الإتاوات التي تسمى ضرائب، تملأ بها جيوب الفاسدين، وتنفقها على أبهة الطغاة .. ثم إن معظم أفراد الشعب لا يفكرون إلا في أنفسهم ومصالحهم الخاصة، وعدا ذلك فكل شيء مباح أو مستباح!

**راجعوا وزارتكم:**

حين قُدّر لي وعدد من زملائي أن نصل إلى لجنة التعاقد وكنا بالعشرات، قيل لنا: راجعوا وزارتكم! وتكرر الأمر في الأيام التالية مع أعداد أخرى. عرفنا من خلال الأحاديث المسرّبة أن القوم اكتفوا بمن تعاقدوا معهم، ولا يريدون آخرين!

بعد إنفاق كل شيء لدرجة أن بعضهم باع عفش بيته لينفق على متطلبات السفر، على أمل أن يعوض ذلك مستقبلا من العمل في الخارج، وبدلا من الفرح بأمر السفر الذي علمه جميع الأقارب والأهالي والجيران، يأتي السادة أعضاء لجان التعاقد ليقولوا للناس: شكر الله سعيكم، وعودوا إلى وزارتكم أو مدارسكم؛ فقد اكتفينا!

كان المرشحون للإعارة - نتيجة للمهانات المتلاحقة - قد عرفوا طريقهم إلى الصحف، وكان ما ينشر فيها يومئذ له تأثيره بصورة ما، وظهرت مشكلة "راجعوا وزارتكم" في الصحف، بالإضافة إلى أن فريقًا من المرشحين المرفوضين ذهبوا إلى الوزارة فعلا، وأثاروا المسألة، وحدثت اتصالات بين المسئولين في الوزارة والسفارة، مع مفاوضات انتهت بقبول المرشحين المرفوضين، واستدعائهم للجنة مرة أخرى.

**الاختيار بين وظيفتين:**

حين ذهبت لمقابلة المختصين في التعاقد عرض عليّ المسئول - حين رأى أوراقي - الاختيار بين الذهاب إلى التعليم الابتدائي بمرتب أكبر؛ لأن سنوات خبرتي فيه طويلة، أو الذهاب للتعليم المتوسط والثانوي ولكن بمرتب أقل؛ بسبب قلة خبرتي بعد المرحلة الابتدائية.

قلت له: دعني أشاور نفسي، وسأمر عليك غدًا.

قال لي: لا تتأخر، فإن اللجنة قد تسافر بعد غد.

كان مفهومًا أن اللجنة حين تسافر لا يتم تعاقد جديد، ويستمر الموظفون في إنهاء الإجراءات الإدارية الأخرى من تأشيرات وتذاكر سفر ومظاريف تقدم إلى جهات العمل هناك.

قضيت الليلة في القاهرة وتشاورت مع من أعرف، وكان رأيهم جميعًا يتلخص في أن السفر من أجل المال وليس المنصب، وأن أربعمائة ريال أو خمسمائة فارق كبير بين مرتب الابتدائي ومرتب الإعدادي، وأنت أولى بها، وهي مبلغ لا يستهان به بالنسبة لمن هم في مثل ظروفي!

وفي الوقت نفسه، خطرت لي فكرة أن العمل في التعليم الابتدائي ليس مرهقًا مثل العمل في الإعدادي أو الثانوي. وسيتيح لي فرصة العمل في الماجستير بصورة أفضل، وفي كل الأحوال فلست ذاهبًا من أجل الترقي الوظيفي.

**كلمة جازان:**

في الصباح كنت عند لجنة التعاقد وأبلغت المسئول بإجابتي، فحوّلني الرجل إلى مكتب آخر؛ لأوقع العقد وأستكمل الإجراءات.

لم أنتبه إلى أن الرجل الذي وقعت العقد عنده كتب أمام اسمي في الكشف كلمة جازان، تسمى أحيانا (جيزان) .. عرفت فيما بعد أن هذه الكلمة اسم المنطقة التي سأعمل فيها، وهي في أقصى الجنوب للبلاد السعودية وتقع على شاطئ البحر الأحمر. كنت أحلم بمكة والمدينة، فجاءت هذه المنطقة التي لا أعرف عنها شيئًا. حاولت تغييرها فلم تفلح المحاولة. كأن قدر الله شاء أن أذهب إلى هناك، وأتعرف على معالم لم أكن أعرفها، ثم تربطني علاقات طيبة بأشخاص لم أكن أعرفهم، سواء من المصريين أو أهل جازان واستمرت حتى الآن، وقد خرجت من هذه التجربة بدروس كثيرة، لعلي أشير إليها فيما بعد.

**المظروف الأبيض:**

تسلمت من مكتب التعاقد مظروفًا رسميًّا أبيض كبيرًا مغلقًا، وموجهًا إلى مدير منطقة جازان التعليمية، ومن عنده سيتم توزيعي على المدرسة التي سأدرس بها.

دفعت قيمة التأشيرة، وسلمت جوازي السفر الخاصين بي وبزوجتي، واستلمت استمارة موجهة إلى مكتب الطيران؛ للحصول على التذكرتين وحجز المقعدين. وأجارك الله من الزحام هناك. قتال أعنف من الانتظار أمام السفارة، والمصريون يستخدمون الفهلوة ليسبقوا بعضهم، فتتعطل الأمور وتتأزم، وهنا تظهر كرامات المرتشين، والذين يسهلون الإجراءات بسبب المعرفة أو القرابة أو نحو ذلك .. تغيرت الأمور إلى حد كبير فيما بعد؛ نظرًا لاستخدام الكمبيوتر.

وبالحصول على التذكرة وتحديد موعد السفر، بدأ زمن الغربة بمسرّاته وأحزانه، وأفراحه وأشجانه. وأخذ الوطن شكلا جديدًا، تصنعه رسائل البريد، والصحف السيارة، وأحيانًا ما يقدمه التلفزيون أو بعض الإذاعات .. إنه وطن آخر تراه من بعيد وإن كنت تعيش في أعماقه.

**التفسير اليساري:**

كان الوطن يموج بأحداث جسام بعد مظاهرات يناير 1977، وكانت التنظيمات السرية - وخاصة التنظيم الطليعي - قد استردت عافيتها فيما يبدو من خلال بعض الأحزاب التي ظهرت على الساحة، لا سيما حزب اليسار المسمى التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، الذي يقوده الشيوعيون، ويسميه الساخرون "توتو"، وبدأ التحريض على الحركة الإسلامية، ومواجهة ثوابت الإسلام بمعارك هجومية، تفسر الإسلام تفسيرًا يساريًّا، أو تستعيد شبهات المستشرقين القديمة.

وكانت هناك بعض الأحداث البارزة التي شغلت المجتمع المصري بطريقة ما بعد أحداث يناير، منها وفاة عبد الحليم حافظ، وإيقاف مجلة الطليعة الماركسية، التي سبق أن تناولت أمرها من قبل، وأحدث وقفها مناحة كبيرة في أوساط الشيوعيين واليساريين

بعامة، ثم الاشتباك مع القوات الليبية، ومنشور رئيس الكنيسة التآمري، وهذه الأحداث كلها كانت تمهيدًا للحدث الكبير، وهو زيارة السادات القدس.

**مطرب النظام:**

في 30 مارس 1977 توفي المطرب عبد الحليم حافظ في لندن نتيجة مرض مزمن. وعبد الحليم المولود في عام 1929 كان من المطربين الذين وظفهم النظام الناصري المهزوم دائمًا للغناء للقائد الملهم، والترويج للاشتراكية، ومحاربة خصوم النظام في الداخل، وتقمص وظيفة الجنرال العسكري الذي يحقق انتصارات موهومة بأغانيه وأناشيده.

لم يكد خبر الوفاة يعلن، حتى انطلقت أجهزة الدعاية من صحف وإذاعات وتلفزة؛ لتحول مصر كلها إلى مأتم كبير، وترفع المطرب الراحل إلى درجة الأنبياء والقديسين والأبطال النادرين. وفي ظل حالة الهلع والحزن التي صنعها جهاز الدعاية، سمعنا عن حوادث غريبة، منها انتحار بعض الفتيات، والذهاب إلى مقبرة الراحل من جانب بعض النساء بصورة يومية، والبقاء هناك إلى وقت متأخر من الليل، وأشياء أخرى جعلت من موت المطرب نهاية العالم!

**فاتح القدس:**

وكان طبيعيًّا أن نتناول الظاهرة الغريبة في الاعتصام، فكتبت الموضوع الرئيس بعنوان: "ونحن أيضًا نكتب عن عبد الحليم حافظ محرر سيناء والجولان وفاتح القدس"، إلى جانب عناوين أخرى فرعية، امتدت على مساحة بضع صفحات، وهو ما أحدث رد فعل لدى الصحف الأخرى، التي دافعت عن موقفها وأصرت عليه.

في متن المقال أوضحت أن المطرب الراحل كان بوقًا للطاغية الراحل يغني له، ويهاجم من لا يقبل بطغيانه، وكان صعاليك الشيوعيين من كتاب الأغاني يكتبون له كلامًا دعائيًّا فجًّا، يؤسس للعبودية والعسكرة والخيبة والتنابز الرخيص، ومن هذه الأغاني:

جماهير الشعب تدق الكعب

تقول كلنا صاحيين

ومنها:

للمخلصين ألف سلام!

الاشتراكيين ألف سلام!

الحقيقيين ألف سلام!

لجمال وإخوانه ألف سلام!

يحيا لأوطانه بألف سلام!

وأنا وإنت وهو بخير وسلام!

ومنها:

أبو خالد نوارة بلدي ..

بلدي بلدي ..

أبو خالد ومعاه أبطالنا ضحوا وصنعوا الثورة علشانا

باشتراكيتنا ومبادئنا وبمكاسبها سلموهالنا

إحنا يا شعب

ومنها:

وحياتك يا حبيبنا وحياتك يا جمال

ياللي عليك تنفيذ مبادئنا إن كنت صغير ولا كبير

مبادئنا يعني ثورتنا يعني أمانة وشغل كتير

لو تخدم باشتراكية وبذمة وهمة قوية

أنا زي ما قال ريسنا راح أشيلك جوا عنيا

وإن خدت المركز جاه

ولعبت اللعب إياه ولا همك غير مصلحتك

وظلمت في خلق الله

هنقولك يا عديم الاشتراكية يا خاين المسئولية

هنزمرلك كدهو ونطبلك كدهو

**نظام مهزوم فاشل:**

كان المطرب الراحل مجرد بوق في يد نظام مهزوم فاشل، وإن كانت له أغان عاطفية يحبها بعض الناس، لكنه غنى للنظام المهزوم دائمًا الفاشل باستمرار؛ انتصارات وهمية حتى فوجئ الناس بقوات العدو على الضفة الشرقية لقناة السويس بعد هزيمة مذلة غير مسبوقة في التاريخ، ومع ذلك تحتفي أجهزة الدعاية بمطرب النظام المهزوم الفاشل بصورة غير مسبوقة، ولا تتذكر العلماء وعباقرة الوطن الحقيقيين بواحد من مليون مما تتناول به المطربين والممثلين وأشباههم!

كان المقال صاعقًا وسط المناحة الكبرى، أيده كثير من الناس وأعجبوا به، واستنكرته قلة بائسة عاشت على الأوهام والأكاذيب.

**مناحة أخرى:**

ولم تكد تهدأ مناحة عبد الحليم حافظ حتى بدأت مناحة خليفة جمال عبد الناصر في ليبيا، أعني معمر القذافي، الذي كان يتحرش بالسادات من حين لآخر، ويستخدم العمالة المصرية في ليبيا وسيلة ضغط عليه؛ كي يتجاوب مع نزقه وانفلاته.

وعرفت القاهرة والإسكندرية تفجيرات في بعض الأماكن العامة، مثل مجمع التحرير بالقرب من ميدان التحرير، ومحطة مصر بمحرم بك في الإسكندرية، وأماكن أخرى، وكان العقيد القذافي يؤيد هذه العمليات في أجهزة دعايته ويفاخر بها؛ بوصفها موجهة ضد النظام المصري الذي لا يعجبه، والذي حاد عن الطريق الثوري لمحبوبه وقدوته وملهمه جمال عبد الناصر!

في يونيه 1977 أمر العقيد القذافي نحو 225000 مصري يعملون في ليبيا بمغادرة البلاد، وذلك بحلول الأول من مارس القادم وإلا واجهوا الاعتقال.

**تحرش وعلقة ساخنة:**

وفي 21 يوليو 1977 بدأ تحرشه بمعارك مع القوات المصرية على الحدود وقصفها بالمدفعية والطيران، حيث أطلقت وحدات مدفعية ليبية قذائفها على مدينة السلوم المصرية، عندما أوقف حرس الحدود المصريين مسيرة "نحو القاهرة" مكونة من آلاف المتظاهرين الليبيين باتجاه الحدود المصرية. كانت المسيرة قد تحركت يوم 20 يونيه 1977، بدعوى إسقاط الحدود التي تعوق نهضة الشعوب العربية وتمنع اتحادها، وهدفها العمل من أجل وحدة شعبية عربية بين البلدين على نهج جمال عبد الناصر، الذي رأى القذافي أن الرئيس السادات قد ابتعد عن نهجه، متصورًا أن الشعب المصري سيستجيب لدعوته وأفكاره. بالإضافة إلى قطع الطريق على السادات الذي يسعى - كما يعتقد القذافي - للتصالح مع العدو الصهيوني.

في اليوم نفسه ردت القوات الجوية المصرية بمهاجمة قواعد عسكرية في شرق ليبيا بأسراب من طائرات سوخوي إس يو - 20 وميج 21، فدمرت عددًا من الطائرات الليبية.

وفي يوم 22 يوليو، قصفت الطائرات المصرية نفسها قواعد جوية ليبية جنوب طبرق، ولاحقًا في ذلك اليوم قصفت الطائرات المصرية مواقع عسكرية ليبية في واحة الكُفرة. كما هاجمت يوم 23 يوليو قاعدة العظم الجوية جنوب طبرق، واستدعيت جميع المقاتلات الليبية من كافة أنحاء ليبيا إلى طبرق؛ مما أدى إلى معارك جوية عنيفة بين الطائرات المصرية والطائرات الليبية.

**الشخص المزعج:**

كان لابد من الرد المصري الذي يردع هذا الشخص المزعج، ولهذا أمر السادات بالقصف الجوي والزحف البري بالدبابات والمدفعية وقوات الصاعقة، حتى وصل الجنود إلى داخل ليبيا، وبعد أن أدت القوات مهمتها، أمرها السادات بالعودة، وقال لجنوده "كفاية كده .. تعالوا". وجرت وساطة للتهدئة من قبل الرئيس الجزائري الرّاحل هواري بومدين، وزعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات .. وتم التوافق على وقف لإطلاق النار

بين الجانبين في 24 يوليو، ثم وقف القتال يوم 25 يوليو 1977. ومع توقف القتال، فقد ظل الخلاف قائمًا، وخفّف منه تبادل الأسرى الذي جرى في أغسطس 1977.

**إحساس بالراحة:**

كان إحساس المصريين بالراحة كبيرًا بعد أن أدت هذه "العلقة" الساخنة للشخص المزعج إلى توقف التفجيرات في القاهرة والإسكندرية، وإلى تراجع الحديث عن مغازلته لبعض القبائل الممتدة داخل ليبيا من أجل إثارة القلاقل في البلاد، وإن كان عدد كبير من العاملين المصريين هناك قد عادوا إلى مصر.

شذ عن هذا الإحساس من يسمون أنفسهم بالناصريين، أو أتباع جمال عبد الناصر من الصحفيين والإعلاميين، وكان معروفًا أن القذافي يدعوهم إلى ليبيا ويكرمهم، وبعضهم كان يتولى العمل في صحف موالية له في ليبيا وخارجها، أو يقدمون برامج إذاعية وتلفزيونية في جهازه الدعائي أو الأجهزة الموالية له في بعض الدول العربية.

**منشور سري:**

كان هناك حدث جانبي داخلي هامشي، وإن كنت أعده من الخطورة بمكان، فقد تداول الناس منشورًا كنسيًّا سريًّا، يخطط فيه شنودة رئيس الكنيسة الأرثوذكسية المصرية لمستقبل بعيد، تتحول فيه مصر المسلمة إلى دولة نصرانية وفق النموذج الأندلسي، ويقوم هذا النموذج على تكاثر النصارى وزيادة نسلهم، عن طريق الزواج المبكر، ومساعدة الفقراء منهم على الزواج، ويقوم الأطباء النصارى بتعقيم مرضاهم المسلمين، سواء أكانوا رجالا أو نساء، مع توجيه النصارى إلى التركيز على السيطرة الاقتصادية، وعدم الشراء من المسلمين، وعدم الاستعانة بأطبائهم ومعلميهم وصيادلتهم وحرفييهم وعمالهم، ثم - وهو الأهم - مساعدة الطلاب المسلمين الفقراء في الجامعة، واستغلال فقرهم لتنصيرهم، أو تشكيكهم في العقيدة الإسلامية، مع شراء الأراضي والمساكن في كتل متجاورة، وعدم تأجير المساكن للمسلمين .. إلى غير ذلك من أمور تؤدي في النهاية إلى بروز كيان نصراني قوي، يصل بعد سنوات إلى تحقيق الأغلبية

السكانية وحكم البلاد، وطرد الأقلية المسلمة - المفترضة آنئذ - إلى خارج البلاد، ليكون الكيان النصراني المصري نقيًّا!

بالطبع نفت الكنيسة مثل هذا المنشور، وكذبته، بيد أن الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نشره في كتابه "قذائف الحق" بعد أن تأكد من صحته، بوساطة شخصية أمنية كبيرة نافذة، ورأى فيه مؤشرًا خطيرًا، يعمل على تمزيق البلاد، وإثارة متاعب لا آخر لها.

**استقبال الرؤساء:**

كان شنودة في ذلك الحين رجل أمريكا المفضل في مصر، وقد استقبله الرئيس الأمريكي جيمي كارتر استقبال الرؤساء فور وصوله إلى واشنطن، وقضى معه وقتًا طويلا، ومنح الكنيسة معونات مالية ومادية، منها مطبعة ضخمة من أحدث طراز، بينما كان بعض الحكام العرب ينتظرون أيامًا لمقابلته، فيقضي معهم وقتًا قصيرًا، وكأنه يؤدي واجبًا بروتوكوليًّا، يأمر فيه وينهى!

**لاهوت التحرير:**

ولعل منهج شنودة، وتبنيه لما يعرف بلاهوت التحرير، الذي ساد في أمريكا اللاتينية في النصف الثاني من القرن العشرين، وقاده بعض رجال الدين لتخليصها من الحكام الطغاة، هو الذي لفت الأنظار الأمريكية، فقد جاء شنودة بعد رحيل كيرلس السادس، الذي كان صديقًا لجمال عبد الناصر، ومنحه الأرض والتكاليف لبناء كاتدرائية العباسية.

تولى شنودة رئاسة الكنيسة في وقت متقارب مع تولي السادات للحكم، ويبدو أنه رأى أن شخصية السادات لينة، ولا تماثل شخصية جمال عبد الناصر الخشنة، فنفّذ فكرة لاهوت التحرير، وبدأ التحرش بالسلطة، عن طريق بناء كنائس بدون ترخيص، وكانت حادثة الخانكة بداية الاختبار، واستعراض القوة أمام الدولة، وتحريض النصارى على الإيمان بفلسفة الاستشهاد من أجل المسيح!

حاول السادات مرارًا تهدئة الأمور عن طريق لجان التحقيق وغيرها، ولكن شنودة كان يدعي المظلومية، ويؤكد على اضطهاد النصارى، وسخّر عددًا من الشيوعيين

واليساريين والليبراليين من أعداء الإسلام في المجال الصحفي والإعلامي والحزبي لمناصرته وتأييده، وترديد مزاعمه، ويبدو أن أمريكا وجدت فيه ورقة مهمة للضغط على مصر، فكان استقبال كارتر له استقبال الرؤساء، رسالة إلى من يعنيهم الأمر في مصر.

## التحرش يتوسع

وافق السادات على بناء عدد كبير من الكنائس، ولكن التحرش لم يتوقف، وامتد إلى القرى، حيث كانت القرية التي تضم آلاف المسلمين مثلا وبها أسرة واحدة نصرانية، تفاجأ في الصباح بأن المندرة أو غرفة الضيوف تحولت مع حظيرة البهائم إلى كنيسة، لها برج فيه جرس، تم بناؤها في جوف الليل!

يتساءل الناس من أين جاء المال وكيف توفرت المؤن والعمال والإنجاز بهذه السرعة الغريبة المفاجئة؟ ولماذا يتم الأمر في جوف الليل، ولا يحدث في النهار، ومن خلال التعاون بين الأهالي؟ لابد أن في المسألة شيئًا!

## رئيس دولة:

لا شك أن شنودة كان ذكيًّا جدًّا، وكان يجيد عرض قضيته الباطلة، فهو أديب وشاعر، ويحفظ كثيرًا من الشعر العربي، ويحتفظ بمجموعة تفاسير القرآن الكريم، وعلى المستوى الشخصي فهو مجامل للغاية، وكوّن صداقات عديدة مع رجال الدولة ومشايخ الأزهر، ولكنه كان يتصرف بمنطق رئيس الدولة الذي يحكم ويفاوض، ويصدر قرارات، وقد نجح في تحويل الكنيسة إلى قصر للحكم، ليس في العاصمة وحدها، ولكن في كل مكان توجد فيه كنيسة؛ مما جعل النصارى يلجأون إلى الكنيسة لحل مشكلاتهم، وليس إلى جهات الدولة المختلفة، وهو ما نفى صفة المواطنة عن النصارى، وجعلهم أبناء شعب الكنيسة، بدلا من أن يكونوا أبناء شعب مصر!

بالتأكيد فإن فشل السادات في استرضاء شنودة، وإقناعه في القبول بالعيش ضمن الدولة المصرية، واحترام مشاعر الأغلبية الدينية المسلمة، وإصراره على أن يكون رئيسًا موازيًا، هو الذي دفع السادات إلى عزله في أحداث سبتمبر 1981، وتعيين لجنة خماسية من القساوسة تتولى إدارة الكنيسة، وقد أيد القضاء بعدئذ قرار العزل، في حيثيات تدين شنودة، وتتهمه ببث الفتنة وتدمير الوطن!

**استمرار التحرش:**

مع مجيء مبارك إلى الحكم بعد اغتيال السادات، عاد شنودة إلى كرسيه، ولكنه استمر في العمل بفلسفة لاهوت التحرير، والاستشهاد من أجل المسيح، وأخذ يمارس سلوكيات غريبة ضد من يدخلون إلى الإسلام من النصارى، وخاصة النساء، ويقوم باعتقالهن وحبسهن فيما يسمى دور الرعاية أو الأديرة.

لقد وجدت من واجبي أن أوضح للناس عبر عشرات المقالات وبعض الكتب، مواقف شنودة المتعصبة والمعادية للإسلام والمسلمين، وجهوده الآثمة لتطهير مصر من كل أثر للإسلام على غرار النموذج الأندلسي، وأصدرت مجموعة من الكتب عن مكتبة جزيرة الورد بالقاهرة عام 2011م، وهي: التمرد الطائفي في مصر: أبعاده وتجلياته - الأقلية السعيدة: يوميات التمرد والتسامح – الضيافة والشهادة - اخلع إسلامك .. تعش آمنا!! وكلها توضح سلبيات التمرد الطائفي، وآثاره على الطائفة والمجتمع جميعًا.

**أشد تطرفًا:**

للأسف بعد وفاة شنودة عام 2012 خلفه تواضروس، وهو أشد تطرفًا وتعصبًا، وشارك في انقلاب 3 يوليو عام 2013، الذي أطاح بالرئيس المسلم محمد مرسي، وإذا كان شنودة يتبنى النموذج الأندلسي، الذي يعني الاستئصال الكامل للمسلمين، فإن تواضروس يتبنى النموذج النيجيري، الذي تتولى فيه الأقلية النصرانية حكم الأغلبية المسلمة، وتغيير هويتها بالتدريج، وحرمانها من عوائد البلاد الاقتصادية، وتحويلها إلى سكان من الدرجة الثانية أو العاشرة - لا فرق.

**الحدث الأكبر:**

ثم جاء الحدث الأكبر الذي زلزل العالم، وهو إعلان السادات في مجلس الشعب أنه على استعداد لزيارة العدو في عقر داره؛ سعيًا للسلام والمصالحة، فكان ذهول، وكان اضطراب، وكان صراع، وكان انقلاب أصاب الدنيا كلها بالقلق والغضب والسرور!!

***

## 11- مراوغات وأحزان

**كيان غاصب:**

لم يكن متصورًا في مصر أو في العالم العربي أو في العالم أجمع، أن يجيء يوم يقول فيه حاكم أكبر دولة عربية أنه على استعداد أن يذهب إلى اليهود الغزاة وإلى الكنيست (مجلس النواب اليهودي)، ويتحدث إليهم طالبًا الصلح والسلام!

أنا من جيل تربى على أن الكيان الصهيوني كيان غاصب، يجب أن يعود إليه أهله الأصليون، وهم الفلسطينيون الذين طردوا إلى المنافي والمهاجر وأماكن النزوح، بعد أن قتل اليهود الغزاة كثيرين منهم. وكانت مقاطعة اليهود في كل المجالات أمرًا مفروغًا منه على المستوى العالم العربي. ثم إن اليهود الغزاة شنوا أكثر من حرب ضد مصر، وقتلوا من أبنائها عشرات الألوف، واحتلوا سيناء مرتين، وكانت حرب رمضان **1393**هـ= أكتوبر **1973** كسرًا لذراع اليهود الغزاة الطويلة. صحيح أن حرب رمضان حررت مساحة لا بأس بها من سيناء، ولكن بقي معظمها محتلا، مع قطاع غزة والضفة والقدس والجولان ومزارع شبعا وغور الأردن، فضلا عن فلسطين القديمة، التي احتلها اليهود بالحديد والدم والنار، والغدر والخيانة والخداع، وأعلنوا عليها دولتهم عام **1948**.

**حاملا كفنه:**

في صغري كان يحرم الاستماع إلى إذاعة العدو، وأذكر أننا سمعنا وكنت في السادسة أو السابعة من عمري، أن تاجر أجهزة راديو وماكينات خياطة في مدينة شبراخيت - المركز الإداري الذي تتبعه قريتنا - ضُبط وهو يستمع إلى إذاعة العدو، فتم القبض عليه وبقي في السجن فترة حتى أفرج عنه!

جاء اليوم الذي يقول فيه رئيس الدولة العربية الكبرى إنه على استعداد للذهاب إلى القتلة في عقر دارهم، وطلب الصلح، وكأنه يعلن الاستسلام أو يذهب إليهم حاملا كفنه، كما يحدث بين العائلات التي تعيش على الثارات.

### ستندهش:

لقد تحدث الرئيس السادات أمام مجلس الشعب المصري يوم 9 نوفمبر 1977 عند افتتاح دورته الجديدة، وأعلن في خطابه عن رغبته في زيارة القدس لإلقاء خطاب أمام الكنيست، حيث قال مخاطبًا النواب: «ستندهش إسرائيل إذا سمعتني أقول الآن أمامكم، بأني على استعداد بالذهاب إليهم، وإلى الكنيست نفسه وأتحدث إليهم» ..

وكان هذا الإعلان هو نقطة البدء فيما عرف بمبادرة السلام ..

وقد أربك هذا الإعلان الدول ذات الصلة بقضية فلسطين على المستويات العربية والإقليمية والخارجية، وانقسم الناس بين مؤيد ومعارض. في البداية ظن العرب أن السادات كان يقصد نوعًا من الإثارة، يهدف من ورائه إلى توريط اليهود الغزاة بعدم قبولهم لدعوته، فيظهرون وكأنهم يرفضون السلام، ولكن المسألة كانت جادة.

### زلزال الإعلان:

وأخذت الأطراف المعنية تعيد ترتيب مواقفها، وتقويمها لمواجهة الزلزال الذي أحدثه إعلان السادات عن زيارة القدس، فقد كان مفاجئًا ومباغتًا. وراحت الدول تستوعب أن المبادرة حقيقية، وأخذ اليهود الغزاة يرقصون في الشوارع فرحًا بزيارة السادات، وقرب إحلال السلام. أما الحكومة اليهودية فكانت في مأزق، وتحاول امتصاص الصدمة التي أحدثتها المبادرة، واضطر مناحيم بيجن رئيس الوزراء اليهودي المتطرف، أن يوجه دعوة رسمية للسادات كي يزور القدس، بعد أيام من إعلان السادات.

وتم تسليم دعوة مناحيم بيجن للرئيس السادات صباح يوم 16 نوفمبر، وتحدد يوم 19 نوفمبر للزيارة، وقبل بدء الزيارة باثنتي عشرة ساعة وصل ستون شخصًا من وفد المقدمة المصري. وقد أصدر بيجن مرسومًا، بأن يستقبل الرئيس السادات بشرف وكرامة تليق برئيس دولة حليفة قريبة، وليس مجرد رئيس دولة. وهو ما جعل الزيارة تمضي في إطار من الود والترحيب الواضح، وفرض على بيجن أن يؤجل زيارة كانت مقررة لبريطانيا في 20 من نوفمبر إكرامًا للضيف الحليف!

**دول العسكر:**

على الجانب العربي كان هناك غضب واضح في الدول التي كانت توصف بالثورية ويحكمها العسكر، وتزعمت العراق بقيادة الفريق المهيب الركن صدام حسين التكريتي، والعقيد معمر القذافي رفض الزيارة، ومهاجمة المبادرة، وقد حاول السادات أن يكسب سورية إلى جانبه قبل أن يزور القدس، ولكن حافظ الأسد رفض المبادرة تمامًا، لدرجة أن بعض مساعديه حاول اعتقال السادات في مطار دمشق، ولكن الأسد رفض ذلك.

في داخل مصر بدت أغلبية من الشعب راضية بالمبادرة؛ لأنها ستحقق السلام، وأفصح كثير من الناس أنهم تعبوا من الحروب، وآن للشعب أن يفرغ لشئونه، وتتحسن أحواله المادية. أما التيار الإسلامي وبعض النخب فقد أعلنت رفضها للمبادرة، ورأت أن ما فعله السادات سلوك انفعالي، لن يثمر نتائج جيدة بالمقاييس السياسية، فضلا عن المقاييس العقدية.

**يوم عرفة:**

اصطحب السادات معه بعض كبار مساعديه، ومنهم سيد مرعي رئيس مجلس الشعب، وعثمان أحمد عثمان نائب رئيس الوزراء ووزير الإسكان والتعمير، وبطرس بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية، وشارك في الزيارة من الأحزاب مصطفى كامل مراد رئيس حزب الأحرار، وعدد من الصحفيين، في مقدمتهم يوسف السباعي رئيس مجلس إدارة الأهرام ورئيس التحرير، وأنيس منصور الذي ظل لسنوات طويلة يكشف سلبيات اليهود الخلقية والسلوكية والفكرية وجرائمهم ضد الشعب الفلسطيني والعرب والإنسانية، وتبنى حملة عنوانها "اعرف عدوك" عقب هزيمة **1967** المصمية، وقيل إنه ترك الوقوف على عرفات، وكان يؤدي فريضة الحج مع زوجته، وتصادف موعد الزيارة يوم عرفة، فعاد قبله بيوم إلى مصر ليرافق السادات في رحلته التي جعلته بعد ذلك صديقًا حميمًا لليهود!

وهللت أجهزة الدعاية المصرية للزيارة، وأكثرت من الحديث عن السلام وأهميته وضرورته، وتحول كثير من المناضلين إلى تأييد المبادرة، وانتهى الأمر بمنحهم السادات لقب "بطل الحرب والسلام".

**نشوة عظيمة:**

عندما هبطت طائرة الرئيس في مطار اللد الصهيوني، شاهد اليهود الغزاة - في نشوة عظيمة - رئيس مصر وهو يستعرض حرس الشرف ويقف منتبهًا ومستمعًا للسلام القومي لكيانهم الغاصب، ورأوه وهو يضع باقة ورد على قبر الجندي الصهيوني المجهول، وفوق كل ذلك، شاهدوه وهو يزور تمثال ياد فاشيم لما يسمى بالمحرقة النازية.

في القدس أدى السادات صلاة عيد الأضحى بالمسجد الأقصى المبارك، ولم يفوت خطيب العيد الفرصة، وتحدث عن أهمية القدس وضرورة تحريرها، وحق الفلسطينيين في الحرية والعودة إلى بلادهم، وبعد الصلاة زار السادات الأماكن المقدسة.

كانت زيارة السادات للأقصى والأماكن المقدسة - كما يقول السفير البريطاني في تل أبيب آنئذ - أقرب إلى الكابوس بالنسبة لقوات الأمن الصهيونية، خاصة بعد إصراره على أن يسمح للمصلين المنتظمين بأن يصلوا معه في المسجد، وقد اصطحبه في القدس الشرقية الرائد كوليك الذي سئل من قبل حسن التهامي نائب رئيس الوزراء المصري، ما إذا كان لديه اعتراض في أن تقدم الحكومة المصرية إسهامات في ترميم المسجد الأقصى وإصلاح مدرسة الجالية القبطية. وبالفعل وصل فريق من المهندسين المصريين بعد أيام للقيام بمسح أولي حول الاحتياجات المطلوبة.

**حديث السادات:**

نقل التلفزيون الصهيوني على الهواء مباشرة الخطابات في الكنيست، واجتماعات الرئيس السادات مع مختلف المجموعات في الكنيست، ومؤتمره الصحافي المشترك مع بيجن. تحدث السادات عن الحقوق الفلسطينية دون إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وطالب بالانسحاب من الأراضي المحتلة. وتضمن خطابه خمسة مبادئ للتسوية السلمية للصراع، بين مصر والغزاة اليهود، وتتمثل فيما يلي:

أـ إنهاء الاحتلال الصهيوني للأرض العربية بعد يونيه 1967.

ب- الاعتراف بالحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني، وحقه في تقرير المصير، بما فيه حقه في إقامة دولته الخاصة.

ج- حق كل دول المنطقة في العيش في سلام داخل حدودهم الآمنة، التي تؤمنها ضمانات تتم عن طريق إجراءات يتفق عليها، بالإضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة.

دـ التزام جميع الدول في المنطقة بإدارة علاقاتهم فيما بينهم بما يتمشى مع أهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وخاصة المبادئ التي تتعلق بعدم اللجوء إلى القوة، وحل الخلافات فيما بينهم بالطرق السلمية.

هـ إنهاء حالة الحرب في المنطقة.

وجاء في كلمة الرئيس السادات أمام الكنيست يوم 20 نوفمبر 1977:

"لقد تحقق بحمد الله الهدف الأول والأكبر من رحلة السلام، لقد تحطمت حواجز الشكوك وفقدان الثقة والخوف، وبدأنا نحن وأنتم نسلك سلوكًا حضاريًّا يلتزم بمسئولية القادة أمام شعوبهم، وأمام الأجيال المقبلة صاحبة الحق الطبيعي في الحياة الآمنة الكريمة. اتفقنا على أن ننتقل من مرحلة التهديد بالنار إلى الحوار بالحق والحقيقة، ومن لغة المدفع والموت إلى نقاش الكلمة من أجل الحياة".

"إن الأمة العربية لا تتحرك في سعيها من أجل السلام الدائم، من موقف ضعف أو اهتزاز، بل إنها على العكس تمامًا تملك من مقومات القوة والاستقرار، ما يجعل كلمتها نابعة من إرادة صادقة نحو السلام، صادرة عن إدراك حضاري، بأنه لكي نتجنب كارثة محققة علينا وعليكم وعلى العالم كله، فإنه لا بديل عن إقرار سلام عادل، لا تزعزعه الأنواء ولا تعبث به الشكوك، ولا يهزه سوء المقاصد أو التواء النوايا".

**دون المستوى:**

أما حديث بيجن في الكنيست فجاء مخيبًا للآمال ودون مستوى خطاباته العادية، وشعر معظم اليهود الغزاة أنه فشل في أن يرقى إلى مستوى الحدث والمناسبة. على عكس حديث زعيم المعارضة في الكنيست الذي كان أقرب إلى المطلوب.

عاش جميع المواطنين في مصر وفي البلاد العربية - بل وفي دول العالم أجمع ـ هذه الأيام مع أجهزة وأدوات الاتصال والإعلام المحلية والإقليمية والعالمية، التي نقلت هذا الموقف الاستثنائي الذي أخذ بأنفاس جميع البشر، فتابعوه وعايشوه وتأثروا به.

**موضوع الانسحاب:**

وبعد عودة السادات من القدس خطب أمام مجلس الشعب في 26 نوفمبر 1977 وقال:

"إثر زيارتي للقدس في نوفمبر الماضي سرت روح جديدة في المنطقة، واتفقنا في القدس وفي الإسماعيلية (يشير السادات إلى لقائه مع مناحم بيجن في مدينة الإسماعلية على قناة السويس) هنا على أن نمضي في جهودنا من أجل تحقيق تسوية شاملة، وفيما يتعلق بموضوع الانسحاب حققنا تقدمًا، لكن فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية نعتبرها لب المشكلة في هذه المنطقة، فإن الوفدين المصري والإسرائيلي، ناقشا المشكلة الفلسطينية، ولقد اختلفنا هنا حول هذه القضية، ولكننا اتفقنا على أن نناقش تلك القضية في اللجنة السياسية لمؤتمر القاهرة التحضيري".

**تبديد الاهتمام:**

وكانت هذه إشارة إلى أن مناحيم بيجن يتحرك في الاتجاه نحو حل مع مصر وحدها، ولن يلتفت إلى الآخرين، وفقا لخطته أو خطة الصهاينة عمومًا أن يفيدوا من طول وقت المفاوضات في تبديد الاهتمام الدولي بالقضية؛ حتى لا يعطوا شيئًا للطرف العربي! وهو تقريبًا ما انتهت إليه المفاوضات من اتفاق عملي حول سيناء، واتفاق ورقي حول الحكم الذاتي للضفة والقطاع، الذي رفضته منظمة التحرير الفلسطينية!

وقد لخص الموقف بطرس بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية المصري، ورئيس تحرير مجلة السياسة الدولية الفصلية التي تصدر عن الأهرام في افتتاحية عدد يناير 1978 على النحو التالي مع بعض الإيجاز:

مع رد الفعل العالمي المؤيد للسادات والمناصر على نطاق واسع ومتزايد يومًا بعد يوم، فإن التحرك المصري استمر مندفعًا بالشرح وبالنقاش، وبهدف الإيضاح أعلنت وزارة الخارجية المصرية مرارًا التأكيد على النقاط التالية:

**موقف مبدئي:**

أ- أن مصر لا زالت تتمسك بموقفها المبدئي الثابت من قضية النزاع العربي الإسرائيلي، وأهم عناصره إعطاء الأولوية لحل المشكلة الفلسطينية، فلا سلام بدون تسويتها، ورفض أية تسويات جزئية وعدم قبول أية اتفاقات منفردة؛ تأسيسًا على أن التسوية لن تتم إلا في إطار جماعي يضم الأطراف العربية المعنية، وأن السياسة المصرية الرسمية لم تتراجع عن التزاماتها القومية التي أقرها الرؤساء العرب في مؤتمرات القمة العربية.

ب- الهدف النهائي للتحرك المصري من أجل التسوية السلمية لن يتغير، وأن التغيير الجديد هو في أسلوب التحرك بالتوجه المباشر للخصم من خلال اتصال مباشر وواضح؛ ولذلك فإن الهدف من الزيارة لم يكن التوصل إلى نتائج فورية محدودة، وإنما كان الهدف هو إحداث صدمة عنيفة للرأي العام؛ ليقف على حقيقة نوايا العرب السلمية.

**تجنب التفاصيل:**

ج- الرئيس السادات اعتمد في اتصالاته المباشرة على تحديد الخطوط والقضايا الرئيسة وتجنب التفاصيل والجزئيات، وأن السياسة المصرية قد أقرت مبدأ الاتصالات المباشرة بعد كسر حدة عدم الثقة، وبعد أن أدرك الجانب الصهيوني أن التسوية السلمية في صالحه وفي صالح المنطقة.

د- هذا التحرك الإيجابي المصري في حاجة لمعونة جميع دول العالم والقوى الكبرى لمساندة خطوات السلام، وأن الاهتمام الأساسي الذي يلي الزيارة هو الإعداد الجيد لمؤتمر جنيف حتى ينجح، وليس فقط بحث ومناقشة توقيت عقد مؤتمر جنيف.

**تأييد شعبي:**

عاد الرئيس السادات من رحلته وسط أصداء عالمية متفائلة، وخرج الشعب المصري بالإجماع؛ تأييدًا للرئيس المصري رجل السلام في المنطقة، وألقى الرئيس يوم 26 نوفمبر 1977 بيانًا عن رحلته أمام مجلس الشعب، وأعلن عن دعوته إلى عقد مؤتمر القاهرة في شهر ديسمبر 1977، يحضره ممثلون عن أطراف النزاع العربي الإسرائيلي والرئيسان المشاركان لمؤتمر جنيف والسكرتير العام للأمم المتحدة، وذلك للإعداد لمؤتمر جنيف، وأكد الرئيس - في وضوح - أن مؤتمر القاهرة ليس بديلا عن مؤتمر جنيف، وإنما هو مؤتمر تحضيري له.

وقامت وزارة الخارجية بإرسال الدعوات إلى جميع الدول الأطراف في مؤتمر القاهرة والأمم المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية، مع إيضاح أن مؤتمر القاهرة هو مؤتمر تحضيري للإعداد لاستئناف مؤتمر جنيف، وتهيئة المناخ الملائم للتوصل إلى تسوية شاملة للنزاع العربي الإسرائيلي، وأنه ليس مؤتمرًا ثنائيًّا، وأن أعمال المؤتمر سوف تتصف بالمرونة وعدم التعقيد بجدول أعمال محدد، أو إجراءات معينة لعقده أو لسير أعماله، وقد رحب بالمؤتمر وقبل المشاركة في أعماله الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني، ووافقت المملكة الأردنية، بشرط حضور الأطراف المدعوة كافة للمؤتمر، وأبدى لبنان استعداده للحضور في المرحلة النهائية للاتفاق، مع تعذر حضوره حاليًا في هذه المرحلة، ورفض الاتحاد السوفيتي الحضور، ولم ترد سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية رسميًّا على الدعوة.

**مؤتمر المقاطعة:**

وعلى الجانب الآخر من الموقف العربي العام، اتخذت بعض الدول العربية موقف الرفض الرسمي لهذه المبادرة منذ بدايتها، وأجرت اتصالا فيما بينها، نتج عنها عقد مؤتمر طرابلس، الذي حضرته سوريا وليبيا والعراق والجزائر واليمن الجنوبية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وأصدر هذا المؤتمر يوم 5 ديسمبر 1977 بيانًا، أهم نقاطه ما يلي:

أ- تجميد العلاقات الدبلوماسية لأطراف المؤتمر مع مصر.

ب- مقاطعة كافة الشركات والمؤسسات المصرية التي قد تتعامل مع الكيان الصهيوني.

ج- الامتناع عن حضور اجتماعات جامعة الدول العربية التي تعقد في القاهرة.

د- تقديم المساعدات الضرورية إلى سوريا.

هـ- توقيع معاهدة دفاع مشترك بين كل من الجزائر وليبيا واليمن الجنوبية وسوريا.

**قطع العلاقات:**

وفى اليوم نفسه أعلنت مصر قطع علاقاتها مع هذه الدول، وترحيل سفرائها، واستدعاء العاملين بسفارات مصر هناك خلال 24 ساعة، وأوضحت مصر أن موقفها هو رد فعل لبيان مؤتمر طرابلس، والحملة الظالمة التي شنتها هذه الدول على مصر، وكذلك ما تعرضت له البعثات والمصالح المصرية في هذه الدول من اعتداءات وتخريب، وحرصت مصر على التعبير عن إصرارها على المضي في مساعي السلام، والوصول إلى التسوية الشاملة العادلة للصراع، متخطية كافة العقبات التي تعترض هذا السبيل.

**مستوى الخبراء:**

وبالفعل بدأ مؤتمر القاهرة التحضيري لمؤتمر جنيف أعماله في 14 ديسمبر 1977، بحضور ممثلي كل من مصر والكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية والأمم المتحدة، وفرضت الطبيعة التحضيرية للمؤتمر أن يكون التمثيل في هذه المرحلة على مستوى الخبراء، كما شكلت لجان فنية معاونة للوفود الرسمية، شاركت في الأعمال اليومية للمؤتمر. حضر عزرا فيتسمان وزير الدفاع الإسرائيلي في زيارة قصيرة للقاهرة التقى خلالها بالرئيس السادات والفريق الجمسي، كما أجرى مشاورات مع الوفد الصهيوني في مؤتمر القاهرة.

**لقاء الإسماعيلية:**

بدأت زيارة رئيس الوزراء الصهيوني يوم 25 ديسمبر في مدينة الإسماعيلية، حيث التقى بالرئيس السادات، وشارك في اللقاء وفدان على مستوى عال من الجانبين، ضم وزراء الخارجية والدفاع، وبعض كبار المسئولين والمستشارين.

وكانت أهم القرارات التي توصل إليها الجانبان، هي رفع مستوى التمثيل في مؤتمر القاهرة؛ ليكون على مستوى الوزراء، على أن ينعقد في مرحلة لاحقة، وكذلك الاتفاق على تشكيل مجموعتي عمل سياسية وعسكرية، يرأس كل منها الوزراء المختصون في الدولتين بالتناوب، وتعقد اللجنة العسكرية اجتماعاتها في القاهرة، والسياسية في القدس اعتبارًا من الأسبوع الأول من يناير بالنسبة للعسكرية، والأسبوع الثاني بالنسبة للسياسية؛ بهدف تخطي الخلافات التي ظهرت في وجهات النظر بالنسبة للضفة الغربية، والمسألة الفلسطينية على وجه الخصوص، ولإعداد مشروع بيان باتفاق المبادئ، وهو المشروع الذي تعذر التوصل إليه في اجتماعات الإسماعيلية؛ لاختلاف وجهات النظر حول الوطن الفلسطيني، ولبحث تفاصيل المسائل العسكرية، والانسحاب، والضمانات، وكذلك طبيعة السلام ومكوناته.

### مشكلات خطيرة:

وقد نشرت المخابرات الأمريكية بعض الوثائق التي تحلل زيارة السادات للقدس، وما تلاها من ردود أفعال على المستوى الإقليمي والصعيد العالمي، وأشارت في إحدى الوثائق إلي أن السادات - بتمكنه من الإمساك بزمام المبادرة في عملية السلام - صنع مشكلات خطيرة جدًّا لجميع الدول ذات الصلة بأزمة الشرق الأوسط؛ لأنه أجبر كل الأطراف على إعادة تقييم مواقفها الأساسية لتتجه نحو السلام. وهكذا بدا من الواضح أن أحداث شهر نوفمبر1977 في الشرق الأوسط، قد زلزلت العالم، وبدلت من رؤاه للأمور. وجاءت خطوة الرئيس السادات لاستعادة سيناء بالسلام بعد النصر في الحرب؛ لتنقذ مصر من تابوت تم صنعه لها بعناية؛ لتبقى مضغوطة ومنقوصة السيادة لأطول فترة ممكنة انتظارًا لطعنة جديدة في مرحلة تالية.

### موقف عقلاني:

كان موقف التيار الإسلامي في مصر رافضًا للمبادرة من خلال موقف عقلاني، فضلا عن الموقف العقدي، وليس رفضًا عاطفيًّا، يقوم على نضال الحناجر الذي لا يثمر شيئًا، وهو النضال الذي تبنته دول الرفض أو الصمود والتصدي، التي وجهت أذاها إلى مصر،

دون أن تؤثر على العدو بأي شيء. لقد قررت هذه الدول مقاطعة مصر، كما بدا في بيان طرابلس الذي سبقت الإشارة إليه، ولكنها لم تتحرك في تغيير الوضع الخاص بالعدو بما يؤلمه ويوجعه بأية وسيلة.

إن التيار الإسلامي يعبر عن رفضه للمبادرة؛ لأنها منحت العدو مكسبًا كبيرًا ما كان يحلم به، وهو التعامل المباشر معه، وفتح له أبواب مصر، وبالتالي ستفتح له كثيرًا من الأبواب العربية مستقبلا، دون أن يعطي للعرب شيئًا. وبطريقة عقلانية، كان يفترض أن تكون هناك مساومة غير مباشرة مع العدو بعد الاتفاق مع الدول العربية قبل الزيارة، ملخصها: ماذا ستعطي إذا قبلت بوجودك وتعاملت معك تعاملا طبيعيًّا؟

**لم يعط شيئًا:**

ولكن تاجر البندقية شيلوك – كما في رواية شكسبير المسرحية – لم يعط شيئًا، وأخذ كل شيء، مع أنه المعتدي الآثم الذي ترك في معظم البيوت المصرية والفلسطينية ذكريات حزينة على الشهداء والمصابين والمعاقين؛ بسبب وحشيته وإجرامه، وعلمًا أن الحكام العرب الآخرين لا يفكرون أبدًا في مواجهة العدو أو تحرير بلادهم بقوة الاقتصاد أو السلاح. ومع أن لديهم سلاحًا كثيرًا فهم لا يستخدمونه إلا ضد شعوبهم أو أشقائهم، والأمثلة كثيرة.

كان التيار الإسلامي - بحكم العقيدة - يرى أن الجهاد المدروس والتخطيط السياسي المحكم والتعبئة الشعبية الواعية والدأب في بناء القوة بأنواعها الممكنة، تكفل إقناع العدو المعتدي بتسليم الحقوق لأصحابها، وتجعله مضطرًّا للانسحاب دون استسلام له أو انبطاح أمامه.

**موضوعًا للغلاف:**

حملت مجلتا الدعوة والاعتصام لواء رفض المبادرة، وكان كتّابهما يقدمون للرأي العام أسباب هذا الرفض، ويكشفون خداع العدو وألاعيبه، وكنت أكتب في المجلتين، وكانت الدعوة تجعل مقالي موضوعًا للغلاف؛ بسبب جرأته وقوته .. كانت مقالاتي عنيفة

وصارخة، وأذكر أن أول مقال في الموضوع كان بعنوان: "نريد مبادرة سلام مع الإسلام"، وتناولت فيه ضرورة المصالحة الداخلية، وخاصة مع الإسلام وتشريعاته والتيار الإسلامي؛ حتى يمكن بناء وطن قوي يتصدى لليهود الغزاة، ويستطيع أن يستخلص منهم حقوقنا وحقوق العرب والمسلمين.

وبدأت كتابة سلسلة شهرية في الاعتصام، أقدم فيها مذكرات حاييم وايزمان، الصهيوني الأول الذي بدأ التخطيط لإقامة الكيان اليهودي الغاصب على أرض فلسطين، ووجدت هذه السلسلة قبولا حسنًا لدى القراء؛ لأنها كانت تكشف عن طبيعة العقل اليهودي المخادع، وهو يبذل جهده ويخفي الإعلان عن هدفه الأصلي، ويستخدم كل إمكاناته والأساليب الملتوية ليصل إلى ما يريد. وكنت أقدم للحلقات التي ألخصها بمقدمة تشبه الدراسة الموجزة التي تشرح وتفسر وتوضح ما ورد بالمذكرات، وتنبه إلى طبيعة السلوك الذي يسلكه وايزمان في إقناع الآخرين، وخاصة في دول الغرب؛ لمساعدة اليهود، وتسهيل جهودهم للاستيلاء على فلسطين، كما كنت أوضح كيف يعمل على الإفادة من الأحداث والصراعات التي تجري في العالم لتحقيق الغاية ذاتها.

**عزيزي القارئ:**

كتبت في مقدمة الحلقة التي نشرت في شهر المحرم **1399** هـ = ديسمبر **1978**م؛ ما يلي:

(عزيزي القارئ ..

تتوالى الأحداث وتتراكم .. وما أشبه الليلة بالبارحة، تتصارع بالأمس فرنسا وبريطانيا على النفوذ والتحكم واقتسام الغنائم، ويستفيد اليهود من هذا الصراع بما يحقق مصالحهم ويدعم أهدافهم. وتتصارع اليوم أمريكا وروسيا على السيطرة والموارد الأولية، ويستفيد اليهود من هذا الصراع بما يعطي لدولتهم اندفاعًا أكثر في طريق القوة والتسلط ..

أما نحن العرب المسلمين!! فيا للهول!! ننحاز دائمًا إلى إحدى القوتين، أو نتحول إلى مطية لإحداهما. أو نقسم أنفسنا فنكون مطيتين، بعضنا لهذه، وأخرى لتلك .. ونخرج من

الصراع دائمًا خاسرين، بل ندفع ثمن الصراع، وننحني على ذاتنا تمزيقا وتقتيلا .. وكأن النزعة الماسوشية (تعذيب الذات) هي التي تحكم تصرفاتنا وسلوكنا وأخلاقنا!

على أية حال، فإن القارئ سيجد في هذه الصفحة من مذكرات "وايزمان" إصرارًا لا يلين، وعزمًا لا يتقهقر على المضي في الطريق المرسوم لتحقيق آمال "يهود"، وسيجد أن الكفاح من أجل فكرة لا يستلزم أبدًا حدوث معجزات كما ينتظر العرب، بل يقتضي نوعًا من العمل المستمر والدءوب ..

وللقارئ بعد ذلك أن يكتشف أي نوع من مخلوقات الله أولئك اليهود، حيث يدوسون على كل القيم وكل المثل في سبيل تحقيق أهدافهم وأغراضهم، فيستخدمون الدس والكذب والوقيعة .. ولعل هذا يعطي إقناعًا لمن لا يقتنعون أن اليهود لا أمان لهم ولا ميثاق، وعلى الذين يبتغون السلام عندهم أن يضعوا هذا في اعتبارهم .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

**تقطيع الأوصال:**

كانت هذه المقدمة لصفحة المذكرات التي كتبها وايزمان عن تصريح بلفور، وما سبقه من اتفاق سايكس بيكو، وكيف حاول إقناع الأمريكان آنئذ بتأييد التصريح، في ظل الصراع على تقطيع أوصال الدولة العثمانية.

وبالطبع كانت هناك الإشارة إلى محاولات البحث عن السلام عند اليهود، والظن أنهم يمكن أن يجنحوا إليه بإخلاص وصدق مثل بقية البشر!

كانت وتيرة المعارضة للمبادرة قد أخذت تخفت أمام مراوغات اليهود، ومحاولاتهم تبديد أثر الصدمة التي أحدثها السادات في العالم في ظل كسب الوقت، وتتابع أحداث دولية أخرى مثل ثورة إيران، وهروب الشاة، وغزو أفغانستان، وزيادة اشتعال الموقف في لبنان، والقتال العنيف بين المارون والفلسطينيين، وتحوله إلى حرب بين الطوائف، وفي الوقت نفسه تفشل الاجتماعات بين الأطراف المعنية بمبادرة السادات؛ لأن اليهود الغزاة لا يريدون التسليم إلا بما يسمحون به، دون التزام بقرارات دولية أو قانون دولي أو مواثيق أممية. وكل هذا جعل الرئيس جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة - بضغط من

السادات - يدعو الطرفين الأساسيين إلى منتجع كامب ديفيد ويبقيهما، وكأنه يحبسهما لتوقيع اتفاقيتي إطار، تمهد لاتفاقيات مباشرة بين الطرفين، وتحدد طبيعة الانسحاب والعلاقات بينهما.

**تحليل إسلامي:**

وقد تولى الأستاذ محمد عطية خميس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحليل اتفاقيتي كامب ديفيد في الاعتصام تحليلا موضوعيًّا في ضوء الكتاب والسنة. وأشار إلى أن من المعلقين عليهما من ذهب إلى تأييدهما على طول الخط؛ لأنهما في نظرهم فيهما كل الخير، وفي نظر البعض الآخر هما أقصى ما أمكن الوصول إليه؛ حقنًا للدماء، وحفظًا للأرواح، بعد ثلاثين عامًا، أمضيناها في حروب أثرت في أحوالنا الاقتصادية والعمرانية .. ومنهم من ذهب إلى معارضتهما بكل قوة بألفاظ السباب والقذف، وكان أبرز حملة المعارضة لهما جبهة الرفض، أصحاب الطبل الأجوف، الذين انحازوا إلى الشيوعية والإلحاد والتهريج الرخيص، وتآمروا على هذه الأمة في دينها ووحدتها، وكل القيم الكريمة.

**الصلف الأسود:**

بعد هذه المقدمة الكاشفة يتناول محمد عطية خميس أسباب مشكلاتنا التي نعانيها، والإسلام والجهاد، والنصر من عند الله، والرجوع إلى الله هو العلاج، ويكشف أن كامب ديفيد لن تعيد القدس، وأن الذي وعد بها هو كارتر، أما اليهود فما زالوا يرفعون شعار الصلف الأسود، وأن بيجن يعتقد أن الحرب قد تعود مرة أخرى بعد عشر أو عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة، وأن مشروعات اليهود الغزاة قائمة على المبدأ القديم من النيل إلى الفرات، وأن الذين أيدوا الاتفاقية على طول الخط يشبهون الذين رفضوها من منطلق التهريج الرخيص، وأن اليهود الغزاة لم يجنحوا للسلم كما يزعم من يؤيدون اتفاقيتي كامب ديفيد، وقد علمتنا التجارب أن اليهود لا يحفظون عهدًا ولا يوفون بوعد، وأن آمالهم البعيدة في الكثيرين من أبناء اليهود أن يجعلوا دولتهم تمتد من النيل إلى الفرات!

اليهود يبيتون الغدر ريثما يلتقطون أنفاسهم، ويستعدون للحرب من جديد بعد وقت قصير أو طويل.

**المكر اليهودي:**

وكتب جابر رزق أن السلام الذي يصر عليه اليهود هو صورة من المكر اليهودي الذي تعودوا أن يتعاملوا به مع كل الأطراف وفي كل الأزمات والأوقات، والقرآن الكريم يقرر ويؤكد أن اليهود أشد عداء للمؤمنين من غيرهم، وأن هذا العداء كان وسيكون حتى قيام الساعة .. والتاريخ يؤكد ما قرره القرآن، ويضرب أمثلة على ذلك منذ بداية الإسلام حتى اليوم، فقد ألبوا الأحزاب على الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة، وألبوا العوام وأطلقوا الشائعات في فتنة مقتل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقادوا حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول الله ﷺ، وأثاروا النعرات القومية في دولة الخلافة العثمانية، وكانوا وراء الانقلابات العسكرية التي عزلت الشريعة عن الحكم، ووقفوا وراء الحروب على طلائع البعث الإسلامي، وكانوا وراء النزعة المادية الإلحادية في أرجاء العالم، ومعظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط.

ولعل اشتراط اليهود إقامة علاقات طبيعية بينها وبين مصر لتحقيق السلام، يجعلنا ندرك حقيقة المكر اليهودي، واستخدام أسلحته المدمرة نفسيًّا وفكريًّا وعسكريًّا.

**صلاح الدين الأيوبي:**

أما أنا فقد لجأت أحيانًا إلى التاريخ، إلى جانب التعليق المباشر على ما يجري بين الحكومة المصرية والعدو من مفاوضات بائسة. ومن بين ما كتبته مقال طويل بعنوان: "معذرة إليك يا صلاح الدين" استدعيت فيه تحرير صلاح الدين الأيوبي للقدس العتيقة من أيدي الصليبيين الغزاة، وشرحت كيف استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يعد مصر لقتال العدو الصليبي، مع الفارق في التسليح والإعداد والأعداد والإمكانات بينه وبين الصليبيين، الذين كانوا يفوقونه في كل شيء، ولكن تربيته الإسلامية وإيمانه بالله جعله يرسي دعائم العدل في البلاد، ويجعل من نفسه قدوة صالحة لبقية الشعب في الخلق والسلوك، ويعد ما استطاع من قوة، ويتوكل على الله، ويواجه الصليبيين، فيهزمهم

ويستخلص القدس من بين أنيابهم، ويسجل بطولة تاريخية، يذكرها الناس بالتقدير والإجلال.

وقد سخرت من بعض القادة العرب الرافضين الذين يصرون على انتسابهم إلى صلاح الدين، وإقحام أنفسهم في بطولاته، مع أن بطولاتهم هوائية.

وقد أوردت آخر وصايا صلاح الدين لتكون شاهدًا على إخلاصه وصدقه وقربه من الله، حيث قال:

"ادفنوا معي سيفي الذي حاربت به في قبري؛ ليكون خير شاهد لي يوم القيامة".

**النوايا الطيبة:**

وكانت هناك متابعة مستمرة في الاعتصام لما يصدر عن العدو وقادته، وكشف مكره وخداعه ومراوغاته، ففي تعليق بعنوان: "ما زالت إسرائيل تلجأ إلى التصريحات الاستفزازية، وما زالت مصر تتسلح بحسن الظن والنوايا الطيبة!!"؛ كتب المحرر:

"أعلن وزير الطاقة الإسرائيلي أن بلده سوف تستمر في السيطرة على جميع موارد المياه في الضفة الغربية، وفي بناء المستعمرات حتى بعد تطبيق مشروع بيجن للحكم الذاتي ..

وقد صرحت الدوائر الإسرائيلية أن مشروع بيجن يعني بقاء القوات الإسرائيلية إلى الأبد في الضفة وغزة، مع استمرر عملية التوطين اليهودي، ونزع ملكية أراضي الدولة وأراضي المواطنين الفلسطينيين، وتمليكها للمستوطنين اليهود، وفي 23 ديسمبر الماضي صرح موشي ديان في بروكسل - قبل لقائه برئيس الوزراء مصطفى خليل - أن إسرائيل ستبني على الأقل عشرين مستوطنة جديدة في الضفة الغربية خلال الفترة القادمة ... إلخ".

**أكذوبة السلام:**

كانت صحافة التيار الإسلامي معنية بكشف وتوضيح أكذوبة السلام مع العدو التي يروج لها نفر من الموالين للسلطة؛ بغية الهروب من أداء واجب الجهاد والمقاومة، وتحرير الأرض الإسلامية، وبسط السيادة الكاملة عليها.

على الجانب الآخر، كان أصحاب البطولات الهوائية من مناضلي الحناجر في الدول العربية يتربصون بالشعب المصري؛ لإيذائه والتضييق عليه، والحلم بوراثة الزعامة العربية والإسلامية بدلا منه. وقد امتد الأذى لأشخاص أو أفراد يعملون في بعض الدول العربية، ولا علاقة لهم بالسياسة أو الحكومة المصرية.

وبدأت بعض الفصائل الفلسطينية اليسارية تمارس عمليات اغتيال، ليس ضد اليهود الغزاة الذين سرقوا الأرض ودنسوا العرض وقتلوا الأبرياء، ولكن ضد أشقائهم المصريين. وكان اغتيال الكاتب الأديب يوسف السباعي

فاجعة من فواجع الخلل في العقل الفلسطيني والعربي!

**وجومًا يغطي الوجوه:**

كنت مسافرًا إلى القاهرة لمتابعة محاضرات التمهيدي للماجستير .. وصلت إلى باب الحديد، ومضيت إلى جريدة الأهرام لمقابلة بعض الأصدقاء في القسم الأدبي. رأيت وجومًا يغطي الوجوه، وصمتًا لا يهزه إلا وقع الأقدام. سألت عما يجري فقيل لي: هناك أنباء أن يوسف السباعي قد اغتيل في قبرص على أيدي فلسطينيين تابعين لإحدى منظمات المقاومة! ويبدو أن هناك من كان يتشكك في الخبر، فانتظر الجميع واجمين لبعض حتى تأكد الخبر عبر برقيات وكالات الأنباء، ثم أذيع الخبر في نشرة الثانية والنصف بالإذاعة.

كان يوسف السباعي (1917 - 1978)، رئيسًا لتحرير الأهرام ومجلس إدارتها. وقبل ذلك شغل منصبي وزير الإعلام ووزير الثقافة، وأنشأ نادي القصة وصار رئيسًا له بعد طه حسين، كما أسهم في إنشاء جمعية الأدباء ونادي القلم الدولي واتحاد الكتاب. وكان – كما أشيع - رجل العسكر بين الأدباء المصريين عقب انقلاب يوليو 1952، بحكم أنه أديب وكاتب وصحفي، وتولى رئاسة مجالس الإدارة ورئاسة التحرير في عدد من الصحف والمجلات، منها الرسالة الجديدة والثقافة وآخر ساعة ودار الهلال والمصور والأهرام.

**سلاح المدرعات:**

ولد يوسف السباعي في منطقة الدرب الأحمر بالقاهرة، لوالد من رواد الأدب والترجمة المشهورين في مصر، وهو محمد السباعي، والتحق يوسف بالكلية الحربية عام **1935**، وبعد تخرجه عين في سلاح السواري، وأصبح قائدًا لفرقة من فرق الفروسية (تحولت فيما بعد إلى سلاح المدرعات، الذي يعود إليه الفضل في إنشائه)، وأدركته حرفة الأدب فكتب الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والمقالة، ونشر عددًا من المجموعات القصصية والروايات والكتب الأخرى، منها: نائب عزرائيل - يا أمة ضحكت - أرض النفاق - إني راحلة - أم رتيبة – السقا مات - بين أبو الريش وجنينة ناميش - بين الأطلال - رد قلبي - طريق العودة – نادية - جفت الدموع - ليل له آخر - نحن لا نزرع الشوك - العمر لحظة.

في عام **1940** م عمل بالتدريس في الكلية الحربية بسلاح الفرسان، وأصبح مدرسًا للتاريخ العسكري بها عام **1943** م، ثم اختير مديرًا للمتحف الحربي عام **1949** م، وتدرج في الرتب العسكرية حتى وصل إلى رتبة عميد، كما اختير سكرتيرًا للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عام **1956**.

حصل السباعي على جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة **1973**، ونال عددًا كبيرًا من الأوسمة. الرجل لم يكن أديبًا عاديًّا، بل كان من طراز خاص، وسياسيًّا على درجة عالية من الحنكة والذكاء.

وفي عام **1977** أصبح يوسف السباعي نقيبًا للصحفيين، وشغل منصب سكرتير مؤتمر التضامن الأفرو آسيوي، وهي منظمة تسير على نهج دول عدم الانحياز، ولكنها في مجملها كانت أقرب إلى الفكر اليساري الموالي للاتحاد السوفيتي.

**ابن بلد:**

وعلى المستوى الإنساني كان الرجل ابن بلد .. مرحًا وطيبًا ومبتسمًا دائمًا، وحل كثيرًا من مشكلات الأدباء الفقراء، وعين كثيرًا منهم في وظائف (صورية) ببعض المؤسسات والمنظمات، توفر لهم لقمة العيش الكريمة، وتتيح لهم فرصة الكتابة والإنتاج.

ومن المفارقات أن الكتاب اليساريين الذين كانوا يهاجمونه دائمًا، ويزدرون إنتاجه الأدبي، كانوا يلجأون إليه لحل مشكلاتهم، وكان يبتسم لهم بعد أن يطمئنوا إلى الحل، ثم بعد أن يخرجوا يركبون أحصنتهم الخشبية لإبداء بطولات وهمية على حساب الرجل!

في يوم الجمعة السابع عشر من فبراير 1978، وصل يوسف السباعي إلى العاصمة القبرصية نيقوسيا على رأس الوفد المصري المشارك في مؤتمر التضامن الأفرو آسيوي السادس، فضلا عن كونه أمين عام منظمة التضامن الأفريقي الآسيوي.

### لماذا قتل؟:

وفي صباح يوم السبت الثامن عشر من فبراير، قرابة الحادية عشر، نزل يوسف السباعي من غرفته الكائنة بالطابق الخامس بفندق هيلتون، متوجهًا إلى قاعة المؤتمر بالطابق الأرضي، وكان المؤتمر قد بدأ بالفعل برئاسة الدكتور فاسوس ليساريدس، نائب سكرتير المنظمة، ورئيس الحزب الاشتراكي القبرصي، توقف السباعي في تلك الأثناء أمام كشك بيع الكتب والجرائد المجاور لقاعة المؤتمر، فأطلقت عليه ثلاث رصاصات، أصابته في مقتل، وفارق يوسف السباعي الحياة في الحال، وسرعان ما تناقلت وكالات الأنباء الخبر، وكان سؤال الوقت الملح: لماذا قتل السباعي؟

سافر السادات إلى القدس في نوفمبر عام 1977 عقب خطابه الشهير الذي أعلن فيه رغبته الذهاب إلى القدس من أجل السلام؛ مما دفع عددًا من الدول العربية إلى قطع علاقاتها مع مصر. وقد رافق السباعي الرئيس السادات في رحلته؛ بصفته رئيسًا لتحرير جريدة الأهرام، وبعد نحو ثلاثة أشهر سافر السباعي إلى قبرص، دون أن يلقي بالا للتحذيرات التي تشير إلى وجود خطر في قبرص؛ بسبب القصور الأمني، واختراق الجزيرة بالعديد من أجهزة الأمن والمخابرات الأجنبية.

### كان هناك كشف:

تم تحذير يوسف السباعي، كما يؤكد القيادي الفلسطيني محمد صبيح، الذي كان يعمل بالجامعة العربية. يقول الرجل: حاولنا بكل السبل أن لا نذهب إلى قبرص فكان فارسًا

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: أنا لا أريد أن يقولوا إن يوسف السباعي جبن، ولا يريد أن يحضر .. لا .. سنذهب.

كانت هنالك تهديدات من بعض المنظمات الفلسطينية التي أعلنت استهدافها لجميع من رافقوا الرئيس السادات في رحلته إلى القدس، وقال الكاتب الصحفي مرسي سعد الدين، الذي كان مقربًا من يوسف السباعي: "هم قالوا كان هناك كشف، وأنا كنت ضمنه؛ لأن أنا كنت ضمن اللي راحوا القدس، ورحت بعد كده القدس في اللجنة السياسية، فبيقولوا كان فيه كشف ناس سيغتالوا، يقولوا كان على رأسهم يوسف السباعي".

**أنت مريض:**

جاء يوسف من مصر بعد زيارته لأمريكا إلى لارناكا، وكان وجهه شاحبًا، وعليه آثار البرد والهزال كما يقول السفير المصري لدى قبرص آنئذ حسن شاش. فقال له: أنت مريض وإيه اللي جابك؟ قال لي: أعمل إيه الشغل عايز كده. قلت له: طيب يا يوسف بيه أنا جايب لك معي حارس الأمن الخاص بي؛ عشان خاطر يكون معاك؛ لأن مش ضامن موضوع الأمن في الفندق بتاع هيلتون بتاع قبرص. قال لي: أمن إيه يا شيخ. الحارس هو الله.

الحماية في قبرص لم تكن كافية، ولم تكن محكمة، ولم يقدر القبارصة الظروف التي كان المصريون يعيشون فيها. وبعد اغتيال السباعي على يد اثنين من الفلسطينيين، أخذ القاتلان نحو ثلاثين من أعضاء الوفود المشاركين في مؤتمر التضامن رهائن، واحتجزوهم في كافيتيريا الفندق، مهددين باستخدام القنابل اليدوية في قتل الرهائن ما لم تستجب السلطات القبرصية لطلبهما، بنقلهما جوًّا إلى خارج البلاد.

**الربط بالكرافتة:**

يقول إدوارد الخراط، عضو وفد المؤتمر: طلبوا منا أن كل واحد يربط يد زميله بالكرافتة بتاعته، وخرجنا بهذا الشكل من قاعة الطعام تحت تهديد المسدس والقنبلة، إلى أتوبيس كانوا حضروه لهم، أو أعدّ لهم من السلطات القبرصية.

واستجابت السلطات القبرصية لطلب القاتلين، وتقرر إقلاعهما على طائرة قبرصية من طراز (DC8)، وذلك من مطار لارناكا. أطلق القاتلان سراح معظم الرهائن، بينما واصلوا احتجاز إحدى عشرة رهينة، من بينهم أربعة رهائن مصريين، ثم أقلعت بهم الطائرة من قبرص، ورفضت عدة دول أن تهبط بها، من بينها ليبيا وسوريا واليمن الجنوبية، وبعد هبوط اضطراري في جيبوتي، تقرر عودة الطائرة إلى مطار لارنكا.

### لا فلسطين بعد اليوم!:

في يوم التاسع عشر من فبراير عام 1978، أقيمت مراسم الجنازة لدفن يوسف السباعي، ولم يحضر الرئيس السادات الجنازة، لكنه أناب عنه نائبه مبارك ووزير الدفاع الجمسي. وقد شهدت مراسم الجنازة ردود أفعال شعبية ورسمية ضد القضية الفلسطينية. وتردد هتاف في الجنازة يقول: لا فلسطين بعد اليوم. والناس من شدة غضبها ومشاعرها الجريحة، تردد هذا الهتاف وراء صاحب الهتاف!

لم يتأخر السادات في الرد على جريمة اغتيال السباعي، فأرسل في اليوم التالي طائرة تقل مجموعة من رجال الصاعقة إلى قبرص؛ بغرض القبض على القاتلين، وتحرير الرهائن المحتجزين على متن الطائرة القبرصية. وفي السادسة مساء، طلب قائد الطائرة العسكرية المصرية رخصة للهبوط في مطار لارنكا، مدعيًا أن على متن الطائرة وزيرًا مصريًّا حضر خصيصًا للتفاوض مع القاتلين.

### معركة دامية:

فور هبوط الطائرة المصرية أعطى قائد قوات الصاعقة المصرية أوامره بالهجوم الشامل على الطائرة القبرصية، ومع بدء الهجوم المصري هاجمت قوات الحرس الوطني القبرصي قوات الصاعقة المصرية، ودارت معركة دامية، استمرت قرابة خمسين دقيقة، أسفرت عن تدمير الطائرة العسكرية المصرية، وقتل خمسة عشر رجلا من الصاعقة المصريين، وجرح ما يزيد على ثمانين مصابًا من الطرفين، وتم القبض على مَن تبقى من قوات الصاعقة المصرية.

استطاع بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية المصرية أن يصل إلى اتفاق مع القبارصة؛ ليعود بالجنود المعتقلين من رجال الصاعقة وجثث القتلى في يوم 20 فبراير عام 1978، وبعد أن تحركت الطائرة التي استقلها بطرس غالي ورجال الصاعقة المصريون بدقائق معدودة، أعلنت مصر قطع علاقاتها مع قبرص، وسحب اعترافها بالرئيس القبرصي كابريانو، واستدعاء بعثتها الدبلوماسية من نيقوسيا، كما طالبت الحكومة القبرصية بسحب بعثتها الدبلوماسية من القاهرة.

**فشل العملية:**

في مطار القاهرة تم استقبال رجال الصاعقة استقبال الأبطال، وتم تكريمهم ومنحهم الأوسمة، وأقيمت جنازة شعبية لضحايا الحادث، شارك فيها الرئيس السادات، ووسط خضم الهجوم على الفلسطينيين والقبارصة، أشادت وسائل الإعلام المصرية بنجاح مهمة الصاعقة، وروت قصص البطولات، بينما رأى كثير من المحللين أن العملية قد فشلت، وأن هذه الضجة الإعلامية ليست إلا نوعًا من التغطية على الخطأ الجسيم الذي ارتكبه السادات، بإرسال قوات الصاعقة دون إذن السلطات القبرصية.

ادعى قاتلا السباعي أنهما قد قتلاه لأنه ذهب إلى القدس برفقة الرئيس السادات، ولأنه - بحسب رأيهما - كانت له مواقف معادية للقضية الفلسطينية، في حين أن الراحل كان يكتب كثيرًا عن فلسطين، ويطالب بحقوق الشعب الفلسطيني، وله رواية خصصها لتناول القضية الفلسطينية هي رواية "طريق العودة"، التي تتعاطف مع اللاجئين الفلسطينيين، وتعرض قضيتهم.

اتهمت الصحف المصرية منظمة التحرير الفلسطينية بتدبير الحادث، ونفت المنظمة علاقتها به .. اتضح فيما بعد أن أحد القاتلين فلسطيني والآخر عراقي.

**هوية أبي نضال:**

وما لبثت منظمة أبي نضال أن أعلنت مسئوليتها عن الحادث، فأثيرت الأسئلة مرة أخرى عن هوية أبي نضال وهوية مَن يعمل لحسابهم، كان صبري البنا، الشهير بأبي نضال

والمولود عام 1937 ضمن منظمة التحرير الفلسطينية، وعين عام 1968 ممثلا لمنظمة التحرير في الخرطوم ثم في العراق. وفي عام 1974 انشق صبري البنا عن حركة فتح، وأسس ما عرف باسم حركة فتح المجلس الثوري؛ مما دفع ياسر عرفات إلى إصدار حكم بالإعدام ضده، تنقل أبو نضال بين العراق وسوريا وليبيا، وقضى آخر أيام حياته في العراق، ووجدت جثته بشقته في بغداد صيف عام 2002، بها رصاصة في الرأس .. وصرحت السلطات العراقية آنذاك أنه انتحر، بينما أكد الكثيرون أنه تم التخلص منه بأيد مجهولة.

### محاكمة صورية:

في التاسع من مارس عام 1978 بدأت محاكمة قاتلي السباعي، المدعو زيد حسين علي، والمدعو سمير محمد خضير أمام المحكمة القبرصية. رأس الجلسة المدعي العام القبرصي، وحضرها فريق من المراقبين المصريين، رأسه المدعي العام المصري عدلي حسين، وفي الرابع من أبريل عام 1978 حكمت المحكمة القبرصية على قاتلي السباعي بعقوبة الإعدام، وبعد عدة أشهر أصدر الرئيس القبرصي سيبروس كابريانو قرارًا رئاسيًّا بتخفيف الحكم عليهما من الإعدام إلى السجن مدى الحياة؛ وذلك لأسباب غير معروفة، قيل إنها تتعلق بأمن قبرص.

أعلنت قبرص أنها تلقت تهديدات من منظمات إرهابية عربية قد تقوم بعمليات على أراضيها إذا لم تطلق سراح المتهمين بقتل السباعي، وترددت بعد ذلك أنباء تفيد بأن قاتلي السباعي قد رحّلا من قبرص دون أن يُنفذ الحكم الصادر بشأنيهما.

وواضح أن المحاكمات التي تمت كانت صورية، فقد كان أبو نضال يهدد، وكان يقوم بدور البلطجي الذي تخافه قبرص، حيث تعتمد على السياحة ولا طاقة لها بالدخول في مشكلات مع أبي نضال أو غيره من القتلة؛ ولذا أفرجت عن القاتلين وأراحت نفسها، وهي متأكدة أن مصر لن تفعل شيئًا ذا بال يضرها!

### ذريعة للسادات:

بيد أن رد الفعل على مستوى الشارع المصري كان عنيفًا ضد الفلسطينيين بعامة، ولعل السلطة ضيقت على بعضهم من المقيمين في مصر، وقيدت حركة الداخلين والخارجين منهم. وقد أعطى الحادث ذريعة للسادات ليواصل طريقه في التفاوض مع اليهود الغزاة ليصل إلى حل منفرد، خاصة بعد أن استوعبوا صدمة المبادرة، وأخذوا يراوغون، وكثرت الاجتماعات واللقاءات في مصر وأوربا وأمريكا، دون الوصول إلى حلول مرضية.

### ينزل إلى السوق:

كتبت عن يوسف السباعي عقب رحيله، وعرفت بكتبه وأعماله الأدبية، وأشرت إلى الإهمال الذي تعرض له في المجال النقدي، والتعويض الذي وجده في إقبال الشباب على رواياته، والأفلام والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية التي نقلت أعماله من الورق والكتب إلى عالم الصورة والدراما. وهي أعمال ما زالت مؤثرة حتى الآن، لدرجة أن بعض الأسر المصرية كانت تسمي أولادها بأسماء أبطال رواياته وقصصه المحبوبة. لقد وصفه الناقد المصري الراحل محمد مندور بأنه «لا يقبع في برج عاجي، بل ينزل إلى السوق، ويضرب في الأزقة والدروب».

وقد لفتني في بعض صفحات رواياته (طائر بين المحيطين **1971**) تساؤلات وجودية، يستشعر فيها مصيره المأساوي:

"ماذا سيكون تأثير الموت عليَّ؟

وعلى الآخرين؟ لا شيء ..

ستنشر الصحافة نبأ موتي

كخبر مثير؛ ليس لأني مت

بل لأن موتي سيقترن

بحادثة مثيرة".

## زمن الغربة:

ظللنا في محاضرات التمهيدي نتناول مصرع يوسف السباعي، ونعلق على توابع الاغتيال، وكانت الصحف تتابع الأمر من زوايا مختلفة، ولكن الملفت في الأمر هو ازدياد الغضب الشعبي ضد الفلسطينيين المساكين، مع أن أغلبيتهم لا شأن لها بمن اغتالوه أو قتلوه.

في آخر العام الدراسي كان عليَّ - كما أشرت من قبل - أن أتهيأ للسفر إلى السعودية معارًا إلى مدرسة لا أعرفها في أقصى جنوبها، وأستعد لرحلة غربة طويلة. غربة بالمعنى المادي والمعنى النفسي، فقد جرت في النهر - بعد مبادرة السلام - مياه كثيرة، وتغيرت آراء، وتغيرت أفكار، وتغيرت نفوس .. ولله في خلقه شئون.

انتهى زمن الهزيمة، وبدأ زمن الغربة!

**حلمي محمد القاعود**

**(4 من ذي القعدة 1435هـ= 30 من أغسطس 2014م)**

***

# كتب للمؤلف

# الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

## أولا: كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض:

1- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته، 1427هـ= 2006م.

2- تيسير علم المعاني، 1427هـ= 2006م.

3- الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، 1428هـ= 2007م.

4- محمد ﷺ في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) 1429هـ= 2009م، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة (مصر)، 1408هـ= 1987م.

5- المدخل إلى البلاغة القرآنية، 1428هـ= 2007م.

6- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)، 1430 هـ= 2009م.

7 - تطور النثر العربي في العصر الحديث، 1429 هـ= 2008م.

8- مدرسة البيان في النثر الحديث، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، 1986م.

9- تطور الشعر العربي في العصر الحديث، 1431هـ= 2010م.

10 – المدخل إلى البلاغة النبوية، 1432هـ= 2011م.

## ثانيًا: كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق – كفر الشيخ):

1- الإخوان والنظام: برنامج الحزب المستحيل، 2009م.

2 - وجوه عربية وإسلامية، 2008م.

3 - الورد والهالوك: شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة)، 2009م، الطبعة الأولى، دار الأرقم، الزقازيق (مصر)، 1413هـ= 1993م.

4 - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة)، 2008م، الطبعة الأولى، دار البشير، عمّان (الأردن)، 1416 هـ= 1996م.

5 - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة)، 2010م، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

6 - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية)، 2009م، الطبعة الأولى، نادي جازان الأدبي (السعودية)، 1418 هـ= 1998م.

7 – روائع القصص النبوي: في رياض النبوة (4 أجزاء)، الطبعة الثانية، دار الصحابة، طنطا (مصر)، 2012م.

8 - شعراء وقضايا: قراءة في الشعر العربي الحديث، 2008م.

**ثالثًا: كتب صادرة عن مكتبة جزيرة الورد – القاهرة:**

1- التمرد الطائفي في مصر: أبعاده وتجلياته، 2011م.

2 – العمامة والثقافة: دفاع الإسلام وهجوم العلمانية، 2011م.

3 – عباد الرحمن وعباد السلطان ،2011م.

4– الأقلية السعيدة: يوميات التمرد والتسامح، 2011م.

5- ثورة الورد والياسمين: من سيدي بوزيد إلى ضفاف النيل، 2011م.

6 - اخلع إسلامك .. تعش آمنا!، 2011م.

7 – تدبير المنزل – ما بعد الثورة ،2011م.

8 – الضيافة والشهادة، 2011م.

9 – عواصف الربيع العربي، القاهرة، 2011م.

**رابعًا: إسلاميات:**

1 - مسلمون لا نخجل (4 طبعات)، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، 1399هـ= 1979م.

2 - حراس العقيدة (3 طبعات)، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، 1399هـ= 1979م.

3 - الحرب الصليبية العاشرة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

4 - العودة إلى الينابيع: فصول عن الفكرة والحركة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

5 - الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت

6 - ثورة المساجد .. حجارة من سجيل، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

7 - هتلر الشرق، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

8 - جاهلية صدام وزلزال الخليج، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، 1412هـ= 1992م.

7 - أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان)، طبعة السعودية، مؤسسة آسام للنشر، الرياض، 1412هـ= 1992م.

8 - النظام العسكري في الجزائر، دار الاعتصام، القاهرة، 1414 هـ= 1993م.

9 - حفنة سطور .. شهادة إسلامية على قضايا الأمة، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، 1414هـ= 1993م.

10 - الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة، مركز الإعلام العربي، 1423هـ= 2002م.

11 - الإسلام في مواجهة الاستئصال، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1425هـ= 2004م.

12 - تحرير الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1425هـ= 2004م.

13 - دفاعا عن الإسلام والحرية، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

14 – التنوير .. رؤية إسلامية، دار الاعتصام، القاهرة، 1417هـ= 1997م.

15 - معركة الحجاب والصراع الحضاري، مركز الإعلام العربي، القاهرة، 1429هـ= 2008م.

16 - العصا الغليظة، كتاب المختار، القاهرة، د. ت.

17 - واسلمي يا مصر، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا (مصر)، 1414هـ= 1993م.

18 - ثقافة التبعية: المنهج .. الخصائص .. التطبيقات، دار الفضيلة، القاهرة، 1417هـ= 1997م.

19- انتصار الدم على السيف، مركز الإعلام العربي، القاهرة، 1432هـ= 2011م.

20 - المدافعة والمداولة – قراءة في السنن والتحولات، مكتبة سلمى الثقافية، تطوان (المغرب)، 2012م.

21- أهل الفن وتجارة الغرائز، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

**خامسًا: كتب أدبية ونقدية:**

1- الغروب المستحيل (سيرة كاتب)، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، د. ت.

2- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان)، عدد خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية، الفاهرة، 1974م.

3- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، القاهرة، 1976م.

4- موسم البحث عن هوية: دراسات في الرواية والقصة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م.

5- حوار مع الرواية في مصر وسورية، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 1999م.

6- الوعي والغيبوبة: دراسات في الرواية المعاصرة، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، 1427هـ=2007م.

7- إنسانية الأدب الإسلامي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار (مصر)، 2008م.

8- حصيرة الريف الواسعة، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار ( مصر)، 2008م.

9- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة، وزارة الأواف والشئون الإسلامية، سلسلة روافد، الكويت، 1430هـ= 2009م.

10- الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية)، دار حضر موت، المكلا (اليمن)، 2011م.

11- الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) دار الاعتصام، القاهرة، 1418هـ= 1998م.

12- بالاشتراك مع آخرين، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012م.

13- بالاشتراك مع آخرين، أمل دنقل عابرًا للأجيال، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013م.

14- مطولة علي أحمد باكثير، مطبوعات نادي جازان الأدبي (السعودية)، د. ت.

15- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، 1976م.

16- لويس عوض: الأسطورة والحقيقة، دار الاعتصام، القاهرة، 1414هـ= 1994م.

17- نحو رواية إسلامية، ملحق المجلة العربية (29)، الرياض، 1420هـ= 1999م.

**سادسًا: إعلام:**

1- الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية، ط2، دار الاعتصام، القاهرة، 1423هـ= 1992م.

**سابعًا: كتب للأطفال:**

1- واحد من سبعة، هيئة قصور الثقافة، سلسلة كتاب قطر الندى – العدد 164، القاهرة، د. ت.

**ثامنًا: كتب محققة:**

1- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي، وموقفه إزاء المدنية الغربية، دار الفضيلة، القاهرة، 2010م.

2- طائفة من المؤلفين، أحسن ما كتبت، دار الفضيلة، القاهرة، 2010م.

3 – المتنبي، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) دار الفضيلة، القاهرة.

4 – تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي (تحت الطبع)، دار الفضيلة، القاهرة.

**تاسعًا: كتب معدة للنشر:**

1- الإبادة والمقاومة: الشعب الفلسطيني لا يموت.

2– خبز السلطة .. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة).

3- الحلم والدهشة (قراءة أدبية).

4– اللحم الإسلامي المستباح.

5- حضرت التبعية .. وغابت الهوية.

6- صالون الشعر والأدب (أعلام وقضايا).

7- نداء الفطرة.

8- ثقافة تزغيط البط!.

9- محرقة غزة .. الشعب الفلسطيني يقاوم!.

10- القيم الإسلامية في رسائل النور.

11- كهنة آمون!.

12- الصرب في مصر.

13- الوطن على كتفي!.

14- القبضة الفولاذية.

15- على باب الحرية.

***

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| 1 - الإبحار إلى المجهول | 5 |
| 2 - تجوال في البلاد | 28 |
| 3 - الضباب! | 51 |
| 4 - عبور الهزيمة! | 75 |
| 5 - الفرحة والبطولة! | 100 |
| 6 - شهداء ومباحثات | 123 |
| 7 - رجال ومواقف | 149 |
| 8 - الصيف الجميل | 174 |
| 9 - الجائزة الكبرى | 198 |
| 10 - عام حافل | 222 |
| 11- مراوغات وأحزان | 248 |
| كتب للمؤلف الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود | 273 |


***